کارل مارکس

الناشر



دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

من الفكر السياسى والاشتراكى

كارل ماركس

تأليف إيسيا برلين

ترجمة عبد الكريم أحمد

مراجعة محمد سامى عاشور

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

هذه ترجمة كاملة لكتاب :

KARL MARX

by

ISAIAH BERLIN

الفصل الأول

تقديم

« إن الأشياء والتصرفات هي ما هي ، والنتائج ستكون
أيضاً هي ما هي ، فلماذا إذن نسعى لخديعة أنفسنا ؟ »
« الأسقف تبلر »

ليس هناك من بين مفكرى القرن التاسع عشر من ترك أثراً مباشراً قوياً متعمداً فى الجنس البشرى مثل كارل ماركس . فقد كان له على أتباعه ، إبان حياته وبعد موته ، نفوذ فكرى ومعنوى فريد فى قوته ، لا يماثله نفوذ آخر حتى فى ذلك العهد الذهبي ، عهد القومية الديموقراطية ، الذى شهد ظهور أبطال وشهداء شعبيين عظماء وشخصيات رومانسية ، بل هى تكاد تكون أسطورية ، سيطرت حياتهم وكلماتهم على أخيلة الجماهير وخلقت تقليداً ثورياً جديدا فى أوروبا . ومع ذلك لا يمكننا القول بأن ماركس كان شخصية شعبية فى أى وقت من الأوقات بالمعنى المألوف لهذه الكلمة : فما لا ريب فيه أن ماركس لم يكن بأى حال كاتباً أو خطيباً شعبياً . فقد كتب كثيراً ولكن أعماله لم تحظ بجمهور واسع من القراء إبان حياته ؛ وحتى عند ما حظيت مؤلفاته بذلك الانتشار الضخم الذى صادفه الكثير منها فى أواخر العقد الثامن من القرن الماضى ، لم تكن الرغبة التى حدت بالناس إلى قراءتها وليدة إدراكهم لقيمتها الذاتية بقدر ما كانت ناجمة عن نمو شهرة الحركة أو سوء شهرتها التى اقترنت باسمه .

إن ماركس كانت تعوزه تماماً صفات القائد أو الزعيم الشعبي العظيم ، وهو لم يكن داعية عبقرياً مثل الديمقراطي الروسى « اسكندر هرزن » ، ولم تكن لديه بلاغة « باكونين » العجيبة ؛ وقد قضى الجزء الأكبر من حياته العاملة مغموراً نسبياً فى لندن ، جالساً إلى مكتبه أو فى قاعات المطالعة بالمتحف البريطانى . فلم يكن معروفاً لدى عامة الناس ، وعند ما أصبح فى أخريات حياته الزعيم المعترف به

الذى حاز إعجاب الناس والمرشد لحركة دولية قوية ، لم يكن فى حياته أو شخصيته ما يشغل أخيلة الناس أو يثير فيهم ذلك الولاء الذى لا حد له ، وذلك الإجلال الشديد الذى يكاد يصل إلى حد التقديس الذى كان « لكوسوث » و « مازينى » بل و « لاسال » — فى أخريات حياته — فى نظر أنصارهم .

ولم تكن المرات التى ظهر فيها فى حفل عام كثيرة ولا ناجحة بصورة تستلفت الأنظار ، ففى المناسبات القليلة التى خطب فيها فى حفلات أو اجتماعات عامة كان حديثه دسما ،وكان يلقيه فى مزيج من الرتابة المملة والجفاف الذى يثير احترام مستمعيه ولكنه لا يثير حماستهم . وكان بطبيعته رجل نظريات ورجل فكر ، يتجنب بطريقة غريزية الاتصال المباشر بالجماهير التى كرس حياته كلها للدفاع عن مصالحها . وكان يبدو للكثيرين من أتباعه فى دور المدرس الألمانى الدوجماتى المقتضب الذى لا يمل تكرار موضوعه بحدة متزايدة إلى ما لا نهاية حتى يثبت جوهره بصورة لا تمحى فى أذهان تلاميذه . وقد ألقى الجزء الأكبر من تعاليمه الاقتصادية لأول مرة فى محاضرات ألقاها على فريق من العمال : وكان عرضه لها فى تلك الظروف مثالا فى الوضوح والإيجاز . ولكنه كان يكتب ببطء وصعوبة كما يحدث أحياناً مع المفكرين من ذوى الذهن الخصب السريع الذين لا يكادون يستطيعون ملاحقة أفكارهم فى سرعتها ، فهم لا يكادون يصبرون على عرض مذهب جديد لهم ، ويتعجلون الرد على كل اعتراض يمكن أن يثار ضد مذهبهم ، فأتى ما نشره على الناس متضخما ثقيلا غامضاً فى تفاصيله ، ولو أن المذهب الرئيسى لم يكن محل شك على الإطلاق. وكان ماركس يعرف ذلك عن نفسه حق المعرفة، وقد قارن نفسه مرة ببطل قصة بلزاك «التحفة المجهولة»(١) الذى يحاول أن يرسم صورة تكونت فى مخيلته فيلمس بفرشاته اللوحة المرة بعد المرة إلى ما لا نهاية ، فتجىء الصورة فى آخر الأمر كتلة من الألوان لا شكل لها ، وتبدو لعينيه معبرة عن الصورة التى فى مخيلته . فقد كان ماركس ينتمى إلى جيل يعمل على تنمية العواطف بشدة وإصرار بأكثر مما كان يفعل أسلافه ، ونشأ بين رجال كانت الأفكار بالنسبة لهم فى كثير من الأحيان ، أكثر واقعية من الحقائق ، وكانت علاقاتهم الشخصية تعنى لديهم أكثر بكثير من أحداث العالم الخارجى ؛

---

(١) Unknown masterpiece

رجال فهموا الحياة العامة ، وفسروها على ضوء عالم تجاربهم الخاصة الذى يمتاز بغناه وإحكامه . ولم يكن ماركس بطبيعته ممن يلجأون إلى التأمل الاستبطانى ، وكان لا يهتم كثيراً بالأشخاص أو بالحالات الذهنية أو الروحية ؛ فكان إخفاق الكثيرين من معاصريه فى تقدير أهمية التحول الثورى للمجتمع فى زمنهم ، نتيجة للتقدم التكنولوجى السريع وما صاحبه من ارتفاع مفاجئ فى الثروة ، ومن اضطراب وارتباك ثقافى واقتصادى ، لا يثير فى نفسه سوى الغضب والازدراء .

وقد وُهب ماركس عقلا قويا نشطا لا يتأثر بالعاطفة ، وإحساسا عميقا بالظلم ، وحساسية ضئيلة إلى حد غير عادى ؛ وكان يشمئز من عاطفية المفكرين والتجائهم إلى الأسلوب الخطابى بقدر ما كان يشمئز من غباء البورجوازيين ورضائهم بالحالة القائمة . فقد بدت له الأولى مجرد شقشقة لسان لا هدف لها ، بعيدة عن الواقع ومثيرة للأعصاب سواء أكان هؤلاء المفكرون مخلصين فيما يدعون إليه أم غير مخلصين ؛ وأما الثانية فقد بدت له رياء وخداعا للنفس فى وقت واحد من جانب البورجوازية ، التى أعماها انصرافها إلى جمع المال ، وسعيها وراء الجاه الاجتماعى عن رؤية المعالم البارزة للعصر الذى تعيش فيه .

وقد أدى هذا الإحساس بأنه يعيش فى عالم يتسم بالعداوة والابتذال ، إلى زيادة خشونته وتهجمه الطبيعيين ، ولعل نفوره من كونه ولد يهوديا قد ضاعف من هذا الإحساس . وهكذا تكونت عنه فى أخيلة الناس صورة لشخصية هائلة . وإن أكثر الناس إعجابا به ليتعذر عليه أن يصفه بالحساسية أو رقة القلب أو بالاهتمام بمشاعر من يتصلون به ؛ فقد كان معظم من قابلهم من الناس فى نظره إما بلهاء أو متزلفين . وكان سلوكه نحو أمثال هؤلاء يتسم بالريبة السافرة أو الازدراء المكشوف . بيد أنه إذا كان يتخذ فى المناسبات العامة موقف الصلف والتهجم ، فإنه كان فى دائرة أخصائه المكونة من عائلته وأصدقائه ، الذين كان يشعر بينهم بالاطمئنان الكامل ، لطيفا يراعى مشاعرهم . فكانت حياته الزوجية سعيدة بصورة غير عادية ، وكان شديد التعلق بأولاده ، كما عامل صديق حياته ومعاونه « انجلز » بولاء وإخلاص لم يتحولا . وكان ماركس رجلا غير جذاب ، فظ السلوك فى كثير من الأحيان ، ولكن حتى أعداءه كانت تسحرهم قوة شخصيته

وبأسها ، وجرأة آرائه ، واتساع أفق تحليله الموقف المعاصر له تحليلا وضاء

وقد ظل طوال حياته شخصا غريبا يعيش فى عزلة عن بقية الثوريين فى عصره ، يعادى أشخاصهم ووسائلهم وأهدافهم جميعا . بيد أن عزلته لم تكن وليدة المزاج أو ثمرة ظروفه من حيث المكان والزمان فحسب . إذ على الرغم من الاختلاف الكبير بين معظم الديموقراطيين الأوروبيين فى أخلاقهم وأهدافهم وبيئتهم التاريخية ، فقد كانوا جميعا يشبهون بعضهم بعضا فى صفة أساسية واحدة جعلت التعاون بينهم أمرا ممكنا ، على الأقل من ناحية المبدأ . فالغالبية العظمى منهم ، سواء منهم من اعتقد فى الثورة العنيفة أو من لم يعتقد ، كانت من المصلحين المتحررين فى نهاية الأمر ، يعتمدون صراحة فى دعوتهم على مستويات أخلاقية مشتركة بين البشر جميعا . فقد انتقدوا واستنكروا الوضع القائم للبشرية على ضوء مثل أعلى تصوروه من قبل أو نظام لا تحتاج رغبتهم فيه على الأقل إلى توضيح ، لأنه واضح بذاته لجميع من لديهم التقدير العادى للمعايير الأخلاقية . وكانت خططهم تختلف من حيث مدى قابليتها للتحقيق العملى ، ومن ثم كان يمكن وصفها بأنها مما يدخل فى نطاق المثالية ، وإن تفاوتت فى درجات مثاليتها . بيد أنه كان هناك اتفاق عام بين جميع المدارس الديموقراطية على الأهداف النهائية التى ينبغى السعى لتحقيقها ، وإن كانوا قد اختلفوا حول فعالية الوسائل المقترحة ، وحول مدى ما تكون مساومتهم مع السلطات القائمة متفقة مع قواعد الأخلاق أو متمشية مع الحكمة العملية ، وحول طابع بعض الأوضاع الاجتماعية المعينة وقيمتها ، ومن ثم حول السياسة التى تتبع حيالها . ولكنهم كانوا أساسا مصلحين ، بمعنى أنهم آمنوا بأن ليس هناك مالا تستطيع إرادة الأفراد من أولى العزم تغييره إلا ما ندر ، كما آمنوا بأن الأهداف الأخلاقية الثابتة تكفى لحفز الناس على العمل ، إذ لها ما يبررها فيما تلتمسه ، لا من الحقائق ، بل من بعض مستويات القيم التى تلقى قبولا عاما بين الجميع . وترتب على ذلك أن أصبح الطريق السليم فى أن يبدأ المرء بالتأكد عما يريد أن يكون العالم عليه ؛ ثم يحدد ، على ضوء ما انتهى إليه فى الخطوة الأولى ، ما ينبغى الاحتفاظ به من الأوضاع الاجتماعية القائمة وما ينبغى التخلص منه ؛ ويبحث فى النهاية عن أكثر الوسائل فعالية فى تحقيق التغيير المطلوب .

ولم يحظ هذا الاتجاه ، الذى كان يعم الأغلبية الساحقة من الثوريين والمصلحين فى كل العهود ، برضاء ماركس مطلقا . فقد كان مقتنعا بأن التاريخ تحكمه قوانين مثل القوانين التى تحكم الطبيعة ، لا يمكن تغييرها بتدخل أفراد يدفعهم هذا المثل الأعلى أو ذاك . بل إنه كان يعتقد فى الواقع أن التجربة الشخصية الداخلية التى يعتمد عليها الناس فى تبرير أهدافهم بعيدة كل البعد عن أن تكشف أى نوع خاص من الحقيقة ، مما يمكن أن نسميه حقيقة أخلاقية أو دينية ، وأنها مجرد ملكة تتولد عنها أوهام وخرافات فردية وجماعية . ولما كانت هذه الخرافات تخضع للظروف المادية التى تنشأ فى ظلها ، فإنها تتضمن ما يريد الناس فى بأسائهم أن يصدقوه ، متنكرا فى صورة حقيقة موضوعية ؛ وتحت تأثير نفوذها الخادع ، يضل الناس فى تفسير طبيعة العالم الذى يريدون أن يعيشوا فيه ، ويسيئون فهم وضعهم فيها ، ومن ثم يخطئون فى تقدير مدى قوتهم وقوة غيرهم ، وفى تقدير نتائج تصرفاتهم وتصرفات خصومهم . وقد آمن ماركس ، معارضا بذلك غالبية أصحاب النظريات فى عصره ، بأن القيم لا يمكن التفكير فيها بمعزل عن الوقائع ، ولكنها تعتمد بالضرورة على الطريقة التى يُنظر بها إلى الوقائع . فالبصيرة الصادقة إذا أعملت فى طبيعة التطور التاريخى وقوانينه تكفى بذاتها ، من غير الالتجاء إلى المستويات الأخلاقية المنعزلة ، لأن توضح لأى مخلوق عاقل الخطوات السليمة التى ينبغى عليه اتخاذها ، أى الطريق الذى يتفق أكثر ما يكون مع مقتضيات النظام الذى ينتمى إليه . ونتيجة لذلك لم يكن لدى ماركس أى مثل أعلى ، أخلاقى أو اجتماعى ، يدعو الجنس البشرى إليه . فهو لم يدع الناس إلى تغيير ما بأفئدتهم ، إذ أن ذلك فى نظره لا يعدو بالضرورة أن يكون إحلالا لمجموعة من الأوهام محل أخرى . وهو يختلف عن بقية أصحاب المذاهب البارزين فى جيله فى أنه كان يعتمد ، على الأقل من وجهة نظره الخاصة ، على العقل وحده أو الذكاء العملى ، وقصر هجومه على الانحراف الفكرى أو العمى العقلى وحدهما ، مصرا على أن كل ما يحتاجه الناس لكى يعرفوا كيف ينقذون أنفسهم من الخراب الذى يحيق بهم ، هو أن يسعوا لتفهم ظروف واقعهم ؛ مؤمنا بأن التقدير الصحيح لميزان القوى فى المجتمع الذى ينتمى إليه الناس ، سينير لهم وحده الطريق لنوع الحياة الذى يقضى العقل بالسعى إلى تحقيقه . فماركس يدين النظام القائم معتمدا

على التاريخ لا على المثل العليا ؛ فهو لا يحكم عليه بأنه سيء أو غير موفق أو ناجم عن الشر الإنسانى أو الحماقة البشرية ، بل يدينه بوصفه نتيجة لقوانين التطور الاجتماعى التى تقضى بأنه لامهرب ، فى مرحلة معينة من التاريخ ، من أن تنتزع طبقة ما فى يد طبقة أخرى وتستغلها . ومن ثم فإن مصدر التهديد بالنسبة للطبقة الظالمة ليس انتقام ضحاياهم ، بل هو الدمار الحتمى الذى يخبئه لها التاريخ بوصفهم طبقة مقضيا عليها بالاختفاء من مسرحه سريعا .

ومع ذلك فعلى الرغم من أن لغته قصد بها أن تكون موجهة للعقل ، فقد كانت لغة الداعية والنبى الذى يتحدث باسم قانون الطبيعة نفسه لا باسم البشر ، لا يسعى لتحسين حال الناس أو إنقاذهم مما هم فيه ، ولكنه يحذر ويندد ، ويهدف إلى كشف الحقيقة وإلى دحض الأباطيل قبل كل شيء . ولعل عبارة « سأهدم وسأشيد » التى وضعها « برودون » على رأس أحد مؤلفاته تصور مفهوم ماركس عن الرسالة التى فرضها على نفسه تصويرا أكثر دقة . ففى سنة ١٨٤٥ كان ماركس قد أكمل المرحلة الأولى من برنامجه ، وتعرف على طبيعة تطور المجتمع الذى وجد نفسه فيه وتاريخه والقوانين التى تحكمه ، وانتهى إلى أن تاريخ المجتمع هو تاريخ النضال بين طبقات يناوئ بعضها بعضها لابد أن تخرج إحداها منه منتصرة بعد أن تكون قد تعرضت لتغير كبير : فالتقدم هو وليد انتصارات متتالية لطبقة على أخرى ، والرجل العاقل وحده هو الذى يجعل نفسه جزءا من الطبقة التقدمية فى مجتمعه ، إما بأن يهجر عامدا ماضيه وينضم إلى هذه الطبقة ، إذا تطلب الأمر ذلك ، وإما بأن يدرك وضعه ويتصرف على ضوئه إذا كان التاريخ قد أحله بالفعل فى هذه الطبقة .

وبناء على ذلك ، فإن ماركس بعد أن استبان بأن الطبقة التى كتب لها النصر فى الصراع الذى يجرى فى عصره إنما هى طبقة البروليتاريا ، كرس بقية حياته لوضع الخطط التى تكفل انتصار أولئك الذين وضع نفسه على رأسهم . إنه انتصار كان التطور التاريخى كفيلا بأن يحققه على أية حال ، غير أن الشجاعة الإنسانية والعزم والبراعة تستطيع مع ذلك أن تحققه بطريقة أسرع وتجعل عملية التحول أقل إيلاما ، وتقلل مما يصاحبها من شقاق وضياع فى المادة البشرية . ومن ثم فإن

مركزه كان مركز القائد الذى يحارب فى المعركة فعلا ، فلا يطالب نفسه ولا غيره بتبرير اشتراكهم فى هذه الحرب على الإطلاق ، أو تبرير انضمامهم إلى هذا الجانب دون ذاك : فحالة الحرب ومركز الإنسان منها أمر واقع ، فهما حقيقتان لا سبيل إلى مناقشتهما ، بل يجب أن يقبلهما ويتفهمهما ، وكل ما يعنى المرء فيهما هو أن يعمل على هزيمة العدو . أما بقية المشاكل فهى أكاديمية تقوم على ظروف فرضية لم تتحقق ، ومن ثم فهى غير ذات موضوع . ومن هنا كان خلو مؤلفات ماركس الأخيرة تقريبا من كل مناقشة للمبادئ النهائية ومن أية محاولة لتبرير وقوفه فى وجه البورجوازية . فمزايا العدو ونقائصه ، أو ما كان يكون عليه الأمر لو أنه لم يكن هناك عدو أو لم تكن هناك حرب ، ليس لها أهمية خلال المعركة . وكل التفات إلى هذه القضايا التى لا علاقة لها بالموضوع أثناء القتال الفعلى هو بمثابة صرف اهتمام المؤيدين عن القضايا الحاسمة التى تواجهم ، سواء أدركوا كنهها أو لم يدركوه ، ومن ثم فهو يضعف من قوة مقاومتهم .

وكل ما يهم أثناء الحرب الفعلية هو إدراك المرء إدراكا دقيقا لموارده وموارد خصمه ، كما أن إلمامه بتاريخ المجتمع فيما سبق ، ومعرفته بالقوانين التى تحكم المجتمع شيء لا غنى عنه فى سبيل ذلك ؛ و « رأس المال » هو محاولة فى سبيل مثل هذا التحليل . فخلوه الذى يكاد يكون كاملا من الحجج الأخلاقية السافرة ومن مناشدات الضمير أو المبدأ ، وخلوه الذى لا يقل عن ذلك دهشة من أى تنبؤ مفصل بما سيحدث ، أو ما يجب أن يحدث بعد النصر ، إنما هو نتيجة لتركيز الانتباه على المشاكل العملية ، وقد نبذ مفهومى الحقوق الطبيعية والضمير ، بوصفهما حقا من حقوق كل فرد بصرف النظر عن وضعه فى الصراع الطبقى ، على أساس أنهما أوهام تحررية : فالاشتراكية لا تدعو إنما تحتم ، وهى لا تتحدث عن الحقوق ، ولكن عن الصورة الجديدة للحياة التى صار واضحا أن البناء الاجتماعى القديم قد بدأ يتحلل أمام مقدمها الذى لا يقف فى سبيله شيء . فالمفاهيم والمثل العليا السياسية والاقتصادية لا تقل فى تغيرها عن الظروف الاجتماعية التى تنبثق هذه المفاهيم منها : فاعتبار أى مفهوم منها قضية عامة لا تتغير هو بمثابة الاعتقاد بأن النظام الذى ينتمى إليه هذا المفهوم — وهو البورجوازية فى هذه الحالة — نظام أبدى . وهذه المغالطة هى

الأساس الذى تقوم عليه جميع المذاهب الأخلاقية والسيكلوجية التى نادى بها الإنسانيون المثاليون منذ القرن الثامن عشر فصاعدا . ومن هنا كان الازدراء والكراهية اللذان صبهما ماركس على ذلك الغرض المشترك الذى اشترك فى وضعه المتحررون والنفعيون ، من أنه ما دامت مصالح جميع الناس فى النهاية واحدة ، بل لقد كانت دائما واحدة ، فإن قدراً من النوايا الطيبة والاتجاه نحو الخير من جانب كل إنسان قد يجعل من الممكن خلق نوع ما من التفاهم بين الجميع . وطالما أن الحرب أمر واقعى فإن هذه المصالح تكون متعارضة بالكلية . وأى إنكار لهذه الحقيقة لا يمكن أن يكون مرجعه إلا إلى الغباء أو الإهمال السافر للحقيقة ، بل هو صورة بشعة بشكل منقطع النظير من صور الرياء أو خداع النفس ، صورة فضحها التاريخ المرة تلو المرة ، وأما هذا الاختلاف الجذرى فى وجهة النظر ، فليس مجرد عدم تشابه فى المزاج أو المواهب ، هو الذى يميز ماركس بوضوح عن الراديكاليين البورجوازيين والاشتراكيين المثاليين الذين أحنقهم وأذهلهم ماركس بإعلانه الحرب عليهم ومهاجمته لهم بوحشية وبلا رحمة أكثر من أربعين عاما .

وكان ماركس يكره الرومانسية والعاطفية « والإنسانية » من أى نوع ، وقد دعاه حرصه الشديد على تجنب أى التجاء إلى المشاعر المثالية لدى جمهوره إلى إزالة كل أثر للاصطلاحات الديمقراطية القديمة من اللغة التى استعملها فى الدعوة لحركته بطريقة منظمة ، ولم يتقدم ماركس بأى تنازل ، أو يشجع على أن يتقدم إليه أحد بمثل ذلك فى أى وقت من الأوقات ، كما أنه لم يدخل فى أية محالفات سياسية مريبة ، حيث أنه كان يندد بكل صور المساومة . ولازالت الأصول الخطية لمنشوراته العديدة ومواثيق الإيمان بقضيته وبرامج العمل التى تحمل توقيعه ، شاهداً على آثار الشطب والتعليقات العنيفة التى استعملها فى محو كل إشارة إلى العدالة الأبدية والمساواة الإنسانية وحقوق الأفراد أو الشعوب وحرية الضمير والكفاح فى سبيل المدنية ، وما شابه ذلك من العبارات المماثلة التى كانت بضاعة الحركات الديموقراطية فى عصره (وكانت فى وقت من الأوقات تمثل فعلا مثلها العليا) ؛ فقد كان ينظر إلى هذه العبارات عن أنها هراء لا قيمة له يدل على بلبلة الفكر وعدم فعالية العمل .

وذهب ماركس إلى أنه يجب القتال فى جميع الجبهات ؛ ولما كان المجتمع المعاصر منظما تنظيما سياسياً وجب تكوين حزب سياسى من العناصر التى قدر لها طبقا لقوانين التطور التاريخى أن تخرج من الصراع طبقة فائزة منتصرة . ويجب أن تعلم هذه العناصر بدون انقطاع أن ما قد يبدو ثابتاً راسخاً فى المجتمع القائم مقضى عليه فى الواقع بالفناء السريع ، وهى حقيقة يصعب على الناس تصديقها بسبب الستار الواقى الضخم من الفروض والمعتقدات الأخلاقية والسياسية والاقتصادية التى تخلقها الطبقة المحتضرة ، شعورياً أو لا شعورياً ، لتحجب عن أنظارها وأنظار الآخرين مصيرها القريب . والأمر يتطلب شجاعة فكرية ودقة فى التصور ليستطيع المرء أن يخترق حجب ذلك الستار المعتم،ويصل إلى إدراك الوضع الحقيقى للأحداث . فمنظر الفوضى الشاملة والأزمة التى لا بد أن تنتهى إليها هذه الفوضى كفيل وحده بإقناع أى مراقب صافى الذهن يهتم بما يجب أنْ يكون عليه ، وبما يجب أن يفعله ليضمن لنفسه البقاء — لأنه ما من شخص يستطيع أن يظل متفرجاً لا يهمه شيء من أمر مصير المجتمع الذى ترتبط به حياته نفسها إلا إذا كان هذا الشخص ميتاً فعلا أو محتضراً . فمعرفة الوقائع فى رأى ماركس ، لا أية مجموعة شخصية من القيم ، تبدو مختلفة للأشخاص المختلفين وتتحدد مع ضوء رؤيا باطنية هى التى يجب أن تحدد السلوك العقلى . والمجتمع الذى يحكم عليه بأنه تقدمى ، ومن ثم يكون جديراً بالتأييد ، هو المجتمع الذى تتوافر فيه القابلية للتوسع فى اتجاهه الرئيسى دون تغيير أساسه كله . ويكون المجتمع رجعيا عند ما يكون متجها بصورة حتمية إلى أزمة لا مخرج منها ، غير قادر على تجنب الفوضى الداخلة والانهيار النهائى رغم كل الجهود اليائسة التى تبذل للإبقاء عليه ؛ جهود تخلق هى نفسها إيماناً لا يقوم على أساس عقلى باستقرار المجتمع فى النهاية ، وهى فى الواقع بمثابة المسكن الذى تخدع به نفسها جميع الأوضاع المحتضرة بالضرورة . ومع ذلك فإن ما حكم عليه التاريخ بالفناء — والتاريخ عند ماركس يكاد يكون عنصراً إيجابياً — لا بد أن يفنى :

فالقول بوجوب إنقاذه ، حتى عندما يكون ذلك مستحيلا ، هو بمثابة إنكار الاتجاهات العقلية للكون . واعتبر ماركس أن نقد الوقائع نفسها ليس سوى مجرد صورة طفولية من « الشخصية » Subjectivism ، ترجع إلى وجهة نظر سطحية

معتلة فى الحياة ، إلى تحيز لا يقوم على أساس عقلى لصالح هذه الفضيلة أو ذلك الوضع ؛ وهو يكشف عن تمسك بالعالم القديم ودليل على عدم التحرر الكامل من قيمه . فقد بدا له أن المشاعر الإنسانية المخلصة ستار تترعرع خلفه بذور الضعف والخيانة بعيدة عن الأنظار نتيجة للرغبة الكامنة فى الوصول إلى حل وسط مع الرجعية ، ولفزع خفى من الثورة يقوم على الخوف من الحقيقة ، الخوف من ضوء النهار الواضح . بيد أنه لا يمكن أن يكون هناك حل وسط مع الحقيقة . « والإنسانية » ليست سوى صورة رخوة من التفاهم لإنقاذ ماء الوجه يرجع سببها إلى الرغبة فى تجنب مخاطر النضال العلنى ، وتجنب أخطار النصر ومسئولياته . ولم يكن هناك ما يثير حنق ماركس مثل الجبن : ومن هنا كانت النقمة الغاضبة ، التى تكاد تصل إلى حد الوحشية ، التى كان يتحدث بها عن الجبن ، وكانت بداية لذلك الأسلوب « المبادى » الذى جاء غريباً على لغة الاشتراكية الثورية . وقد أخذ هذا الميل نحو « الموضوعية السافرة » — خاصة بين الكتاب الروسيين فى الجيل التالى — شكل البحث عن أكثر الأساليب حدة ، وأبعدها عن الزينة ، وأشدها تنفيذاً ، للتعبير بها عن قضايا قد لا تكون مذهلة جداً فى بعض الأحيان .

وكان ماركس ، كما يقول هو ، قد بدأ يشيد أداته الجديدة من بدايات تكاد تكون عارضة تماما : فلقد أدرك خلال مشادة قامت بينه بوصفه محررا لجريدة راديكالية ، وبين الحكومة حول موضوع اقتصادى ذى أهمية محلية بحتة ، أنه يكاد يكون جاهلا جهلا تاما بتاريخ ومبادئ النمو الاقتصادى . حدثت هذه المشادة فى سنة ١٨٤٣ . وما أن وافت سنة ١٨٤٨ حتى كان قد أتم تعليم نفسه كمفكر سياسى واقتصادى ، واستطاع فى دقة فذة أن يكوّن نظرية كاملة عن المجتمع وتطوره تحدد بدقة مطلقة كيف يبحث المرء عن الجواب لجميع مثل هذه الأسئلة وأين يجده . وقد ثار الجدل كثيرا حول نصيب هذه النظرية من الأصالة . وهى نظرية أصيلة ، لا بمعنى أصالة العمل الفنى عندما يتجسد تجربة فردية لم يسبق التعبير عنها من قبل ، ولكنها أصيلة أصالة النظريات العلمية عندما تعطى حلا لمشكلة لم يوجد لها حل من قبل ، وهى قد تفعل ذلك بتعديل بعض وجهات النظر القائمة ومزجها لتكون نظرية جديدة . ولم يحاول ماركس أبدا أن يفكر فيما هو مدين به

للمفكرين الآخرين : فقد قال مرة بشيء من التعالى : « إنى أقوم بعمل من أعمال العدالة التاريخية ، وأعطى لكل ذى حق حقه » . وقد ادعى لنفسه أنه قدم لأول مرة جوابا مناسبا لأسئلة كان يساء فهمها قبل ذلك ، أو كانت الإجابة عليها تأتى خاطئة أو ناقصة أو غامضة . فالميزة التى كان ماركس يتوخاها هى الحقيقة لا الجدة ، وعندما كان يجد الحقيقة فى أعمال الآخرين كان يحاول — على الأقل خلال السنوات الأولى من حياته فى باريس التى أخذ فيها تفكيره شكله النهائى — أن يدمج هذه الحقيقة فى « توليفته » Synthesis الجديدة . فجاءت النتيجة فإذا بالأصيل فيها ليس عنصرا من عناصرها المكونة ، بل النظرية الرئيسية نفسها التى ربطت كل عنصر بالعناصر الأخرى ، بحيث بدأت الأجزاء وكأن كل جزء ينبثق مما سبقه ويدعم الأجزاء الأخرى فى كلٍّ موحد منتظم .

ومن ثم فإن تتبع المصـــدر المباشر لأى نظرية من النظريات التى عرضها ماركس مهمة سهلة نسبيا تولى نقاده العديدون القيام بها وهم جد تواقين إلى ذلك ، ويمكن الجزم بأنه ما من رأى من آرائه إلاوكانت بذوره موجودة فى كتابات أحد الكتاب السابقين أو المعاصرين له . ويحتمل أن مبدأ الملكية الشائعة القائمة على إلغاء الملكية الفردية كان له — فى صورة أو أخرى — أنصاره فى معظم الأوقات خلال ألفى السنة الماضية . ومن ثم فإن السؤال الذى كثيرا ما كان موضع الجدل ، وهو هل أخذ ماركس هذا المبدأ مباشرة من كتابات « مابلى » أو من بعض ما كتب بالألمانية عن الشيوعية الفرنسية ؟ هو سؤال أكاديمى بحت ولا أهمية له . أما فيما يتعلق بالمبادئ الأكثر تحديدا فإن المادية التاريخية توجد فى صورتها الكاملة فى رسالة كتبها « هولباخ » قبل ذلك بقرن ، وهذه بذورها مدينة بالكثير من نشأتها « لاسبينوزا » ؛ ثم أعاد « فيوزباخ » كتابتها بصورة معدلة فى عهد ماركس نفسه . ووجهة النظر التى تقول إن التاريخ البشرى هو تاريخ الصراع بين الطبقات الاجتماعية توجد كذلك لدى « سان سيمون » ، وقد تبناها إلى حد كبير عدد من المؤرخين التحرريين الفرنسيين المعاصرين من أمثال « تييرى » و « ميفيه » ، كما تبناها أيضا « جيزو » الذى يعد أكثر ميلا للمحافظة . ولعل النظرية العلمية المتعلقة بحتمية تكرار وقوع الأزمات الاقتصادية بانتظام ، كان أول

من وضعها « سيسموندى » ؛ كذلك نظرية ظهور « الطبقة الرابعة » كانت من غير شك من المعتقدات التى اعتنقها الشيوعيون الأول ، ونشرها على نطاق شعبى « فون شتاين » و « هيس » فى ألمانيا فى عهد ماركس نفسه . وكذلك أشار « بابيف » ، فى الحقبة الأخيرة من القرن الثامن عشر ، إلى نظرية ديكتاتورية البروليتاريا ، وأوردها « واتيلنج » و « بلانكى » صراحة وزادا عليها فى القرن التاسع عشر . كما أن « لويس بلان » و « اشتراكيو الدولة » الفرنسيون بحثوا موضوع مركز العمال فى الحاضر والمستقبل ، وأهميتهم فى الدولة الصناعية بحثا ضافيا أكثر مما يعترف به ماركس . ونظرية القيمة على أساس العمل مستمدة هى كذلك من لوك وآدم سميث والاقتصاديين الكلاسيكيين ، ونظرية الاستغلال وفائض القيمة وعلاجها تحت إشراف الدولة العمدى توجد لدى كل من « فوربيه » وفى كتابات الاشتراكيين الإنجليز الأول مثل « براى » و « تومبسون » و « هودجسكين » . وإنه لمن السهولة بمكان أن نستمر فى هذه القائمة إلى أبعد من ذلك .

ولم يكن القرن الثامن عشر مجدبا من مثل هذه المبادئ : بعضها مات فى مهده ، وبعضها أحدث تعديلا فى الآراء ، وأثر فى التصرفات عندما وجد الجو الذهنى الملائم لذلك . وجاء ماركس فغربل هذه الكتلة الضخمة من المادة المشوشة ، وانتقى منها كل ما بدا له أصيلا وحقيقيا وهاما ، ثم شيد على ضوئها أداة جديدة فى التحليل الاجتماعى لم تكن ميزتها الأساسية فى جمالها أو اتساقها ، ولا فى قوتها العاطفية أو الفكرية — فالنظم المثالية الكبرى نتاج للخيال المتأمل أكثر منها نبلا — ولكن ميزتها الحقيقية هى فى ذلك المزيج العجيب من مبادئ أساسية بسيطة — وإحاطة — شاملة ، وواقعية وتفصيل . وقد تجاوبت البيئة التى تشكلت فيها بالفعل مع التجارب الشخصية المباشرة التى مر بها الجمهور الذى وجهت إليه ؛ وتحليلها للموقف ، عندما يوضع فى أبسط صورة ، يبدو على الفور جديدا ونفاذا ؛ وقد بدت النظرية الجديدة التى تمثل مزيجا فذا من المثالية الألمانية و « العقلية » الفرنسية والاقتصاد السياسى الإنجليزى متسقة قادرة على تفسير مجموعة من الظواهر الاجتماعية ، ظلت حتى ذلك الوقت فى عزلة عن بعضها البعض . وقد أضفى ذلك

معنى متماسكا على العبارات والنداءات الشعبية للحركة الشيوعية الجديدة . فجعلت فى وسعها ، فوق كل شىء ، أن تتعدى فيما تركته من أثر ، مجرد إثارة مشاعر التذمر والثورة بأن ألصقت بها ، كما فعل الميثاقيون ، مجموعة من الأهداف السياسية والاقتصادية كانت محددة ، ولكنها كانت غير متصلة ببعضها البعض اتصالا وثيقا . وقد وجهت هذه المشاعر الآن نحو أهداف مباشرة ، وممكنة التحقيق ومرتبطة ببعضها البعض بصورة منظمة ، أهداف لا ينظر إليها بوصفها غايات نهائية تصلح لكل الناس فى جميع الأوقات ، بل أهداف تلائم حزبا ثوريا يمثل مرحلة متميزة من مراحل النمو الاجتماعى .

والشىء الرئيسى الذى حققته نظرية ماركس ، والذى أضفى عليها حيوية فريدة جعلت فى وسعها أن تهزم منافسيها وتظل باقية فيما تلى من سنوات ، هو أنها أعطت إجابات صريحة موحدة ، فى لغة تجريبية مألوفة ، لأسئلة كانت تشغل أذهان الناس فى ذلك العهد ، واستخرجت من هذه الإجابات نتائج عملية دون أن تخلق صلات مصطنعة واضحة الاصطناع بين الاثنتين . وقد وضعت النظرية فى معظم أجزائها فى باريس إبان السنوات المضطربة من سنة ١٨٤٣ إلى ١٨٥٠ ؛ عندما اتسع نطاق الميول الاقتصادية والسياسية ، التى تختفى عادة تحت سطح الحياة الاجتماعية ، وزاد نطاقها تحت ضغط أزمة من الأزمات العالمية واشتدت كثافتها حتى انطلقت مخترقة الإطار الذى تسنده فى الأوقات العادية الأنظمة المعمول بها ؛ وكشفت هذه الميول عن طابعها الحقيقى لبرهة قصيرة خلال تلك الفترة المضيئة التى سبقت الصراع النهائى بين مختلف القوى ، ذلك الصراع الذى عادت بعده جميع القضايا إلى ما كانت عليه من غموض وإبهام . وقد استغل ماركس هذه الفرصة النادرة التى عرضت للملاحظة العلمية فى ميدان النظريات الاجتماعية إلى أقصى حد ، بل لقد بدت له فى الواقع دليلا حاسما يؤيد نظريته .

وخرج النظام فى صورته النهائية بناء ضخما ، محصنا تحصينا قويا ضد كل هجوم من أية نقطة استراتيجية ، فلا يؤخذ بأى هجوم مباشر ، ويضم بين جدرانه إمكانيات محكمة لمواجهة جميع ما يمكن تصوره من طوارئ الحرب . وقد كان تأثيره هائلا على الصديق والعدو على السواء ، وخاصة على علماء الاجتماع

والمؤرخين والنقاد ، وغير تاريخ الفكر البشرى بمعنى أن أشياء معينة لم يعد لها مكان لأن تقال أو لأن تجد من يقبلها . وما من موضوع يضره ، على الأقل فى النهاية ، أن يصبح ميدانا لمعركة ؛ وقد أدى على الفور إصرار الماركسية على أولوية العوامل الاقتصادية فى تحديد السلوك البشرى إلى دراسة مركزة للتاريخ الاقتصادى ، وهى دراسة ، رغم أنها لم تكن مهملة كل الإهمال ، لم تكن تحظى بمثل مركزها المرموق فى الوقت الحاضر إلى أن ظهرت الماركسية ، فكان فى ظهورها حافز للدراسة الأكاديمية التاريخية البحتة فى هذا الميدان — وهذا يماثل إلى حد كبير ما فعلته المبادئ الهيجيلية فى جيل سابق من حيث إثارة الدراسات التاريخية بوجه عام . ولم تصبح معالجة المشاكل التاريخية على أساس اجتماعى ، التى بحثها « كونت » ومن بعده « سبنسر » و « تين » ووضعوا خطوطها ، دراسة دقيقة متماسكة حتى ألقى الهجوم الماركسى بنتائجها فى أتون المعركة ، جاعلا منها قضايا ملتهبة ، ومن ثم جعل البحث عن الأدلة أكثر غيرة والاهتمام بالمنهج أشد تركيزا .

وفى سنة ١٨٤٩ اضطر ماركس إلى مغادرة باريس وذهب ليعيش فى انجلترا . بيد أن الحياة فى تلك البلاد لم تؤثر فيه أثرا يذكر . فلندن بالنسبة له لم تعن أكثر من مكتبة المتحف البريطانى التى قال عنها : « الموقع الاستراتيجى المثالى لدارسى المجتمع البورجوازى » ، و« مخزن الذخيرة الذى يبدو أن أصحابه لايدركون أهميته » . وظل فيها وهو لا يكاد يتأثر بما يحيط به ، يعيش قابعا فى عالمه ، وكان عالما معظمه من الألمان ، يتألف من عائلته ومن جماعة صغيرة من أصدقائه المقربين وزملائه السياسيين . ولم يقابل إلا قلة من الإنجليز ، فلم يكن يفهمهم أو يفهم أسلوبهم فى الحياة بل انه لم يكن ليهتم بذلك . وكان ماركس رجلا له مناعة غير عادية ضد تأثير البيئة : فلم يكن يرى كثيرا إلا الكلمات المطبوعة فى الجرائد والكتب ، وظل حتى وفاته لا يكاد يشعر بنوع الحياة التى حوله أو بما يعتمل وراءها من عوامل اجتماعية وطبيعية . أما فيما يتعلق بتطوره الفكرى فإن وجوده فى لندن لم يكن ليختلف عنه لو أنه عاش فى مدغشقر ، على شرط أن يجد فيها من يمده بانتظام بالكتب والجرائد : ومن المحقق أن اهتمام أهل لندن به ما كان يمكن

أن يكون أقل مما هو لو أنه عاش فى مدغشقر . وقد انتهت السنوات التكوينية من حياته ، وهى أهم سنوات حياته السيكلوجية ، قبل سنة ١٨٤٩ . أما بعدها فكان قد تكون نهائيا من الناحية العاطفية والفكرية ولم يتغير تقريبا منذ ذلك . وكان وهو بعد فى باريس قد فكر فى وضع سجل شامل وتفسير لظهور النظام الرأسمالى وسقوطه الوشيك . وبدأ عمله فى هذا السجل بالفعل فى خريف ١٨٥٠ وما زال به حتى وفاته فى سنة ١٨٨٣ — انقطع خلالها مرات عديدة بسبب مطالب الحياة اليومية واشتغاله بالصحافة التى حاول أن يحصل عن طريقها على بعض تكاليف الحياة .

وتؤلف نشراته ومقالاته وخطاباته فى الثلاثين عاما التالية مجموعة من التعليقات المتسقة على الشئون السياسية المعاصرة له ، وذلك على ضوء منهجه الجديد فى التحليل . وكانت فى الحق تعليقات صارمة وواضحة وواقعية ، حديثة النغمة إلى درجة مذهلة ؛ تتجه عمدا ضد التفائل السائد فى عهده .

ولم يكن ماركس ، بوصفه ثوريا ، يحبذ طرق التآمر التى كان يعتقد أنها غير مجدية ولا فعالة وأنها تعمل على إثارة حنق الرأى العام دون أن تغير أسسه ، ومن ثم فقد أعد نفسه لإنشاء حزب سياسى علنى تسوده وجهة النظر الجديدة عن المجتمع . ويكاد نشاطه فى السنوات المتأخرة يقتصر كله على جمع الأدلة التى تثبت الحقائق التى اكتشفها ، وعلى نشر هذه الحقائق ، إلى أن ملأت على أتباعه أفقهم كله وأصبحت جزءا لا يتجزأ من نسيج تفكيرهم ، من كل فكرة تمر بخلدهم وكل كلمة أو تصرف يصدر منهم . وقد كرس كيانه كله مدى ربع قرن لتحقيق هذا الهدف ، وقبيل نهاية حياته كان قد حققه فعلا .

إن القرن التاسع عشر يذخر بالعديد من النقاد الاجتماعيين والثوريين النابهين الذين لا يقلون أصالة وعنفا ودوجماتية عن ماركس ، ولكن ليس بينهم من ركز نشاطه الذهنى فى هدف واحد دون أن يتحول عنه ، وانصرف بالكلية إلى جعل كل كلمة يقولها وكل تصرف يصدر عنه فى حياته وسيلة لتحقيق هدف عملى مباشر واحد ، هدف لم يبخل عليه بأى تضحية مهما بلغت . وإذا كان ماركس قد ولد قبل عهده ، بمعنى من المعانى ، فإنه قطعا يمثل بمعنى آخر ، تقليداً من أقدم التقاليد

الأوروبية . إذ أنه رغم واقعيته وتجريبيته وهجومه على المبادئ المجردة ومطالبته بوجوب وضع كل حل موضع الاختبار من حيث صلاحيته للتطبيق على الموقف الواقعي ومدى انبثاقه من هذا الموقف ، ورغم ازدرائه للحلول الوسط والأعمال التدريجية التي كان يراها طرقا للتهرب من العمل الحاسم ، ورغم إيمانه بأن الجماهير سليمة الطوية إلى أقصى حد ، وأنه يجب العمل على إنقاذها بأى ثمن ، ولو بالقوة ، من الأوغاد والأغبياء الذين يفرضون أنفسهم عليها ، رغم ذلك كله ، مما يجعله رائداً لجيل القرن التالي من الثوريين العمليين الذين كانوا يفوقونه قسوة ، فإن اعتقاده الصارم بضرورة قطع كل صلة بالماضي فى سبيل إقامة نظام اجتماعي جديد ، بوصفه السبيل الوحيد لإنقاذ الفرد الذى لو ترك وحده لضل طريقه وهلك ، يضعه بين مؤسسي المذاهب الجديدة المستبدين الهدامين الذين لا يقف فى سبيلهم شيء ، والمجددين الذين يفسرون العالم على هدى مبدأ جلي واحد ، يؤمنون به أشد الإيمان ويندون بكل ما يتعارض معه بل ويدمرونه . كما أن إيمانه بنبوءته عن قيام عالم منظم مرتب على أنقاض المجتمع الفوضوى الحالى الذى سيدمر نفسه بنفسه حتما ، كان إيماناً من ذلك النوع المطلق الذى لاحدود له ، والذى يضع حداً لجميع الأسئلة ويحل جميع الصعوبات ؛ إيماناً يحمل معه إحساسا بالتحرر شبيه بما وجده الناس فى الإيمان الجديد بالبروتستانية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وما وجدوه بعد ذلك فى حقائق العلم وفى مبادئ « الثورة الكبرى » وفى النظم التى ابتكرها الميتافيزيقيون الألمان . وإذا سمى هؤلاء العقليون الأول بحق متعصبين فإن ماركس كان أيضا متعصبا بهذا المعنى . بيد أن إيمانه بالعقل لم يكن إيماناً أعمى : فإذا كان قد اعتمد فى ندائه على العقل ، فقد اعتمد أيضا على البراهين التجريبية . فعملية التاريخ كانت فى نظره حقيقة أبدية لاتتغير — والأمر لايتطلب إلا بصيرة ميتافيزيقية ، لكى يستوعب المرء هذه الحقيقة — ولكن لا سبيل إلى إثبات ماهيتها إلا عن طريق الوقائع التجريبية . وصحيح أن نظامه الفكرى كان مقفلا وأن كل ما دخل فيه وخضع بحيث يطابق فكرة سابقة التكوين ، ولكنه أسس على الملاحظة والتجربة ، ولم يكن لدى ماركس آراء ثابتة تستبد به وتملك عليه ناصيته ولم يظهر عليه شيء من الأعراض المعروفة التى تصاحب التعصب المرضى ، ذلك

التغير الفجائى فى حالات التهيج المصحوب بالشعور بالوحدة والاضطهاد الذى تولده الحياة فى عوالم خاصة لدى أولئك الذين انفصلوا عن الواقع .

ويبدو أن الأفكار الأساسية فى مؤلفه الرئيسى اكتملت نمواً فى ذهنه فى وقت مبكر حول عام ١٨٤٧ . وقد ظهر لهذا المؤلف تخطيط مبدئى فى سنة ١٨٤٩ ، ومرة أخرى بعد ذلك بعشرة أعوام ، ولكن ماركس لم يكن ليستطيع البدء فى الكتابة قبل أن يكون قد اقتنع بأنه ألم إلماماً تاماً بكل ما كتب عن موضوعه . وقد كان من نتيجة ذلك ، إلى جانب صعوبة إيجاد الناشر وضرورة الحصول على معاشه ومعاش أسرته وما يستتبعه ذلك من عمل فوق الطاقة ومن عرض متكرر ، إلى تأجيل نشر الكتاب سنة بعد سنة . وأخيراً ظهر المجلد الأول منه فى سنة ١٨٦٧ ، بعد عشرين عاماً من تكونه فى ذهنه ، وهو العمل الذى توّج به حياته . والكتاب محاولة لوضع سجل واحد متكامل لعملية النمو الاجتماعى وقوانينه . ويتضمن نظرية اقتصادية كاملة عولجت تاريخياً ، كما يتضمن نظرية أخرى ، أقل وضوحاً ، عن التاريخ ومدى خضوعه للعوامل الاقتصادية وتأثره بها . ويتخلل الكتاب بعض النبذ العجيبة التى تخرج عن السياق وتتكون من تحليلات وصور تاريخية لحالة البروليتاريا ، ولا سيما فى فترة الانتقال من الصناعة الصغيرة إلى الرأسمالية الصناعية على النطاق الكبير ، أدخلها ماركس لتوضيح النظرية العامة ، ولكنها فى الواقع تعرض منهجاً ثورياً جديداً فى كتابة التاريخ : وهى فى مجموعها تكوّن أضخم عريضة اتهام ، وأحكمها وأكثرها تدعيماً ، وُجهت إلى نظام اجتماعى بأكمله وإلى حكامه ومؤيديه وأيديولوجياته وعبيده الطائعين ، وإلى جميع من ارتبطت حياتهم ببقائه . وقد جاء هجومه على المجتمع البورجوازى فى وقت كان قد بلغ فيه هذا المجتمع قمة رخائه المادى ، فى نفس السنة التى هنأ فيها جلادستون مواطنيه فى حديثه عن الميزانية ، على « الزيادة المذهلة فى ثروتهم وقوتهم » التى تمت فى السنوات الأخيرة أثناء فترة من التفاؤل البهيج والثقة التى عمت الجميع . وفى هذا العالم كان ماركس يمثل شخصية منعزلة شديدة العداء على استعداد لأن تنبذ بجرأة ، مثلها فى ذلك كمثل المسيحيين الأول والثوريين الفرنسيين ، كل ما لدى هذا العالم ، الذى وصف مثله العليا بأنها عديمة

القيمة وفضائله بأنها رذائل ، وندد بأوضاعه ونظمه لا لأنها سيئة فى ذاتها ، ولكن لأنها بورجوازية تمت إلى مجتمع فاسد طاغ يجب محوه كلية وإلى الأبد . وفى ذلك العصر الذى دمر خصومه بأسلحة لم يقلل من قيمتها ترفعها وبطؤها ، عصر أجبر كارلايل وشوبنهاور على البحث عن مهرب فى مدينة قاصية أو فى ماض كانت له سمات التقديس ، ودفع عدوه اللدود نيتشه دفعاً إلى الهستيريا والجنون — فى ذلك العصر وقف ماركس وحده عظيماً ، هادئاً ، مطمئناً . فكان كنبى قديم يؤدى رسالة وضعتها السماء على عاتقه فى هدوء نفسى ينبعث من إيمان واضح لا يتزعزع بمجتمع المستقبل الذى يرتكز على أسس عقلية ، ويكشف للناس عن علامات الانحلال والانهيار التى كان يراها حوله فى كل جانب . فلقد بدا النظام القديم أمام عينيه متداعياً ؛ وقد فعل أكثر من أى شخص آخر فى سبيل الإسراع بعملية انهياره ، ساعياً إلى تقصير فترة الألم الأخير التى تسبق النهاية .



الفصل الثانى

الطفولة والمراهقة

« ما كنت بمستطيع أن أسعى هادئاً ، نحو ذلك
الذى استرق روحى ، وليس لى أن أقنع راضياً
فى سلام ، فأنا دائماً أبداً عاصفة لا تستقر »

كارل ماركس « جيوفينيليا »

ولد كارل هنريك ماركس ، أكبر أبناء هنريك وهنريبيتا ماركس ، فى ٥ مايو سنة ١٨١٨ فى بلدة « تريبه » فى القطاع الألمانى من حوض « الرين » حيث كان يمارس والده مهنة المحاماة . وكانت مدينة «تريبه» فى وقت من الأوقات قاعدة حكم « الأمير ـ الأسقف » ، حتى احتلها الفرنسيون قبل ميلاد ماركس بحوالى خمس عشرة سنة وأدمجها نابليون فى « اتحاد الرين » . وبعد هزيمة نابليون ، وكان قد مضى على احتلالها عشر سنوات ، ضمها مؤتمر ڤيينا إلى مملكة بروسيا التى كانت تتوسع بسرعة فى ذلك الوقت .

وكان ملوك الدويلات الألمانية وأمراؤها الذين كاد الغزو الفرنسى المتتالى لأقاليمهم يدمر سلطتهم الشخصية فى الفترة الأخيرة ، جدّ مشغولين فى ذلك الوقت بإصلاح صرح ملكياتهم الوراثية بعد ما أصابه من عطب ، وهى عملية تطلبت منهم محو كل أثر للأفكار الخطرة التى كانت قد بدأت تثير حتى سكان الأقاليم الألمانية المستكنين وتوقظهم من سباتهم التقليدى . وجاءت هزيمة نابليون ونفيه فقضيا بصورة نهائية على أوهام أولئك الراديكاليين الألمان الذين كانوا يأملون أن يكون من نتائج سياسة نابليون المركزية توحيد ألمانيا على الأقل إن لم يكن تحريرها . وهكذا أعيد « الوضع القائم » فى كل مكان أمكن فيه ذلك ؛ وعادت ألمانيا مرة أخرى بلداً مقسماً إلى ممالك وإمارات تقوم على أسس إقطاعية ، وقد صمم حكامها بعد عودتهم إلى سلطانهم على تعويض أنفسهم عن سنوات الهزيمة

والمذلة الماضية فشرعوا يعيدون النظام القديم بكل تفاصيلة ويحرصون على القضاء على شبح الثورة الديموقراطية إلى غير رجعة ، ذلك الشبح الذى ظلت ذكراه حية بجهود المستنيرين من بين رعاياهم ومثابرتهم . وكان ملك بروسيا فردريك وليم الثالث أكثرهم نشاطاً فى هذا الاتجاه ، وقد نجح بمساعدة سادة الإقطاع ومن اليهم من أصحاب الأراضى الارستقراطيين الذين كانوا فى بروسيا ، مقتفياً فى ذلك مثل مترنيخ فى ڤينا ، فى إيقاف التطور الطبيعى لغالبية مواطنيه سنوات عديدة ونشر جواً من الجمود العميق المحزن بدت إلى جانبه حتى فرنسا وانجلترا خلال سنوات الرجعية أكثر تحرراً وحيوية . وقد أثر ذلك أكثر ما أثر فى العناصر التقدمية من أعضاء المجتمع الألمانى — لا فى رجال الفكر فحسب ، بل كذلك فى جمهرة البورجوازيين والارستقراطيين المتحررين فى المدن ، وبخاصة فى الغرب ، أولئك الذين ظلوا محتفظين ببعض صلاتهم بتيار الثقافة الأوروبية العام . وقد أخذت الإجراءات التى اتخذها ملك بروسيا صورة تشريعات اقتصادية واجتماعية وسياسية قصد بها الاحتفاظ بطائفة من الامتيازات والحقوق والقيود ، أو استعادتها فى بعض الحالات ، وكان كثير منها مما يمت إلى العصور الوسطى . كانت بقايا ورواسب مرذولة فقدت حتى رونقها المظهرى منذ أمد طويل . ولما كانت هذه المخلفات تتعارض تعارضاً مباشراً مع مطالب العصر الجديد ، فقد تطلب بقاؤها شبكة دقيقة محكمة من الحواجز الجمركية . وقد أدى ذلك بدوره إلى سياسة منظمة تهدف إلى تثبيط النشاط التجارى والصناعى ؛ وكان لا بد فى الوقت عينه من المحافظة على هذه الشبكة العقيمة ضد ضغط الرأى العام ، فأدى ذلك إلى قيام جهاز حكومى دكتاتورى كانت مهمته عزل المجتمع الألمانى عن التأثيرات المعدية للأفكار والأنظمة التحررية .

ونجم عن زيادة سلطة الشرطة وفرض الرقابة الصارمة على جميع مجالات الحياة ، العامة والخاصة ، انتشار المطبوعات المعادية التى لم تلبث الرقابة الحكومية أن قضت عليها بشدة . ومن ثم فقد لجأ الكتاب والشعراء الألمان إلى النفى الاختيارى حيث قادوا حملة دعائية شديدة من باريس وسويسرا ضد النظام القائم فى ألمانيا . وقد انعكس الوضع العام بوضوح ، بصفة خاصة ، فى ذلك القطاع من

المجتمع الذى ظل طوال القرن التاسع عشر بمثابة « بارومـــتر » حساس يبين اتجاه التغييرات الاجتماعية ، قطاع الجالية الصغيرة المنتشرة فى كل مكان ، ألا وهم اليهود .

فلقد كان لدى اليهود جميع المبررات التى تدعوهم إلى الاعتراف بفضل نابليون ؛ فهو حينما ظهر عمل على تقويض أركان الطبقات والامتيازات الاجتماعية ، وقضى على الحواجز السياسية والدينية ، وأقام مكانها مجموعة القوانين الجديدة التى وضعها ، وهى قوانين تستمد سلطاتها فيما تزعم من مبادئ العقل والمساواة البشرية . وكانت نتيجة ذلك أن فتحت أمام اليهود أبواب جديدة من الحرف والمهن كانت قبل ذلك موصدة فى وجوههم ، فانطلقت بذلك كتلة من الطاقة المحبوسة والطموح أدى إلى موجة من الحماس بين اليهود — بولغ فى قدرها أحياناً — لتقبل الثقافة الأوربية العامة ، وبعد أن كانوا مجتمعاً معزولا أصبحوا عاملا جديداً هاماً فى تطور المجتمع الأوروبى .

على أن نابليون نفسه كان قد سحب بعض هذه الحريات فيما بعد ، وجاء الأمراء الألمان العائدون فقضوا على معظم ما بقى منها مما أدى إلى أن كثيرا من اليهود ، الذين كانوا قد طرحوا طريقة الحياة التقليدية التى سار عليها آباؤهم واتجهوا بآمالهم نحو كيان أوسع نطاقا ، لم يلبثوا أن وجدوا الطريق الذى انفتح أمامهم فجأة بعض الشىء قد عاد فسد فى وجوههم فجأة مرة أخرى ، وبذلك أصبحوا يواجهون مشكلة صعبة للاختيار بين أمرين . فقد كان عليهم إما أن يعودوا بخطاهم إلى الوراء لينزووا فى أحيائهم المعزولة القديمة التى كانت معظم عائلاتهم لا تزال تعيش فيها ، وإما أن يغيروا أسماءهم ودينهم ليبدأوا حياتهم من جديد بوصفهم مواطنين ألمانا وأعضاء فى الكنيسة المسيحية . وإن حالة « هيرشل ليفى » لهى نموذج لما كان عليه جيل بأكمله . فقد كان والده « ماركس ليفى » ، وجده من قبله ، من حاخامات الدين اليهودى فى ألمانيا ، أمضيا كل حياتهما ، شأنهما شأن الغالبية العظمى من زملائهما اليهود ، فى نطاق مجتمع فطرى متدين منطو على نفسه كل الانطواء ، مجتمع وجد نفسه يواجه عداء جيرانه المسيحيين فاحتمى وراء جدار كثيف من الكبرياء

والشك، قطع صلتهم أو كاد بالحياة المتطورة فى الخارج قرونا طويلة . بيد أن موجة « الاستنارة » كانت مع ذلك قد بدأت تنفذ حتى من خلال ذلك الجدار المصطنع الذى كان من نتاج العصور الوسطى ؛ فكان «هيرشل» ـ وكان قد تلقى تعليما علمانيا ـ أحد أتباع « العقليين » الفرنسيين وتلامذتهم من « الألمان المتنورين » ، فاعتنق فى مستهل حياته دين « العقل والإنسانية » . وتقبل هذا الدين فى بساطة وإخلاص ، فلم تزعزع سنوات الظلام والرجعية الطويلة من إيمانه بالله أو تقلل من إنسانيته البسيطة المتفائلة . وانتزع نفسه كلية من عائلته ، فغير اسمه إلى « هنريك ماركس » واكتسب لنفسه أصدقاء جددا ومشارب جديدة فى الحياة . وكان عمله ـ كرجل من رجال القانون ـ ناجحاً إلى حد لا بأس به ، وكان قد بدأ يتطلع إلى مستقبل أكثر استقرارا بوصفه رأسا لأسرة ألمانية بورجوازية محترمة ، حين فاجأته قوانين اليهود سنة ١٨١٦ فقطعت عنه مورد رزقه .

ولعله لم يكن يحس تجاه الكنيسة الرسمية بكثير من الاحترام الخاص ، ولكن مما لاريب فيه أنه كان أقل تعلقا بالمعبد اليهودى ؛ ولما كانت عقيدته عن الله غير واضحة كل الوضوح ، فإنه لم يجد عقبة من الناحية الأخلاقية أو الاجتماعية تحول بينه وبين قبول اللوثرية المعتدلة فى تنورها التى يدين لها جيرانه البروسيون . وعلى أى الأحوال فهو ، إن كان قد تردد فى ذلك ، فإن تردده لم يدم طويلا ؛ فلم تأت أوائل سنة ١٨١٧ أى قبل مولد ابنه الأكبر كارل بسنة حتى كانت الكنيسة ، قد قبلته بين رعاياها . ولعل عداء كارل ماركس لكل ما له صلة بالاديان ، وبخاصة اليهودية ، يرجع فى بعض نواحيه إلى الموقف الغريب المحير الذى ألفى أمثاله ممن تحولوا إلى المسيحية أنفسهم فيه . فلقد وجد بعضهم مخرجا لهم بأن صاروا مسيحيين مخلصين ، بل ومتعصبين أحيانا ، كما وجد البعض الآخر مخرجا فى الثورة على جميع الأديان المعترف بها ؛ فكان ما يستشعره كل واحد منهم من ألم نفسى يشتد أو يقل بنسبة حساسيته وحظه من الذكاء . فنجد « هاين » و « ودزائيلى » كلاهما قد ظل طوال حياته تلاحقه مشكلته الشخصية الناجمة عن وضعه الغريب ؛ فلا هما قبلا هذا الوضع بحذافيره ، ولا هما أنكراه بحذافيره ، بل ظلا يهزآن بدين آبائهما مرة ، ويدافعان عنه مرة أخرى ، غير قادرين على اتخاذ موقف ثابت تجاه وضعهما المبهم ،

لا يستطيعان الاستقرار على رأى واحد تجاه موقفهما المعقد ، يشكان باستمرار فى أن يكون هناك احتقار كامن أو شعور بالتنازل يختفيان وراء ما يبديه المجتمع نحوهما حين تقبّلهما بين أعضائه .

بيد أن ماركس الأب لم يعان أيا من هذه العقد،فلقد كان رجلا بسيطا ، جادا فى أموره ، على قدر كبير من التعليم ، وإن لم يكن ذكيا بدرجة خارقة أو حساساً بصورة غير عادية وكان ، إلى جانب كونه من أتباع « ليبنز » و « وفُلتير » و « لسنج » و « كانت » ، يتمتع بمزاج رقيق حي ، ثم انقلب فى النهاية وطنياً بروسيا وملكياً متحمساً ، وهو موقف حاول أن يبرره بلفت نظر الناس إلى شخصية « فردريك الأكبر » — الذى كان فى نظره أميراً متسامحا ومتنورا يفضل نابليون الذى عرف عنه احتقاره لأصحاب المذاهب . وبعد تعميده أتخذ لنفسه إسما مسيحياً هو « هنريك » ، وربى عائلته على مبادئ البروتستانتية المتحررة وعلى الولاء للنظام القائم وللملك بروسيا الحاكم . ورغم رغبته الشديدة فى أن يوائم بين شخصية الحاكم وشخصية الأمير المثالى كما رسمه فلاسفته المفضلون ، فإن شخصية فردريك وليم الثالث المنفرة كانت أكثر مما يستطيع خياله الخاص أن يتقبله . والواقع أن المناسبة الوحيدة التى عُرف فيها عن هذا الرجل الهياب المرتجف أنه تصرف بشجاعة كانت فى مأدبة عشاء عام ألقى فيها خطبة نوه فيها بالحاجة إلى الإصلاحات الاجتماعيةوالسياسية المعتدلة التى تليق بحاكم خير حصيف فلم تلبث خطبتهأن وجهت إليه أنظار الشرطة البروسية . وسرعان ما سحب « هنريك ماركس » كل ما قاله وأقنع الجميع بأنه رجل مسالم لا يضمر سوءا . وقد يكون من المحتمل أن هذا الحادث البسيط الذى انطوى على قدر من المذلة ، وبخاصة موقف أبيه وما اتسم به من فرق وخضوع ، قد ترك أثرا لا يمحى فى نفس « كارل » — وكان فى السادسة عشرة من عمره وقتئذ — وخلف وراءه إحساسا من الاستياء الكامن جاءت الأحداث بعد ذلك فنفخت فيه حتى أحالته شعلة ملتهبة .

وإذا كان والده قد أدرك منذ وقت مبكر أن أولاده الآخرين لم يكن فيهم من يتمتع بأية مواهب ممتازة ، فقد كان له فى « كارل » ابن صعب المراس ، يتمتع بذكاء حاد متألق ، يجمع بين مزاج عنيد متسلط ، ورغبة جامحة فى الاستقلال ،

وقدرة فريدة على ضبط الأعصاب ، وفوق كل شيء ، نهم فكرى عظيم لا سبيل إلى التحكم فيه . واستشعر المحامى الهياب ، الذى قضى حياته لينا يحاول التوفيق بين مختلف المطالب الاجتماعية والشخصية ، الحيرة والذعر أمام صلابة ابنه التى يعتقد أنها لابد مثيرة عداوة أشخاص من ذوى الحيثية ويرى أنها قد توقعه يوما فى مشاكل خطيرة . بل كثيراً ما كان يتوسل إليه بحرارة فى رسائله إليه ليخفف من غلوائه وأن يفرض على نفسه شيئاً من السيطرة وأن يتحلى بالعادات التى يفرضها ناموس الحضارة وألا يغفل عمن يحسنون إليه ، ثم قبل هذا وذاك ، ألا يعادى الناس جميعا بصلابته ورفضه كل مواءمة بين نفسه وبين ظروف بيئته — وباختصار أن يقوم بما تتطلبه منه المقتضيات الأولية للمجتمع الذى كان لزاما عليه أن يحيا حياته فيه . بيد أن هذه الخطابات قد ظلت ، حتى حين كان كاتبها يستنكر مسلك ابنه استنكارا شديدا ، تتسم برقتها وحنوها على الرغم من قلق الأب المتزايد على ابنه وعلى مستقبله . فقد عامل « هنريك ماركس » ابنه برقة دائماً ولم يحاول قط أن يعارضه أو يهاجمه فى أية مسألة من المسائل الهامة . ومن ثم ظلت علاقاتهما طيبة وثيقة حتى مات ماركس الأب فى سنة ١٨٣٨ .

ويبدو من المؤكد أن الأب قد ترك أثراً واضحاً فى تطور ابنه الفكرى . فقد كان ماركس الأب يشارك « كوندورسية » رأيه بأن الإنسان خير بطبيعته ينزع إلى تحكيم عقله ، وأن كل ما يتطلبه الأمر لكى تتغلب هاتان الصفتان فى نفسه هو إزالة العقبات غير الطبيعية التى قد تقف فى سبيله ؛ بل إن هذه العقبات قد بدأت تختفى فعلا وبسرعة ، وقد بات الوقت قريباً الذى تختفى فيه آخر قلاع الرجعية — الكنيسية الكاثوليكية والأرستقراطية الإقطاعية أمام تقدم العقل الذى لا يمكن أن يقف فى سبيله شيء . فالحواجز الاجتماعية والسياسية والدينية والعنصرية ليست كلها سوى نتاج مصطنع نشأت فى جو الظلام الذى ينشره رجال الدين والحكام ؛ وباختفائها سوف يشرق على الجنس البشرى فجر يوم جديد فيصبح كل الناس متساوين ؛ لا فى الناحية السياسية والقانونية وفى علاقاتهم الرسمية الخارجية فحسب ، بل كذلك فى الناحية الاجتماعية والشخصية وفى علاقاتهم اليومية التى تمس حياتهم عن قرب .

وقد بدا له أن فى تاريخه هو نفسه مايؤيد ذلك كل التأييد . فهو قد ولد يهوديا ، مواطناً له وضع اجتماعى وقانونى أدنى من وضع غيره ، ثم استطاع أن يقف على قدم المساواة مع جيرانه الذين يفضلونه استنارة ، واكتسب احترامهم بوصفه آدميا واندمج فى حياتهم التى بدت له خير طريقة للحياة « العقلية » الكريمة . لذلك كان يؤمن بأن يوماً جديدا فى تاريخ التحرر البشرى يوشك أن يشرق فجره ، يوما سوف يحيا أولاده حياتهم فى شمسه المشرقة بوصفهم مواطنين ولدوا أحرارا فى دولة عادلة متحررة . ويمكننا أن نلمس بوضوح بعض عناصر هذا الرأى فى المذهب الاجتماعى الذى وضعه ابنه . ومع أن كارل ماركس لم يكن يؤمن فى الواقع بقدرة المنطق العقلى فى التأثير على العمل ، فهناك نواح ظل فيها « عقليا » و« مثاليا » حتى آخر يوم فى حياته . فقد كان يؤمن بامكان تفسير عملية التطور الاجتماعى ؛ كما كان يؤمن بأن المجتمع يتقدم بصورة حتمية ، وأن انتقاله من مرحلة إلى مرحلة حركة إلى الأمام ، وأن كل مرحلة من هذه المراحل المتتابعة تمثل نمواً بالنسبة لسابقتها . وأنها أقرب منها إلى المثل العقلى الأعلى وكان يبغض بنفس القوة التى كان يبغضها بها أى مفكر من مفكرى القرن الثامن عشر ، العاطفية والاعتقاد فيما فوق الطبيعة من أسباب والتهيؤات الخيالية من أى نوع كانت . كذلك عمل بطريقة منتظمة على الإقلال من قيمة تأثير تلك القوى غير العقلية مثل القومية والتضامن الدينى والعنصرى . ومن ثم فعلى الرغم من أن الفلسفة الهيجلية كانت فى الحقيقة أكبر عامل فردى بناء تأثر به فى حياته ، فإن مبادئ « العقلية » الفلسفية التى زرعها فيه أبوه وأصدقاء أبيه تركت فيه أثرا قاطعا ، حتى إذا التقى فيما بعد بالنظم الميتافيزيقية الرومانسية التى وضعها « نيشته » و « هيجل » أنقذته هذه المبادئ من أن يستسلم لإغرائها كما استسلم كثيرون من معاصريه . فهذا الميل البارز ، الذى اكتسبه فى مستهل حياته ، للمناقشة الواضحة وتناول الموضوعات بطريقة تجريبية هو الذى جعل فى وسعه أن يحتفظ بقدر من الاستقلال فى وجه الفلسفة السائدة ، وأن يحولها فيما بعد إلى نمطه الذى يمتاز بما له من قسط أكبر من الايجابية . ولعل فى هذا مايفسر اتجاهاته الواضحة ضد « الرومانسية » التى جعلت نظرته تختلف كل الاختلاف عن النظرة التى كانت شائعة بين زعماء الراديكالية

فى عصره من أمثال « بورنه » أو « هاين » أو « لاسال » الذين يماثلونه إلى حد كبير من نواحى عديدة سواء من ناحية أصولهم أو تربيتهم .

ونحن لانعرف الكثير عن طفولته وحياته الأولى فى « تربيته » وإن كنا نعلم أن الدور الذى لعبته أمه فى حياته كان صغيرا بصورة فريدة ، فقد كانت تمت إلى عائلة من اليهود المجربين الذين استقروا فى هولندة حيث كان والدها واحدا من حاخامات الدين اليهودى ، وكانت امرأة صلبة العود وإن لم تكن متعلمة ، تستغرق عنايتها ببيتها كل جهدها ولم يظهر عليها فى أى وقت من الأوقات أى تقدير لمواهب ابنها وميوله ، بل كانت تروعها راديكاليته ، وبدت فى سنواتها الأخيرة كما لو كانت قد فقدت كل اهتمام بوجوده . وكان كارل الابن الثانى من بين أبناء هنريك وهنرييتا ماركس الثمانية ، ولم يكن يبدى اهتماما كبيرا بأى من أشقائه وشقيقاته سواء فى صباه أو فيما بعد ، إذا استثنينا ماكان يبديه نحو أخته الكبرى صوفيا من عطف بسيط . وقد أرسل به إلى المدرسة الثانوية المحلية فكان موضع الثناء ، يستوى فى ذلك نشاطه وجده وارتفاع المستوى الفكرى والجهود الجدى الذى بدا فى مقالاته فى الموضوعات الأخلاقية والدينية ، كذلك كان يتمتع بامتياز لابأس به فى الرياضة والدراسات اللاهوتية ، وإن كان اهتمامه الرئيسى كان منصرفا إلى الآداب والفن : وهو ميل يرجع أساساً إلى تأثير رجلين تعلم منهما أكثر ماتعلم وظل طوال حياته يتحدث عنهما باحترام وعطف . وأول هذين الرجلين كان أبوه ، أما الآخر فكان « فرايز لودفيج فون وستفالن » الذى كان يعيش فى نفس الشارع الذى كان يقيم فيه « هنريك ماركس » وكان على علاقة ودية مع المحامى اللطيف وعائلته . وكان « وستفالن » يمت إلى ذلك القطاع المتعلم المتحرر من الطبقة الألمانية العليا الذى كان يمثلوه من رواد كل حركة تقدمية متنورة فى بلادهم خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . كان موظفاً حكوميا بروسيا مرموقا ، كما كان رجلا جذابا مهذبا . وكان من ذلك الجيل الذى سيطرت عليه شخصيات «جوته» و « شيلر » و « هولدرلين » العظيمة وأثرت فيه حتى دفعت به إلى تجاوز حدود النطاق الجمالى التى وضعها فى تحديد دقيق عمالقة الأدب فى باريس ، وقد أسهم بنصيب فى تحمس الألمان المتزايد لعبقريات « دانتى » و « شيكسبير » و « هومر » والتراجيديين الاغريق ، بعد اكتشافها . وقد راعته

قدرة ابن صديقه « هنريك ماركس » الخارقة وتقبله لما يلقى عليه بشغف ، فكان يشجعه على القراءة ويعيره الكتب وأخذه معه فى نزهات على الأقدام فى الغابات المجاورة حيث كان يحدثه عن « أشيلوس » و « وسرفانتس » « وشكسبير » ويلقى عليه فقرات طويلة من مؤلفاتهم حتى أصبح كارل ، الذى كان اكتمل نموه فى وقت مبكر جدا ، قارئا شغوفاً بالأدب الرومانسى الحديث . وقد لازمه الميل الذى اكتسبه لهذا الأدب خلال تلك السنوات حتى وفاته . فكان شديد الغرام فى أخريات حياته باستذكار أمسياته مع « وستفالن » التى كانت فى نظره أسعد فترات حياته ، فلقد كان يعامل معاملة الند من رجل أكبر منه سناً بكثير فى وقت كانت حاجته فيه إلى العطف والتشجيع شديدة بصفة خاصة ؛ فقد كان «وستفالن» يستقبله بأدب وحسن ضيافة نادرين فى وقت كان من الجائز أن يترك أى تصرف جاف أو مهين أثراً لا يمحى فى نفسه . وبلغ من تأثر ماركس بذلك أنه ضمن الرسالة التى أعدها للدكتوراه إهداء متأججاً لوستفالن زاخراً بالإعجاب وعرفان الجميل وفى سنة ١٨٣٧ تقدم ماركس طالباً منه يد ابنته وحصل على رضائه بدون صعوبة ؛ وكان زواجه منها عملا يقال إنه أثار ألم أقربائها بالنظر إلى التفاوت الكبير فى مركزهما الاجتماعى . وكان حديث ماركس عن « وستفالن » فى المراحل التالية من حياته ، وهو الرجل الذى لم يعرف عنه التسامح فى حكمه على الرجال، يكاد يصل إلى مراتب العاطفية . فلقد استطاع « وستفالن » أن يقوى إيمان ماركس بنفسه وبقدراته وأن يصبغه بصبغة إنسانية ، وهو الإيمان الذى ظل أبرز طابع فى ماركس فى جميع فترات حياته . فقد كان واحداً من أولئك الثوريين النادرين الذين لم يتعرضوا فى صدر حياتهم إلى الاضطهاد أو الإخفاق . وكان من أثر ذلك أنه على الرغم من حساسيته غير العادية واعتداده بنفسه وعلى الرغم من خيلائه وكبريائه ، بل وعدوانيته ، كانت الشخصية التى ظلت تواجهنا طوال أربعين عاما متصلة من المرض والفقر والنضال المستمر شخصية إيجابية واثقة من نفسها ثابتة الكيان .

وغادر ماركس مدرسة « تريبه » وهو فى السابعة عشرة ، حيث التحق فى خريف سنة ١٨٣٥ ، بناء على نصيحة أبيه ، بكلية الحقوق بجامعة « بون » . ويبدو أنه كان سعيداً كل السعادة فى تلك الفترة : فقد أعلن عن عزمه على متابعة المحاضرات الأسبوعية لسبعة مناهج على الأقل ، من بينها محاضرات عن «هومر»

كان يلقيها « شليجل » المعروف ، ومحاضرات فى علم الأساطير اليونانية وفى الشعر اللاتينى وفى الفن الحديث. وعاش ماركس عيشة الطالب الألمانى المرحة اللاهية ؛ فلعب دوراً نشيطاً فى الجمعيات الجامعية وكتب أشعاراً « بيرونية » ، وغرق فى الديون وقبضت عليه السلطات بسبب العربدة على الأقل مرة واحدة . ثم فى نهاية الفصل الدراسى الصيفى عام ١٨٣٦ ترك « بون » ، والتحق فى خريفها بجامعة برلين.

وقد سبب له هذا الحدث أزمة حادة فى حياته . فلقد عاش حتى ذلك الوقت فى ظروف كانت أميل إلى الطابع الريفى ، اذ كانت « تريبه » مدينة صغيرة جميلة ترجع إلى عهد قديم مضى وظلت كما هى دون أن تمسسها الثورة الاجتماعية والاقتصادية العظيمة التى غيرت معالم العالم المتمدين : فبدت النهضة الصناعية فى « كولونيا » و « دوسلدورف » كما لو كانت شيئاً بعيداً عنها ؛ ولم تكن فيها مشاكل اجتماعية أو فكرية أو مادية ملحة تعكر صفو السلام الذى كان يعيش فيه الوسط المهذب المثقف الذى يمت إليه أصدقاء والده ، فهى تمثل ركناً مستكناً من بقايا القرن الثامن عشر ظل حياً بصورة مصطنعة فى القرن التاسع عشر . أما برلين ، بالمقارنة « بتريبه » أو « بون » ، فقد كانت مدينة أضخم منهما بكثير وأكثر منهما عدداً ؛ كانت مدينة حديثة كئيبة متعجرفة جادة إلى أقصى حدود الجد وهى فى نفس الوقت وكر البيروقراطية البروسية وملتقى المتذمرين من المثقفين الراديكاليين الذين تكونت منهم نواة المعارضة لهذه البيروقراطية . لقد احتفظ ماركس طوال حياته بقدرة كبيرة على المتعة ، وبقسط كبير من روح الفكاهة وإن كانت فيه غلظة ، ومع ذلك فليس هناك من استطاع ، حتى فى ذلك ، أن يصفه بالسطحية أو التفاهة . وأفاق ماركس عندما وجد نفسه فجأة فى ذلك الجو المتوتر ، فبدأ على الفور يستكشف بيئته الجديدة وينقدها بنشاطه المألوف .

الفصل الثالث

فلســفة الروح

« إن ما نسميه روح العصر ليس فى الواقع سوى
روح المرء نفسه ينعكس العصر على مرآتها »
« جوته »

— ١ —

كانت الفلسفة الهيجلية صاحبة النفوذ الفكرى الذى يسيطر على جامعة برلين ، كما كان الحال فى كل الجامعات الألمانية ، فى ذلك الوقت . وقد عبد الطريق لهذا النفوذ التحول التدريجى ضد معتقدات العصر الكلاسيكى وأساليبه ، ذلك التحول الذى بدأ فى القرن السابع عشر ثم اشتد بأسه حتى انقلب نظاماً فى القرن الثامن عشر. وكان أكبر الشخصيات أثراً فى هذه الحركة وأكثرها أصالة من بين الألمان « جوتفيلد ويلهلم ليبنز » الذى تناول أتباعه ومفسروه آراءه بالتنمية والتعديل ، فجعلوا منها نظاماً ميتافيزيقياً متماسكا جامداً يسهل ، فى زعم دعاته ، إثباته منطقياً ، بواسطة خطوات استدلالية تبدأ من قضايا بسيطة ذاتية الوضوح بالنسبة لأولئك الذين يحسنون استخدام البديهة الفكرية التى لا تخطئ والتى وهبت لكل مخلوق مفكر عند مولده . وقد هاجم هذا المذهب الفكرى الجامد فى انجلترا ، حيث لم تلق أية صورة « للعقلية » البحتة تربة صالحة لها ، اطلاقاً ، أكبر الكتاب الفلسفيين نفوذا فى ذلك العصر . فقد اتفق « لوك » و « هيوم » ، ثم « بنتام » والراديكاليون الفلسفيون فى نهاية القرن ، فى إنكارهم جميعاً لملكة « البديهة الفكرية » بين طبيعة الأشياء . فليس هناك ملكات ، سوى الحواس الجسمانية المعروفة ، تستطيع أن تمدنا بالمعلومات التجريبية الأولية ، التى تقوم عليها فى النهاية كل معرفة أخرى فى العالم . ولما كانت كل المعلومات تنتقل بواسطة هذه الحواس فإن العقل وحده لا يمكن أن يكون مصدراً مستقلا للمعرفة ، ولهذا فإن مسئوليته الوحيدة إنما

هى فى ترتيب مثل هذه المعـــلومات وتبويبها ووصلها ببعضها ثم استخراج الاستنتاجات منها وهو فى ذلك كله يعمل على أساس مواد لا فضل له فى الحصول عليهـا . وفى فرنسا هاجمت المدرسة المادية المذهب العقلى فى القرن الثامن عشر ، وبينما اعترف « فولتير » و « ديدرو » و « كوندياك » و « هلفسيوس » بصراحة بدينهم « للمفكرين الأحرار » من الانجليز ، فقد شيدوا أنظمة مستقلة استمر تأثيرها على الفكر والعمل فى أوروبا حتى يومنا هذا . على أن بعضهم لم يذهب إلى حد إنكار وجود أية معرفة تجىء عن طريق آخر غير طريق الحواس ، ولكنهم ادعوا أنه على الرغم من أن مثل هذه المعرفة الباطنية ذاتها موجودة وتكشف عن حقائق قيمة ، فإنها لا تمدنا بأى دليل على الفروض التى ادعى « العقليون » القدامى معرفة صحتها فى غير جدال ؛ وهى حقيقة يستطيع أى شخص متفتح الذهن لا تعميه الأهواء الدينية الحزبية ولا تفسده الأغراض السياسية والأخلاقية ، أن يتثبت منها عن طريق الاختبار الذاتى العقلى الدقيق . فهناك كثير جداً من المساوئ اعتمد الدفاع عنها على « السلطة الشرعية » أو على البداهة الخاصة : فذهب « أرسطو » إلى أن الناس ليسوا متساوين بالطبيعة، وأن بعضهم بالطبيعة أرقاء والآخرين أحرار واتخذ من العقل سنداً يؤيده فى رأيه . كذلك تضمن الإنجيل الذى يعلم الناس أن « الحقيقة » قد تتكشف بوسائل فوق طبيعية ، عبارات يمكن الاستناد إليهـا فى إثبات أن الإنسان شرير بطبيعته ويجب وقفه عند حده ـ وهى فكرة استخدمتها الحكومات الرجعية فى دعم الأوضاع القائمة التى ترتكز على عدم المساواة السياسية والاجتماعية بل والأخلاقية . على أن التجربة والعقل تكاتفا ، بعد أن فُهما فهماً صحيحاً ، على إثبات عكس ذلك تماما . فقد أمكن تقديم الحجج التى تثبت بصورة لا تحتمل شكا أن الإنسان خير بطبيعته ، وأن العقل موجود بالتساوى فى جميع المخلوقات الشاعرة ، وأن السبب فى كل اضطهاد وعذاب إنما هو جهل الإنسان الذى يرجع فى بعض أسبابه إلى الظروف الاجتماعية والمادية التى نشأت خلال عملية النمو الطبيعى للتاريخ ، وفى بعضها الآخر إلى طمس الحقيقة عمداً على يد جماعات من الطغاة الطموحين أو من رجال الدين الذين لا ضمير لهم ، أو من الفريقين معا . بيد أن هذه العوامل يمكن للحكومة المتنورة الخيرة أن تفضح أمرها وأن تقضى عليها من أساسها . ذلك أن الناس ، إذا تركوا وشأنهم دون حواجز تحجب عنهم الرؤية

وتقف فى سبيل تحقيق جهودهم ، سينصرفون إلى السعى نحو الفضيلة والمعرفة ؛ فتأخذ العدالة والمساواة مكان السلطة والامتياز ، وتستسلم المنافسة أمام التعاون ، وتصبح السعادة والحكمة ملكا لجميع الناس . فالفكرة الرئيسية فى هذا المذهب العقلى شبه التجريبي تقوم على الإيمان المطلق بقدرة العقل على تفسير العالم وتحسينه ، وكل المحاولات التى انتهت فيما مضى بالفشل فى هذا المضمار قد فُسرت على أنها نتيجة للجهل بالقوانين التى تنظم سلوك الطبيعة سواء فى ذلك الطبيعة الحية أو الجامدة . فالشقاء إذن سببه الجهل ؛ لا الجهل بالطبيعة وحدها ، بل الجهل كذلك بقوانين السلوك الاجتماعى . وللتخلص من هذا الشقاء لا يتطلب الأمر سوى إجراء واحد ، وهو إجراء ضرورى وكاف فى حد ذاته ، ذلك هو استعمال العقل ، والعقل وحده ، فى توجيه شئون البشر .

ومن المسلم به أن هذه المهمة ليست بالمهمة اليسيرة ؛ فالناس قد عاشوا أمداً طويلا فى عالم من الظلام الفكرى بحيث أصبحوا لا يستطيعون الانتقال بأنفسهم فجأة إلى وضح النهار دون أن تغشى أبصارهم قوة الضوء . ومن ثم فإن الأمر يتطلب عملية من التربية التدريجية فى المبادئ العلمية ، ذلك أن نمو العقل واطراد التقدم فى معرفة الحقيقة كافيان وحدهما لانزال الهزيمة بقوى التعصب والجهل ، ولكن لن يكون لها وجود إلا إذا كان هناك قوم متوزون على استعداد لأن يكرسوا حياتهم كلها لمهمة تربية جمهرة الجنس البشرى التى تعيش فى الظلام .

وهنا تظهر عقبة جديدة : فعلى الرغم من أن السبب الأصلى فى شقاء الإنسان ، ألا وهو إهمال العقل وخمول الفكر ، لم يأت به أحد عمداً ، فإن هناك طبقة من الناس تعيش فى زمننا هذا ، وكانت موجودة مدى قرون طويلة فيما مضى ، قد أدركت أن منعتها وقوتها إنما هى فى جهل الناس الذى يعميهم عن طغيانها ، فعملت على استبقاء هذا الجهل ودعمه بكل ما أوتيت من طرق ووسائل مبتكرة . إن الناس بطبيعتهم « عقليون » جميعاً ، وكل الكائنات العقلية تتمتع بحقوق متساوية قبل قانون العقل الطبيعى ، غير أن الطبقات الحاكمة من الأمراء والنبلاء ورجال الدين والقواد تدرك تمام الإدراك أن انتشار استعمال العقل بين الناس سرعان ما يفتح أعين شعوب العالم على الخدعة الكبرى التى ترغمهم باسم بعض الخرافات مثل « قدسية

الكنيسة ، أو « الحق الإلهى للملوك » أو « مقتضيات الكرامة القومية » على أن يسلموا فى حقوقهم الطبيعية وعلى أن يكدحوا فى صمت ومن غير تذمر لصالح طبقة صغيرة ، لا حق لها فى اقتضاء مثل هذه الامتيازات .. ومن ثم فإن المصلحة الشخصية المباشرة للطبقة العليا من الدرج الاجتماعى هى فى إيقاف نمو المعرفة الطبيعية كلما كانت هذه المعرفة تهدد بفضح سلطانها التحكمى ، وفى العمل على إحلال مجموعة من القواعد والقوانين الجامدة محلها ، فى صورة مجموعة من المعميات غير المفهومة ، وصيغت فى عبارات طنانة تشوش أذهان رعاياهم التعساء الذين يعوزهم الذكاء العقلى وتستبقيهم فى حالة من الطاعة العمياء .

وقد يكون من بين أفراد الطبقة الحاكمة من هم مخدوعون حقيقة حتى أصبحوا يصدقون مفترياتهم التى ابتكروها هم أنفسهم ، ولكن هناك بالضرورة من بين أفراد هذه الطبقة من يدركون أن مثل هذا النظام الفاسد ، غير الطبيعى ، لا يمكن الاحتفاظ به إلا بعملية خداع متواصلة تستند إلى شىء من العنف من حين لآخر. ومن ثم فإن أول ماينبغى على الحاكم المتنور عمله هو أن يكسر حدة شوكة الطبقات الممتازة وأن يسمح للعقل الطبيعى ، الذى ينعم به الناس جميعاً ، بأن يثبت وجوده . ولما كان العقل لا يمكن أن يتعارض مع العقل فإن جميع الخصومات ، الخاصة منها والعامة ، سببها الأول وجود عنصر لا عقلى ، مرده القصور عن تصور كيفية إيجاد حل يوفق بين المصالح المتعارضة فى الظاهر .

والعقل لا يمكن إلا أن يكون على صواب دائماً . فلكل سؤال جواب واحد صحيح يمكن كشفه دون خطأ إذا توافرت المثابرة الكافية ، ومثل هذا القول ينطبق كذلك على المسائل الأخلاقية والسياسية وعلى الحياة الخاصة والاجتماعية بقدر ما ينطبق على مسائل العلوم الطبيعية والرياضة . حتى إذا أمكن الوصول إلى الجواب الصحيح أصبح تطبيق الحل العملى مسألة مهارة فنية لا أكثر ، وإن كان يجب قبل ذلك إزالة الأعداء التقليديين للتقدم وتعليم الناس أهمية العمل فى جميع المسائل ، تبعاً لنصيحة الخبراء العلميين الذين لامصلحة لهم والذين تقوم معرفتهم على العقل والتجربة ، فإذا تحقق ذلك أصبح الطريق ممهدا لبلوغ العهد السعيد .

بيد أن تأثير البيئة لايقل أهمية عن تأثير التربية ، فإذا أردت أن تتنبأ بمستقبل

حياة رجل يجب أن تأخذ فى الاعتبار عوامل معينة مثل طابع المنطقة التى يعيش فيها من حيث جوها وجودة أرضها وبعدها عن البحر إلى جانب صفاته الجسمانية وطبيعة عمله اليومى . فالإنسان شىء كائن فى الطبيعة ، والروح البشرية ، مثلها مثل المادة ، لاتخضع لمؤثرات فوق الطبيعة ، ولا تملك قدرات سحرية ؛ وسلوك الإنسان يمكن تفسيره برمته على ضوء فروض مادية عادية يمكن التحقق من صحتها . وقد شرح « لامترى » ، أحد أنصار المذهب المادى من الفرنسيين ، هذا الاتجاه التجريبى وتوسع فيه إلى أقصى مداه فى بحثه عن « الرجل الإله » الذى كان نشره سبباً فى فضيحة هائلة فى ذلك الوقت .

وقد شاركه آراءه محررا « الموسوعة » ، « ديدرو » و « دالمبير » وكذلك « هولباخ » و « هلفسيوس » و « كونديياك » بدرجات متفاوتة ، فلقد اتفقوا جميعاً ، رغم خلافهم فى المسائل الأخرى، على أن الفرق الأساسى بين الإنسان وبين النباتات والحيوانات الدنيا هو تميزه بالوعى الذاتى ، أى إدراكه لبعض العمليات المعينة التى يقوم بها ، وهـــذا الوعى ناشئ عن قدرته على استخدم العقل والخيال وعلى تصور أهداف مثالية وعلى وضع قيم أخلاقية لبعض ألوان النشاط ولبعض الخصائص حسب اتجاه هذا النشاط أو تلك الخصائص إلى تحقيق الأهداف التى يريدها أو تعويق سيرها . على أن هناك تناقضاً خطيراً تضمنته هذه النظرية — ذلك هو التعارض بين حرية الإرادة من ناحية وبين الأوضاع الحتمية التى تمليها البيئة والخصائص الشخصية من ناحية أخرى ؛ وهو نفس التعارض القديم بين حرية الإرادة وعلم الغيب الإلهى فى صورة جديدة استبدلت فيها كلمة « الله » بكلمة « الطبيعة » . فلقد كان من رأى « اسبينوزا » أن الحجر وهو يسقط فى الهواء لو استطاع أن يفكر فقد يتصور أنه اختار طريقه بحرية ، فهو لا يدرى شيئاً عن الأسباب الخارجية التى تحيط بسقوطه مثل هدف راميه وقدرته على القذف والوسط الطبيعى الذى يحدد سقوطه . وبالمثل ، فإن جهل الإنسان بالأسباب الطبيعية لسلوكه هو وحده الذى يجعله يفترض أنه يختلف عن الحجر الساقط بصورة من الصور . على أن المعرفة الكاملة سرعان ما تبدد هذا الوهم الذى يستند إلى الغرور ، حتى لو بقى ذلك الإحساس بالحرية المتولد عن هذا الوهم بعد أن

يكون قد فقد قدرته على الخداع . وفى حدود ما يتصل بالمذهب التجريبى المتطرف يتفق هذا المبدأ الحتمى تماما مع « العقلية » المتفائلة : وإن كان يحمل فى طياته دلالات تتعارض معها فيما يتعلق بإمكانيات الإصلاح فى الشئون البشرية . فلو أن العامل الوحيد الذى يجعل من الناس قدّيسين أو أشراراً هو حركة المادة فى الفراغ لكان المربون أنفسهم مسوقين إلى فعل ما يفعلونه بنفس القوة التى تحدد أفعال أولئك الذين يتعين عليهم أن يربوهم . فكل شىء يحدث بالطريقة التى يحدث بها نتيجة لعمليات طبيعية غير قابلة للتغيير ؛ ولا يمكن إدخال أى تحسين عن طريق الاختيار الحر للأفراد مهما بلغت حكمتهم أو قوتهم أو دوافع الخير فيهم ، لأنهم لا يستطيعون تغيير الضرورة الطبيعية بأكثر مما يستطيع أى كائن آخر . وهكذا ظهرت هذه العقدة الشهيرة فى صورة أشد حدة بعد أن جُـردت من ثوبها الدينى القديم ، فأوجدت صعوبات متكافئة لكلا الطرفين ، وإن طغت عليها قضايا أكبر منها وأهم ،حتى أصبح الملحدون والمتشككون والماديون والعقليون والنفعيون ينتمون جميعاً إلى معسكر واحد ؛ بينما المؤمنون والميتافيزيقيون وأنصار النظام القائم ودعاته وقفوا فى المعسكر الآخر . ذلك أن هوة الخلاف بين الاستنارة والكهنوتية كانت واسعة وكانت الحرب بينهما من الوحشية إلى حد جعل المشاكل المذهبية داخل كل معسكر تمر غير ملحوظة نسبيا .

ولقد أصبح الاتجاه الأول من بين هذين الاتجاهين المذهب الأساسى للمفكرين الراديكاليين فى القرن التالى . فقد أكدوا الخير الطبيعى فى الناس إذا لم يتلفهم الحكم السيء أو الغاشم ، وأكدوا القدرة الهائلة للتربية « العقلية » على إنقاذ جماهير البشر من شقائهم الحالى وعلى إعادة توزيع ما فى العالم من خيرات بطريقة أكثر عدلا وأكثر صبغة علمية ، وبالتالى قدرتها على قيادة البشرية إلى أقصى حدود السعادة الممكنة . فلقد سيطر على خيال القرن الثامن عشر الخطوات المذهلة التى قطعتها العلوم الرياضية والطبيعية خلال القرن السابق ، وكان طبيعياً بعد ذلك أن تطبق الطرق التى ثبت نجاحها على يد « كبلر » و « جاليليو » و « ديكارت » و « نيوتن » فى ميدان العلوم الطبيعية والرياضية على الظواهر الاجتماعية ونواميس الحياة . وإذا أمكن القول بأن هناك فرداً واحداً خلق هذه الحركة ، فهو بلا نزاع

« ڤولتير » . وإذا لم يكن « ڤولتير » هو الأصل فيها فإنه كان أعظم أبطالها وأشهرهم لأكثر من نصف قرن . فقد أسهم بكتبه ونشراته ، بل وبمجرد وجوده ، بنصيب لا يقارن فى القضاء على سلطان الكثلكة والاستبداد أكثر مما أتيح لأى عامل آخر بمفرده . كما أن تأثيره لم ينته بوفاته ، فلقد امتزجت حرية الفكر باسمه ، ودارت معاركها تحت لوائه : ولم تقم ثورة شعبية ، منذ عهده حتى يومنا هذا ، إلا واستمدت أشد أسلحتها فتكا من تلك الذخيرة التى لا تنتهى والتى لم يؤثر على صلاحيتها مرور قرنين من الزمان عليها . بيد أنه إذ كان « ڤولتير » هو الذى خلق « دين الإنسان » ، فقد كان « روسو » أعظم أنبياء هذا الدين . لقد كان مبشراً وداعية عبقريا ، منح هذا الدين بلاغة وبث فيه حرارة وحماسة وأضفى عليه لغة أغنى وأكثر غموضا وعاطفية ، لغة أثرت فى كتاب القرن التاسع عشر ومفكريه تأثيراً عميقا . وفى الواقع يمكن القول بأنه خلق أسلوبا جديداً فى التفكير والإحساس ومصطلحات جديدة اتخذها المتمردون الاجتماعيون والفنيون فى القرن التاسع عشر أداة طبيعية للتعبير الذاتى ، أولئك الذين قام منهم الجيل الأول من الرومانسيين الذين كانوا ينشدون الوحى من تاريخ فرنسا الثورى وآدابها ، وباسمها رفعوا علم التمرد فى بلادهم المتخلفة .

ويعد « روبرت اوين » ، وهو أحد أصحاب المصانع المثاليين من أهل ويلز ، من أكثر دعاة هذا المذهب حماسة فى إنجلترا ، وهو بلا شك أبعدهم أثرا . ويتمثل مذهبه فى العبارة التى كان يطبعها فى رأس صحيفة « عالم الأخلاق الجديد[١] » وهى : (إننا نستطيع أن نضفى على أى مجتمع ، وحتى على العالم كله ، أى طابع عام ، فنجعله أجمل أو أسوأ وأجهل أو أكثر تنورا ، باستعمال الوسائل المناسبة ، وهى وسائل — إلى حد كبير — فى متناول أولئك الذين لهم نفوذ فى شئون الناس وتخضع لسيطرتهم) . وكان قد أثبت صدق نظريته وحقق لنفسه انتصارا بما خلقه من ظروف نموذجية فى مصنع القطن الذى يملكه فى « نيولانارك » ، بما حدده من ساعات العمل وما اتخذه من احتياطات صحية وما أنشأه من صناديق للتوفير . فقد زاد بهذه الطريقة معدل إنتاج مصنعه ورفع مستوى المعيشة لعماله إلى حد كبير

(١) The New Moral World

جداً ، بل وضاعف ثروته ثلاثة أضعاف مما كان له أثره الواضح فى العالم الخارجى .

وأصبحت «نيولانارك» كعبة يحج إليها الملوك ورجال السياسة ، وكان لها — بوصفها أول تجربة ناجحة فى التعاون السلمى بين العمل ورأس المال — أثر كبير على تاريخ كل من الاشتراكية والطبقة العاملة . وإذا كانت محاولاته التالية فى الإصلاح العملى أقل نجاحا ، فإن « أوين » ، الذى مات فى منتصف القرن التاسع عشر بعد أن تقدمت به الشيخوخة ، وكان آخر من بقى من الفترة الكلاسيكية للمذهب العقلى ، قد ظل إيمانه ثابتا لا يتزعزع رغم الإخفاق المتكرر، وبقى حتى آخر حياته يؤمن بكمال الإنسان وبما للتربية من قوة لا حد لها .

ولم يكن أثر انتصار الآراء الجديدة فى الثقافة الأوروبية بأقل من أثر النهضة الإيطالية فيها . فإن روح البحث الحر فى القضايا الشخصية والاجتماعية والنزعة إلى طرح جميع الموضوعات على بساط البحث أمام محكمة العقل ، أصبحت نظاما محدد الأوضاع ويلقى قبولا واسعا ومتزايدا فى قطاعات متعددة من المجتمع . فأصبحت الشجاعة الفكرية ، بل أكثر من ذلك ، عدم التحيز الفكرى ، فضيلتين من فضائل العصر . واحتفل الناس عامة « بفولتير » و « روسو » وأنزلوهما منزلة الإعجاب ، وقوبل « هيوم » بحفاوة عظيمة عند زيارته لباريس . كان هذا الجو الفكرى الذى تكوّن فى ظله الثوريون فى سنة ١٧٨٩ ، ذلك الجيل الصارم المتسم بالبطولة الذى كان لا يستسلم لأحد ويتحصن وراء معتقداته الواضحة النقية ، وحيوية إدراكه الإنسانى المبرأ من العاطفية — وفوق كل شىء — وراء أمانته الخلقية والفكرية المطلقة التى تقوم على أساس ثابت من إيمانه بأن الحقيقة لابد أن تنتصر فى النهاية لأنها الحقيقة ، إيمان لم تزعزعه سنوات من النفى والاضطهاد . وقد أصبحت آراء هذا الجيل الأخلاقية والسياسية وكلماته فى الإطراء واللوم منذ ذلك الوقت التراث المشترك للديموقراطيين من كل لون ونحلة . فالاشتراكيون والتحرريون ، والنفعيون والمؤمنون بالحق الطبيعى ، كلهم يتحدثون لغته ويعلنون إيمانهم بما كان ذلك الجيل يؤمن به ؛ وإن لم يكن بنفس السذاجة والثقة العمياء ، بل كان أقل حلاوة وبساطة وأقل قدرة على الإقناع .

وجاء الهجوم المضاد مع بداية القرن الجديد . وقد بدأ فى أرض ألمانية ، ولكنه

سرعان ما أخذ ينشر فى العالم المتمدين كله ، ويصد تقدم « التجريبية » من الغرب ، واضعا مكانها نظرة ميتافيزيقية عميقة إلى الطبيعة والفرد لا تزال آثارها معنا حتى اليوم ، ولا تزال تزداد قوة ونفوذا . فلقد كانت ألمانيا تحس بنهاية فترة مجدبة طويلة بعد أن أقعدتها حرب الثلاثين سنة معنويا وماديا ثم عادت فى نهاية القرن الثامن عشر ، تنتج ثقافة محلية خاصة بها ، مستقلة أساسا وإن تأثرت بالأساليب الفرنسية التى حاكتها أوروبا كلها . وبدأ الألمان يكتبون مؤلفات فى كل من الفلسفة والنقد أقل إتقانا من ناحية الشكل من المؤلفات الفرنسية ، ولكنها أكثر حرارة وحماسة فى التعبير ، وأكثر إثارة من أى شئ كتب فى فرنسا باستثناء الصفحات التى كتبها روسو ؛ ولم ير الفرنسيون فى هذا الإنتاج الفنى المشوش سوى هذر يدعو إلى السخرية يقوم عن قلب الحقائق التى صاغوها هم أنفسهم بأسلوبهم البراق وتناسقهم المنمق . وأضافت الحروب النابليونية إلى جراح الفكر الألمانى مذلة الهزيمة العسكرية ، فوسعت شقة الخلاف وتحول رد الفعل الوطنى القوى الذى بدأ فى ألمانيا إبان هذه الحروب إلى فيضان جارف من الشعور القومى بعد هزيمة « نابليون » ، وارتبط بما يسمى « فلسفة خلفاء كانت » أو « الرومانسية » الجديدة : فلسفة « فيشته » و « شلنج » و « هيجل » التى لم تلبث أن اصطبغت بلون قومى واتسع إطارها وزادت شعبيتها حتى تحولت إلى أشبه شئ بعقيدة ألمانيا الرسمية . ووضع الألمان فى مواجهة « التجريبية العلمية » الفرنسية والإنجليزية الطريقة الميتافيزقية فى التاريخ التى جاء بها « هردر » و « هيجل » . وهى طريقة قامت على نقد النظريات المنافسة ، وجاءت ببديل جديد لها ، غير أثره من تاريخ المدنية فى أوروبا وترك طابعاً لا يمحى على أخيلتها وأساليب شعورها .

وقد كان فلاسفة القرن الثامن عشر الكلاسيكيون يتساءلون : على فرض أن الإنسان ليس أكثر ولا أقل من كائن من كائنات الطبيعة ، فما هى القوانين التى تحكم سلوكه ؟ فإذا كان من الممكن ، عن طريق الوسائل التجريبية ، اكتشاف الظروف التى تسقط فيها الأجسام ، وتتحرك الكواكب ، وتنمو الأشجار ، ويتحول الثلج إلى ماء والماء إلى بخار ، فيجب ألا يكون أقل إمكانا من ذلك معرفة الظروف التى يدفع الإنسان فيها إلى الأكل والشرب والنوم والحب والكراهية ،

وإلى القتال مع الآخرين ، وإلى التجمع فى عائلات وقبائل وشعوب ، وإلى تكوين الملكيات والأوليجاركيات والديموقراطيات . فإلى أن يتم اكتشاف ذلك بوساطة « نيوتن » جديد أو « جاليليو » آخر لن يكون هناك علم حقيق للمجتمع . وبدا « لهيجل » أن هذه « التجريبية » الراديكالية تمثل نظرية علمية جزمية أسوأ أثراً حتى من فكرة الدين التى تحاول أن تحل محلها ، وتقوم على الفرض الخاطئ الذى يقول إن الأساليب التى نجحت فى العلوم الطبيعية هى وحدها التى تصلح للتطبيق فى جميع مجالات المعرفة . وكان هيجل يشكك فى هذه الأساليب الجديدة حتى فيما يتعلق بالماديات ، بل كان يرتاب دون أن يكون لريبته ما يبررها ، فى أن العلماء الطبيعيين ينتقون الظواهر التى يناقشونها بطريقة تحكمية ويحصرون أنفسهم ، بطريقة لا تقل تحكماً ، فى نطاق نوع معين بذاته من البراهين . بيد أنه إذا كان موقفه تجاه « التجريبية » فى ميدان العلوم غير مشبع بالعطف ، فقد تحدث بعنف أشد عن نتائجها المدمرة إذا طبقت على التاريخ البشرى . فإن التاريخ إذا كتب تبعاً لقواعد « علمية » ، كما كان « ڤولتير » و « هيوم » يفهمان هذه الكلمة ، فلن تكون النتيجة سوى تشويه الوقائع تشويهاً بشعاً تحاشاه خير مؤرخى الماضى — بما فيهم « هيوم » و « ڤولتير » نفسيهما عندما كانا يكتبان التاريخ لا عندما كانا يحاولان وضع النظريات — بطريقة لا شعورية نتيجة لبديهة تاريخية أكيدة .

وقد تصور « هيجل » التاريخ على أنه يدور فى مستويين : مستوى أفقى تبدو فيه ظاهرة مجالات النشاط المختلفة بين جماعات مختلفة من الناس تنتمى إلى المرحلة نفسها من النمو ، متداخلة بحيث تكوّن نوعاً من النمط الموحد الذى يضفى على كل فترة طابعاً خاصا بها يمكن تمييزه فوراً ؛ ومستوى رأسى يبدو فيه القطاع الأفقى نفسه للحوادث على أنه جزء من تتابع زمنى ، أى على أنه مرحلة ضرورية فى عملية من عمليات النمو، كانت المرحلة السابقة عليه تحتويه زمنياً بشكل ما، وتتمثل فيه هو نفسه، وإن كان بدرجة أقل ، تلك الاتجاهات والقوى بذاتها التى يتكون منها ، بعد أن يكتمل ظهورها ، العصر التالى الذى لا بد أن يتحقق فى النهاية . ومن ثم كان لابد ، لكى يفهم المرء أى عصر فهما حقيقياً ، أن لا يُنظر إليه فى علاقته بالماضى وحده لأنه يحتوى كذلك على بذور المستقبل وينطوى على فكرة سابقة عن الإطار العام لما سوف يحدث؛وهى علاقة لا يستطيع مؤرخ أن يسمح لنفسه بتجاهلها مهما

كان دقيقاً أو حريصا على التزام الأدلة المجردة للوقائع . فبهذه الطريقة وحدها يستطيع أن يعرض العناصر المكونة للفترة التي يعالجها في إطارها الصحيح ، وأن يميز بين الصالح والصالح منها ، وأن يحدد السمات الأساسية الفعالة لعصر من العصور وأن يفرق بينها وبين السمات العارضة التي لا صلة لها بصلب الموضوع ، مما قد يحدث في أي زمان أو مكان ، والتي ليس لها جذور عميقة في ماضي هذا العصر نفسه ولا أثر فعال لها في مستقبله .

إن مفهوم النمو الذي يقوم على فكرة أن الحبة تحتوى الشجرة في باطنها ، وأنها لا توصف وصفا كاملا إلا على ضوء مثل هذا النمو ، فكرة قديمة قدم أرسطاليس ، بل هي أقدم منه . وقد عادت فبرزت إلى النور مرة أخرى في عصر النهضة وتولى « ليبنز » تطويرها إلى أقصى حدودها ، فقال إن الكون مركب من مجموعة من الجواهر الفردية المستقلة كل منها ينبغي تصوره على أنه يتكون من ماضيه كله ومن مستقبله كله . ليس فيه شيء عارض ؛ ولا يمكن وصف شيء فيه ، كما يريد « التجريبيون » ، على أنه تتابع من ظواهر أو حالات مستمرة أو غير مستمرة تربطها ، في أحسن الحالات ، علاقة السببية الآلية الخارجية . فالتعريف الصحيح الوحيد للشيء يجب أن يكون بحيث يفسر لماذا كان على هذا الشيء أن ينمو بالصورة التي نما بها على ضوء تاريخه الخاص وبوصفه موجودا ناميا كل مرحلة من مراحله ، كما قال « ليبنز » ، « تحمل الماضي وتتضمن المستقبل في طياتها » . ولم يبذل « ليبنز » أي محاولة مفصلة لتطبيق مذهبه الميتافيزيقي على الأحداث التاريخية ، ومع ذلك فقد بدا « لهيجل » أن هذا المجال هو خير مجال يطبق فيه هذا المذهب . فقد كان يرى أنه إن لم يُفترض وجود علاقة أخرى غير علاقة السببية العلمية فسوف يكون من المستحيل تفسير ، أو حتى التعبير عن ، الطابع الفردي البحت لشخصية بذاتها أو لفترة تاريخية معينة ، أو للجوهر الخاص لأي عمل فني أو علمي بذاته قد يتشابه كل من سماته الخاصة مع شيء حدث قبله أو بعده تشابها وثيقا ، رغم أنه في مجموعه فريد في ذاته من بعض النواحي ولا يوجد في الطبيعة سوى مرة واحدة ؛ ومن ثم كان لا يمكن تفسيره بوساطة أسلوب علمي يعتمد نجاح تطبيقه على عكس ذلك تماما ، ويقوم على أن نفس الظاهرة ، أو نفس المزيج

من السمات ، يجب أن تعيد نفسها بصورة منتظمة وأن تحدث المرة بعد الأخرى .

وكان أول من طبق الأسلوب الجديد هو « هيردر » الذى طبق مفهوم « النمو العضوى » كما سُمى فيما بعد ، على تاريخ ثقافات بأكملها وعلى الشعوب والأفراد على السواء ، ولعله فعل ذلك متأثرا بنمو الوعى القومى والعنصرى فى أوروبا ومدفوعا بكراهيته لكونية الفلسفة الفرنسية الشائعة وشموليتها اللتين تسويان بين جميع الأشياء . بل إنه فى الواقع جعل الأسلوب الجديد ، فى عرضه له أكثر لزومية فى حالة تاريخ الثقافات حيث إن الأفراد لا يمكن النظر إليهم نظرة صحيحة إلا بوصفهم عارضين فى مرحلة بذاتها من مراحل نمو المجتمع الذى يصل إلى أفضل تعبير يمثله فى آراء أعظم أبنائه وأعمالهم . ومن ثم فقد انغمس هيردر فى دراسة الثقافة القومية الألمانية من بداياتها البربرية ودرس أصل لغتها وحفائرها القديمة إلى تاريخها ونظمها فى العصور الوسيطة كما درس فنونها الشعبية التقليدية وآثارها ، وحاول أن يستخرج من ذلك صورة للروح الألمانية الحية بوصفها قوة تكوينية مسئولة عن وحدة نموها القومى الخاص بها ، الأمر الذى لا يمكن تفسيره بواسطة العلاقة التجريبية الفجة التى تقوم على مجرد « قبلية » و « بعدية » زمنية مبهمة قد تصلح لتفسير التاريخ المتشابه الممل للأحداث التى تتم نتيجة لأسباب آلية ، مثل دورة المحصولات والثورات الأرضية السنوية ، تفسيرا مرضيا .

وجاء هيجل فنمى هذه النظرية على نطاق أوسع وأكثر طموحا . فقال إن التفسير الذى تهيئه المادية الفرنسية لا يصلح ، على أحسن الفروض ، إلا لتفسير بعض الظواهر الاستاتيكية ، لا الديناميكية ، أى لتفسير الفروق لا التغيرات . فإذا توافرت مختلف الظروف المادية قد يكون من الممكن التنبؤ بأن الناس الذين يولدون فى ظلها ستنمو لديهم بعض السمات المعينة التى تعزى مباشرة إلى أسباب مادية وإلى التربية التى هيأتها لهم أجيال سابقة تأثرت هى نفسها بنفس الظروف . ولكن حتى إذا كان الأمر كذلك ، فماذا عسانا مفيدين منها ؟ فالظروف الفيزيقية لإيطاليا مثلا كانت هى نفس ظروفها تقريبا فى مبدأ الأمر كما كانت فى القرن الثامن والقرن الخامس عشر ، ومع ذلك فالرومان القدماء يختلفون اختلافا كبيرا عن ذراريهم من الإيطاليين ، كما أن رجال عصر النهضة ظهرت فيهم سمات معينة

واضحة فقدتها إيطاليا فى فترة تأخرها تماما أو كانت فى سبيل فقدها . ومن ثم فلا يمكن أن تكون هذه الظروف الثابتة نسبيا ، التى هى وحدها مجال اختصاص العلماء الطبيعيين ، هى المسئولة عن ظاهرة التغير التاريخى ، عن التقدم ورد الفعل عن المجد والانحطاط . فلا بد إذن من افتراض عامل ديناميكى لتفسير التغير على هذا الوجه ، ولتفسير الاتجاه الواضح الذى يسير فيه هذا التغير . ومن الواضح أن مثل هذا التغير لا يمكن أن يكون معادا ، فكل مرحلة ترث شيئاً جديداً من سابقتها ، وهى تختلف بفضل هذا الشىء الجديد عن كل مرحلة سابقة لها ؛ إن مبدأ النمو يستبعد مبدأ التكرار الموحد الذى أقام عليه « جاليليو » و « نيوتن » صرح آرائهما . وإذا كان للتاريخ قوانين فإن من الواضح أن هذه القوانين لابد أن تكون من نوع يختلف عن تلك التى كانت تعتبر حتى ذلك الوقت النمط الوحيد الممكن للقانون العلمى : فلما كان كل شىء — موجود — يظل باقيا وله تاريخ من نوع ما ، فإن قوانين التاريخ لابد لهذا السبب نفسه أن تكون متشابهة مع القوانين التى تحكم وجود أى شىء آخر له وجود .

وإذن فأين يوجد هذا المبدأ الخاص بالحركية التاريخية ؟ إنه ليكون اعترافا بإخفاق البشرية وهزيمة العقل أن يقال أن ذلك المبدأ الديناميكى هو ذلك الشىء المبتذل الذى جعله التجريبيون هدفا لسخريتهم ، تلك القوة السحرية الغامضة التى لا يستطيع الإنسان حتى أن يأمل فى اكتشافها . فإنه لمن الغريب ألا يكون ذلك الذى يتحكم فى حياتنا العادية أكثر قرباً منا ؛ ألا يكون تجربة مألوفة بالنسبة لنا أكثر من أية تجربة أخرى نعرفها . لأن الأمر لايتطلب منا أكثر من أن نأخذ حياتنا نفسها على أنها عالم صغير فى ذاته أو نمط للكون كله . فنحن قد تعودنا إلى حد كبير أن نتحدث عن شخصية الإنسان أو مزاجه باعتبارهما وسيلة لتفسير آرائه وتصرفاته ؛ لا بوصفهما شيئاً مستقلا تماماً ومتميزاً عن هذه الآراء والتصرفات ، ولكن على أنهما النمط المشترك الذى تعبر عنه : وكلما قلنا إننا نعرف شخصاً ما معرفة أحسن ، كلما أمكن القول بأننا نعرف تكوينه الأخلاقى والعقلى فى علاقته بالعالم الخارجى معرفة أحسن . فقد حول « هيجل » مفهوم الطابع الشخصى للفرد ، ذلك الطابع الذى يتكشف تدريجياً خلال حياة الشخص ،

إلى حضارات بأكملها وشعوب بأسرها : وأشار إليه فى صور متعددة رامزاً إليه بلفظ « الفكرة » أو « الروح » ، مميزاً مراحل مختلفة فى تطوره ، وأعلن أنه الدافع أو العامل الديناميكى فى نمو أشخاص ومدنيات بذاتها ومن ثم فى نمو الكون الواعى كمجموعة . وأضاف أن الخطأ الذى ارتكبه جميع المفكرين السابقين هو افتراض الانعزال النسبي لمجالات النشاط المختلفة فى فترة ما ؛ انعزال الحروب فى عصر ما ، عن فنونه وفلسفته فى الحياة اليومية . وطبيعى أنه لا يجوز لنا أن نلجأ إلى هذا الفصل فى حالة الأفراد ؛ فنحن بالنسبة لأولئك الذين نعرفهم جيداً نربط بين جميع تصرفاتهم ، بصورة نصف شعورية ، على أنها تعبيرات مختلفة لطبيعة واحدة ؛ إذ نتأثر بعدد لا يحصى من بيانات متعلقة بهذه المرحلة أو تلك من نشاطاتهم تؤثر مجتمعة فى الصورة الذهنية التى نكونها عنهم . ولا يقل انطباق هذا القول ، تبعاً « لهيجل » ، على مفهومنا عن حضارة من الحضارات أو فترة تاريخية بذاتها عن انطباقه على حالة الأفراد . فلقد تعود المؤرخون فى الماضى أن يكتبوا المقالات عن تاريخ هذه المدينة أو تلك أو تاريخ هذه الحرب أو تلك ، أو عن تصرفات هذا الملك أو القائد أو ذاك ، كما لو كان من الممكن عرضهم فى معزل عن الظواهر الأخرى فى عصرهم . فكما أن تصرفات الفرد هى تصرفات الفرد بأكمله ، فكذلك الظواهر الحضارية لعصر ما ، أو النمط الخاص للأحداث التى يتكون منها هذا العصر ، هى تعبيرات عن العصر كله وعن طابعه بأكمله ، وهى فى الواقع حقيقة نعترف بها ضمناً كلما تحدثنا عن ظاهرة من الظواهر على أنها من خصائص العالم القديم لا العالم الحديث ، أو تحدثنا عن عصر ما بوصفه عصر فوضى لا عصر سلام واستقرار .

وعلينا أن نعترف بهذا الرأى صراحة . فمثلا عندما نكتب تاريخ الموسيقى فى القرن السابع عشر فنلتقى بصورة معينة من التركيب النغمى فيه ، فإن مما يتصل بالموضوع أن نتساءل عما إذا كان قد لوحظ تطور على نسق مماثل فى تاريخ العلم فى ذلك الوقت ؛ أو إذا كان اكتشاف « نيوتن » و « ليبنز » « التفاضل والتكامل » فى الحساب فى وقت واحد مجرد صدفة أم أنه يرجع إلى سمات عامة معينة تتميز بها تلك المرحلة من مراحل الثقافة الأوروبية ، تلك السمات التى قد تكون انتجت

نوعا من العبقريه المتشابهة فى كل من « باخ » و « ليبنز » وفى « ملتون » و « بوسان » . فإن التشبث بأسلوب علمى جامد قد يدفع المؤرخين ، كما يدفع العلماء الطبيعيين ، إلى إقامة حواجز بين ميادين أبحاثهم وإلى معالجة كل فرع من فروع النشاط البشرى كما لو كان يتم فى عزلة نسبية ، كما لو كانت أشبه بالنهيرات تسير فى محاذاة بعضها البعض ولا تتقاطع إلا نادراً ولا يترك تقاطعها هذا أثراً يذكر ، فى حين أنه ينبغى على المؤرخ ، إذا أراد أن يرتفع بنفسه عن مستوى مسجل للأحداث التاريخية أو مبوّب للآثار وأن يدرك مهمته على حقيقتها ؛ أن يحاول رسم صورة لعصر من العصور فى حركته ، وأن يربط بين الخصائص والسمات التى يتكون منها ، وأن يفرق بين القديم والجديد ، بين المثمر والمجدب ، وبين البقايا الزائلة التى تخلفت من عصر سابق وبشائر المستقبل التى ظهرت قبل أوانها .

وهذه الدعوة إلى البحث فى الخاص عن أفضل تعبير لما هو عام ، إلى البحث عن الظاهرة المحددة المفصلة ذات الطابع الفردى ، هذه الدعوة إلى الاقتداء بفن كاتب السيرة والرسام وواقعيتهما لا بالمصور الفوتوغرافى أو جامع الإحصائيات ، هى التراث الفريد الذى خلفه هيجل للعالم . فإذا كان التاريخ علماً فينبغى ألا يضل طريقه بسبب أى تشابه خداع بينه وبين العلوم الطبيعية أو الرياضيات ، تلك العلوم التى تتجاهل عمدا كل ظاهرة تمت إلى عصر واحد أو مكان واحد بالذات فى بحثها عن السمات العامة التى يمكن الحصول عليها على أوسع نطاق وتقل بينها الفروق إلى أقصى حد سعيا وراء التعميم . فالمؤرخ ، على العكس من ذلك ، ينبغى عليه أن يرى الظواهر فى أكمل ملابساتها ، فى ضوء صورة خلفية من الماضى وصورة متطلعة من المستقبل وأن يصفها على هذا النسق باعتبارها حيوية بالنسبة لكل الظواهر الأخرى التى تنبعث من نفس النزعة الحضارية .

إن الأثر الذى تركه هذا المذهب ـــ الذى أصبح الآن مألوفا والذى يجمع بين المظاهر والأسباب فى كل تغيير يطرأ على نظرة جيل بأكمله ـــ أثر ضخم يستعصى عن الحصر . فإن العادة التى تكونت لدينا من إضفاء سمات معينة على فترات وأمكنة بذاتها ومن النظر إلى الأفراد وتصرفاتهم على أنها رمز لفترات وشعوب

بحالها ، ومن إضفاء صفاتهم وخصائصهم على عهود أو شـــعوب بالذات أو حتى على اتجاهات اجتماعية واسعة الأثر ، حتى صرنا نصف ذلك بأنه تعبير عن روح « عصر النهضة » مثلا أو « الثورة الفرنسية » أو « الرومانتيكية الألمانية » أو « العصر الفكتورى » ، كل هذا مصدره تلك النظرة الجديدة فى منهج البحث التاريخى . إن المبادئ المنطقية البحتة التى وضعها « هيجل » وكذلك وجهة نظره فى منهج العلوم الطبيعية كانت جدباء وكانت آثارها سيئة تماما . بيد أن أهميته الحقيقية تكمن فى تأثيره فى ميدان الدراسات التاريخية والاجتماعية ، أى فى خلق علم جديد ينصب على تاريخ الأنظمة البشرية ويجعل لها طابعا شبيهاً بالشخصية الجماعية الكبرى ، ولها حياة وسمات خاصة بها لا يمكن وصفها على أساس الأفراد الذين تتألف منهم هذه الجماعات — وإلى تأثير « هيجل » يرجع إلى حد كبير الفضل فى قيام مدرسة جديدة من المؤرخين الألمان كان من أثرهم أن أى كاتب يفسر الأحداث بوصفها نتيجة لشخصية هذا الملك أو ذاك السياسى ومراميه أو نتيجة لما أصابه أيهما من انتصار شخصى أو من هزيمة ، قد أصبح يبدو ساذجاً بعيداً عن الأسلوب العلمى .

فإذا كان التاريخ هو نمو « الروح » غير الشخصية التى لم تكن فى نظر « هيجل » تمثل الروح البشرية وحدها — فهو قد أنكر أى انفصال جوهرى بين المادة والعقل — فإنه يكون من الضرورى أن تعاد كتابته بوصفه تاريخ ما حققته « الروح » . وهكذا بدا الأفق وكأنه اتسع فجأة بصورة ضخمة . ولم يعد تاريخ القانون شيئاً يحتفظ به علماء الآثار ورجال العاديات فى جعبتهم ، بل تحول إلى « الفقه التاريخى » الذى فسرت به الأنظمة القانونية المعاصرة بوصفها تطوراً منظما تفرع عن القانون الرومانى أو عن قانون أسبق عهدا منه فأصبح يتضمن « روح » القانون نفسها ، أو « روح » المجتمع فى ناحيته القانونية ، فى تداخل مع النواحى السياسية والدينية والاجتماعية للحياة .

ومنذ ذلك الوقت بدأ تاريخ الفن وتاريخ الفلسفة يعالجان على أنهما متكاملان وبوصفهما عناصر لا غنى عنها فى التاريخ العام للحضارة : فهناك وقائع كانت تعتبر من قبل تافهة أو ضئيلة أصبحت فجأة ذات أهمية باعتبارها مجالات لم تكتشف

حتى ذلك الوقت لنشاط « الروح » — وأصبحت تواريخ التجارة والملابس والفنون النافعة تعتبر عناصر جوهرية فى التاريخ الكامل « المتكامل » للجنس البشرى .

بيد أن هناك وجهاً واحداً للأمر تحول فيه « هيجل » بوضوح عن مفهوم « ليبنز » للتطور بوصفه تقدماً سلساً « لجوهر » يتحول شيئاً فشيئاً من « إمكانية » إلى « واقع ». فقد أصر على « واقعية » الصراع والحروب والثورات ، « وواقعية » التلف والدمار الذى ينتاب العالم . وقال إن كل « عملية » فى هذا الصراع هى عملية من التوتر الدائم بين قوتين متضادتين تعمل كل منهما ضد الأخرى ، وإن هذا الصراع المتبادل إنما يعمل على التعجيل بنموهما ؛ وهذا النضال — الذى قد يكون أحيانا مختفيا وأحيانا ظاهراً والذى يمكن تتبع آثاره فى جميع مجالات النشاط الواعى بوصفه نضالا بين عدد من القوى والمؤثرات الطبيعية والمعنوية والفكرية — يزداد قوة وحده حتى يتحول إلى صراع سافر يبلغ ذروته باصطدام نهائى يقضى عنفه على الطرفين معاً . وهذه هى النقطة التى يتحطم فيها النمو الذى يكون قد ظل مستمراً حتى ذلك الوقت ، ثم تتلوها قفزة فجائية إلى مستوى جديد حيث يبدأ التوتر مرة أخرى بين قوى جديدة . ويطلق على بعض هذه القفزات ، وهى تلك التى تحدث على نطاق واسع ملحوظ ، تعبير « الثورات السياسية » . ولكن القفزات ، تحدث فى الواقع فى جميع مجالات النشاط على نطاق أقل أهمية ، فى الفن والعلم وفى نمو الأجسام الحية التى يدرسها العالم البيولوجى وفى العمليات النووية التى يدرسها عالم الكيمياء ، وأخيراً فى المناقشات العادية التى تقوم بين أى طرفين فى نزاع ؛ فتخرج من ذلك حقيقة جديدة بعد صراع بين رأيين غير حقيقيين فى بعض أجزائهما . على أن الحقيقة الجديدة نفسها تكون نسبية لا تلبث أن تقابل بهجوم من حقيقة مضادة (هى « النقيضة » « لقضيتها ») ، ثم يتبع ذلك أن تدمر كل منهما الأخرى ، وهكذا دواليك ، فتستمر العملية إلى مالا نهاية . وقد أطلق « هيجل » على هذه العملية اسم العملية « الجدلية » . فإن فكرة الصراع والتوتر تهيئ بالضبط ذلك المبدأ الديناميكى الذى يتطلبه الأمر لتفسير الحركة فى التاريخ . والفكر ليس سوى الواقع الذى يعى نفسه ، وعملياته هى عمليات الطبيعة فى أوضح صورها . فإن مبدأ الامتصاص والتحلل الدائمين

فى نطاق وحدة أسمى يحدث فى الطبيعة كما يحدث فى التفكير المتقطع ويثبت أن عملياته ليست بلا هدف — مثل الحركات الآلية التى تفترضها المادية — بل إنها تؤدى إلى السير نحو مزيد متواصل من الكمال . ومن ثم فإن كل انتقال كبير يتميز بقفزة ثورية على نطاق واسع ، من ذلك تدمير روما على يد البرابرة ، والثورة الفرنسية،والثورة الإنجليزية الكبرى . ففى كل حال تتقدم « الروح » أو « الفكرة الكونية » خطوة نحو التحقيق الكامل فإذا بالبشرية تدفع مرحلة أخرى إلى الأمام . ولما كان ذلك لا يتم تماماً فى الاتجاه الذى توقعه أحد طرفى النزاع الأول ، فإن خيبة أمل الطرف الذى يؤمن أكثر من الآخر بقدرته الخاصة على توجيه التاريخ قسراً أعمق وأشد .

وقد ترتب — على وسائل البحث والتفسير التى تكشفت فجأة — أثر مروع ، بل ومتكر ، فى المجتمع الألمانى المتنور وكذلك — وإن كان بصورة أضعف — فى توابعه الثقافية جامعات سان بطرسبرج وموسكو . وأصبحت الهيجيلية هى المذهب الرسمى الذى يدين به كل شخص يدعى التنور الفكرى : فطبقت الآراء الجديدة فى كل ميادين الفكر والعمل ، بحماس لا ضابط له ، قد لا يستطيع عصر أكثر تشككا فى الآراء أن يتفهمها . فتغيرت الدراسات الأكاديمية تغيراً كاملا ، وصار المنطق الهيجيلى والفقه القانونى الهيجيلى والأخلاق والجماليات الهيجيلية واللاهوت الهيجيلى ونقد اللغة الهيجيلى والمنهج الهيجيلى فى البحث التاريخى تحيط بدارس العلوم الإنسانية أينما ولى وجهه . وكانت برلين حيث قضى « هيجل » السنوات الأخيرة من حياته ، مركز الحركة ومقرها الرئيسى . وعادت الوطنية والرجعية السياسية والاجتماعية ترفع رؤوسها مرة أخرى . فقد توقف تقدم المذهب الذى يقول بأن كل الناس إخوة وأن الفوارق القومية والعنصرية والاجتماعية إنما هى فوارق مصطنعة أنتجتها التربية المعيبة ، بسبب نظرية « هيجل » المضادة التى تجعل من هذه الفوارق — التى تتجلى فيما تمتاز به أمة بذاتها أو جنس بذاته من عبقريات فريدة شيئاً يرتكز على الضرورة التاريخية ، رغم ما يبدو جلياً من أنه لا سند من العقل لهذه الفوارق . فهذه الفوارق يتطلبها نمو « الفكرة » التى تعتبر الأمة تجسيداً لهـــا ، ولا يمكن القضاء عليها بين عشية وضحاها

بمجرد أن يطبق أفراد من المصلحين منطق العقل . فالإصلاح يجب أن ينبثق من تربة تقليدية ، وإلا فإن مآله الإخفاق ، فهو فى هذه الحالة مقضى عليه مقدماً من قوى التاريخ التى تتحرك فى الوقت المناسب وبالسرعة المناسبة لها . ومن ثم فإن المطالبة بالتحرر من هذه القوى والسعى للتخلص منها هما بمثابة رغبة المرء فى الهرب من وضعه التاريخى الحتمى ومن المجتمع الذى يعد المرء جزءاً لا يتجزأ منه ومن المجموعة المعقدة من العلاقات العامة والخاصة التى تجعل الإنسان ما هو عليه ؛ فهذه العلاقات هى الإنسان ، أو هى ما يكون عليه الإنسان ، ومن ثم فإن الرغبة فى الهروب من كل هذا هى بمثابة رغبة الإنسان فى أن يفقد طبيعة نفسه ، وهو مطلب متناقض فى ذاته لا يمكن أن يطلبه إلا شخص لا يعرف ماذا يطلب ، شخص فكرته عن الحرية الشخصية فكرة تشبه التفكير الذاتى عند الطفل .

إن الحرية الحقيقية تنحصر فى اكتشاف القوانين التى لا مناص للمرء من الخضوع لها ، فى ظروف المكان والزمان اللذين يعيش فيهما ، وفى محاولة المرء تحقيق إمكانيات طبيعته المطيعة للقانون ، تلك الإمكانيات التى يؤدى تحقيقها إلى تقدم الفرد ومن ثم إلى تقدم المجتمع الذى ينتمى إليه الفرد « عضوياً » والذى يعبر عن نفسه من خلال هذا الفرد ومن خلال غيره من الأفراد الذين يعيشون فيه . وعندما يحاول إنسان أن يدمر تقليداً من التقاليد باسم مثله الذاتى الأعلى ، بدلا من أن يحاول تعديله ، فهو إنما يعارض قوانين التاريخ ويحاول المستحيل ، ومن ثم يكشف عن « لا عقليته » هو . وسلوك هذا شأنه إنما هو سلوك خاطىء ، لا لأنه مقضى عليه بالفشل حتما ومن ثم فهو سلوك عديم الجدوى فحسب — إذ ربما تحدث ظروف قد يظن المرء فيها أن الموت فى سبيل قضية خيالية أنبل من البقاء — بل كذلك لأنه سلوك « لاعقلى » لأن قوانين التاريخ التى يعارضها هى قوانين « الروح » هى الجوهر النهائى الذى يتكون منه كل شىء ، ومن ثم فهى قوانين « عقلية » ، فلو أنها لم تكن قوانين « عقلية » لاستحال على الإنسان تفسيرها . « والروح » تقترب من كمالها بما تحققه تدريجاً من وعى ذاتى يزداد مع كل جيل . ثم تبلغ ذروة نموها فى أى وقت فى أولئك الذين يرون أنفسهم بوضوح فى علاقتهم بالعالم الذى يعيشون فيه وبعبارة أخرى إنها تبلغ ذروة نموها فى نفوس أعمق فلاسفة كل عصر

من العصور . وكلمة « الفلاسفة » تعنى هنا الفنانين والمفكرين والعلماء والشعراء وكل تلك الأرواح الحساســـة الباحثة التى تعى بصورة أعمق وأدق مما يعى غيرها من أعضاء المجتمع ، مرحلة النمو التى بلغتها البشرية وما كسبته فى عصرهم . وبعضه بفضل جهودهم .

وتاريخ الفلسفة هو تاريخ نمو هذا الوعى الذاتى الذى تصبح فيه الروح واعية لنشاطها مدركة له ؛ كما أن تاريخ البشرية من وجهة النظر هذه ليس سوى قصة تقدم الروح فى مراحل نمو وعيها الذاتى . وهكذا فإن التاريخ كله هو تاريخ الفكر ، أى تاريخ الفلسفه ، الذى هو بدوره فلسفة التاريخ ، إذ أن هذه التسمية ليست سوى اسم يطلق على وعى هذا الوعى. ومن ثم فإن القول الهيجيلى المشهور « فلسفة التاريخ هى تاريخ الفلسفة » لاينطوى بالنسبة لأى شخص يقبل الميتافيزيقية الهيجلية على أى تناقض أو غموض ، بل هو من المحسنات اللفظية صيغت فى قالب أنيق — مع مايستصحبه ذلك من نتيجة هامة وفريدة ، هى أن التقدم الحقيقى إنما هو تقدم الروح حيث إنها الجوهر الذى يتكون منه كل شئ آخر . ومن هنا كانت الوسيلة الوحيدة التى يستطيع بواسطتها أولئك الذين يهمهم خير المجتمع العمل على النهوض به ، هى أن يعملوا على تنمية القدرة على تحليل أنفسهم وتحليل بيئتهم لدى أنفسهم ولدى غيرهم ، وهو نوع من النشاط سمى فيما بعد بالنقد ويعد نموه مرادفا للتقدم البشرى . ويتبع ذلك أن التغيرات التى تتضمن العنف المادى وإسالة الدماء ليس لها من سبب سوى معاندة المادة الغاشمة ، التى لاتخرج ، على حد قول « ليبنز » ، على أن تكون فكرا على مستوى منخفض غير واع . ومن ثم فإن الثورة التى بدأها « نيوتن » كانت ثورة حقيقية أكثر بكثير من الأحداث التى يطلق عليها الناس عادة لفظ ثورة ، رغم أنها تمت دون إراقة دماء ؛ ذلك أن كل غزو حقيقى وكل نصر حقيقى إنما هو ، فعلا لا مجازا ، ما يتحقق من كسب فى عالم « الروح » ؛ وهكذا فإن الثورة الفرنسية كانت فى الواقع قد انتهت عندما أتم الفلاسفة وضع نظمهم ، وقبل أن تبدأ الجيلوتين عملها بوقت طويل .

وبدا أن هذا المذهب قد حل أخيرا المعضلة الكبرى التى شغلت أذهان الناس طوال الفترة الأولى من القرن التاسع عشر ؛ وهى المشكلة التى كانت جميع النظريات

السياسية المهمة فى ذلك العهد مجرد حلول مختلفة لها . فالثورة الفرنسية قامت لتحقيق الحرية والمساواة والإخاء بين الناس ؛ وقد كانت أعظم محاولة فى التاريخ الحديث لتضمين أيديولوجية ثورية جديدة تماما فى إطار من الأنظمة المدوسة عن طريق نجاح أنصار الأيديولوجية أنفسهم فى الاستيلاء على السلطة بالعنف ؛ ولكن هذه الثورة مع ذلك أخفقت بالكلية فى تحقيق أغراضها . فقد غيرت الثورة وجه أوروبا ، ولكن هدفها ، وهو إقامة الحرية والمساواة بين البشر ، ظل كما كان دائماً أبعد ما يكون عن التحقيق . فما هو الجواب بالنسبة لأولئك الذين دفعتهم مرارة خيبة الأمل إلى شعور من البلادة الساخرة جعلهم يعلنون عجز الخير أمام الشر ، والحق أمام الباطل ، ودفعهم إلى التأكيد بأن الجنس البشرى لا طاقة له على تحسين حاله بجهوده . وقد تقدم « هيجل » بحل ضخم لهذه المعضلة ، التى شغلت الفكر الاجتماعى فى فترة الرجعية السياسية فى أوروبا ، وذلك بمذهبه عن الطابع الحتمى للعملية التاريخية الذى يتضمن أن كل محاولة لتغيير مجرى هذه العملية بالعنف مقضى عليها سلفا بالفشل ، حتى عندما تكون هذه المحاولة نفسها ضرورة تاريخية ؛ وهو رأى على النقيض تمــــاما من الرأى المنافس الذى تقدم به « سان سيمون » و « فوربيه » فى فرنسا . ومن ثم كان من الطبيعى جدا أن تكون مشكلة الحرية الاجتماعية وأسباب الفشل فى تحقيقها هى الموضوع الرئيسى الذى دارت حوله جميع كتابات « ماركس » الأولى . وكانت الطريقة التى تناول بها الموضوع وحله له هيجلية فى روحها . وقد جعله تدريبه الأول وميوله الطبيعية يتجه نحو « تجريبية » متطرفة : ويمكن للمرء أن يرى أحياناً طرق التفكير التى تمت إلى وجهة النظر هذه من وراء التأكيدات الميتافيزيقية التى تختفى تحتها هذه الطرق فى معظم الأحيان . ويظهر ذلك بوضوح فى شغفه الشديد بالتنديد باللاعقلية فى أية صورة وتحت أى قناع ؛ وكثيراً ما كان يلجأ فى مناقشاته إلى استخدام الأساليب التى كانت تستخدمها « مادية » القرن الثامن عشر ؛ ولكن الصورة التى يعبر بها عنها والفكرة التى يعمل على اتباعها بوساطة هذه الأساليب كانت مع ذلك هيجلية صحيحة . وقد اعتنق ماركس المذهب الجديد فى شبابه وبقى سنين طويلة ، رغم هجومه الشديد على الميتافيزيقية المثالية ، من الأتباع المؤمنين بهذا الفيلسوف العظيم كما ظل طوال تلك الفترة معجباً به لا يتحول عنه .

الفصل الرابع

الهيجيليون الشبان

« إنهم (أى الألمان) لن يثوروا أبداً،فهم يفضلون الموت على التمرد ... ومع ذلك فتى الألمانى إذا ضاقت أمامه السبل وبلغ منه اليأس كل مبلغ قد يكف عن المناقشة ، ولكن الأمر فى هذه الحالة يتطلب قدراً هائلا من الاضطهاد والاهانة والظلم والألم لكى يصل به إلى هذه الحالة » .

« ميشيل باكونين »

وافقت السنوات التى قضاها ماركس طالباً فى جامعة برلين فترة من الكآبة العميقة بالنسبة لطبقة المثقفين الراديكاليين فى ألمانيا . ففى سنة ١٨٤٠ اعتلى عرش بروسيا ملك جديد كانت قد عقدت عليه كثير من الآمال . فلقد تحدث أكثر من مرة قبل توليه الملك عن التحالف الطبيعى بين الوطنية والمبادىء الديموقراطية وبين الملكية ؛ كما تحدث عن منح البلاد دستوراً جديداً ؛ وأخذت تظهر فى الصحافة المتحررة إشارات تفيض بهجة واستبشارا بالعهد الجديد المقبل . غير أن هذه الوعود سرعان ما انتهت إلى أقل من لا شىء . فإن الملك الجديد لم يكن أقل رجعية من أبيه ، وإن كان أوسع حيلة وأقل تقيداً بالروتين منه ؛ فكانت وسائل الضغط التى استخدمتها شرطته أوقع أثراً من تلك التى كانت تستخدم فى أيام فردريك وليم الثالث ، وفيما عدا ذلك لم يحدث توليه السلطة أى فرق آخر . لم تكن هناك دلائل على الإصلاح ، سواء كان سياسياً أو اجتماعياً ؛ ولم يكن « لثورة يوليو » فى فرنسا ، التى حظيت بترحيب حماسى هائل من جانب الراديكاليين الألمان ، أثر سوى أنها دفعت مترنيخ إلى إنشاء لجنة مركزية لإخماد الأفكار الخطرة فى جميع الأراضى الألمانية ، وهو إجراء قابله بترحاب السادة البروسيون من أصحاب الأراضى الذين ظلت قوتهم تشل

كل مجهود يبذل من أجل الحرية . كذلك بذلت الطبقة الحاكمة كل ما فى وسعها لعرقلة نمو طبقة الصناعيين وأصحاب البنوك — ما دامت لا تستطيع القضاء عليها تماما — تلك الطبقة التى كانت قد بدأت حتى فى بروسيا المتخلفة الوديعة تبدى كثيراً من القلق والجموح . أضف إلى ذلك أن التعبير عن الرأى بصراحة عن طريق الصحف أو فى الاجتماعات العامة كان أمراً لا يمكن أن يفكر فيه أحد : فالرقابة الرسمية كانت أكفأ وأنشط من أن تدع مجالا لذلك ، كما أن « الدايت » كان مشحوناً بأنصار الملك . وكان إحساس التذمر المتجمع ضد أصحاب الأراضى والموظفين الحكوميين ، قد زاد حدة بسبب إحساس الطبقة المتوسطة بقوتها المتزايدة ، إلى أن تدفق فى النهاية بالأسلوب التقليدى الذى يعبر به الألمان عن أنفسهم ، تدفق فى صورة فيضان من الكلمات والعبارات والفلسفات العارضة .

وإذا كانت الهيجلية الأصلية حركة رجعية وجواب القومية الألمانية الجريحة على محاولة الفرنسيين فرض مبدئهم الجديد الخاص « بالعقل الكونى » على العالم ، فإن خروج الشبان من أعضاء هذه الحركة عليها يمثل محاولة للكشف عن تفسير تقدمى لفكرة التطور الطبيعى وتخليص الفلسفة الهيجيلية من انشغالها بالتاريخ الماضى وتوجيهها نحو المستقبل ، والمواءمة بين هذه الفلسفة وبين العوامل الاقتصادية والاجتماعية الجديدة التى بدأت تظهر فى كل مكان . على أن كلا من المعسكرين ، اليمين واليسار ، أو الهيجيليين القدامى والهيجيليين الشبان (كما أطلق عليهم فيما بعد) ، قد أقام فلسفته على العبارة المأثورة التى وضعها هيجل ، مؤسس فلسفتهم ، والتى تنادى بأن : الحقيق هو العقلى والعقلى هو الحقيق ؛ كما اتفق المعسكران على أن تفسير هذه العبارة هو أن التعليل الصحيح لأية ظاهرة يوازى إثبات ضرورتها ، ومعنى ذلك تبريرها عقلياً . فليس هناك شىء يمكن أن يكون شرا وضرورة فى وقت واحد، لأن كل ما هو حقيقى يبرره أنه حقيقى (تاريخ العالم هو عدالة العالم) وهكذا وصل الطرفان إلى هذا الحد فيما اتفقا فيه . أما الشقاق بينهما فقد كان مصدره الأهمية النسبية التى تضفى على كل من اللفظين الدقيقين «العقلى» و «الحقيقى» .

أما المحافظون ، وقد ذهبوا إلى أن الحقيق وحده هو العقلى ، فقد أعلنوا أن مقياس العقلية هو الواقعية ، وأن المرحلة التى تبلغها الأنظمة الاجتماعية

أو الشخصية ، بالوضع الذى توجد عليه فى أية لحظة بذاتها ، هى المقياس الكافى على مدى جودتها ؛ مثال ذلك أن الحضارة الألمانية كما قرر «هيجل» بالفعل كانت مركباً يسمو على ما سبقه ، من الحضارات الشرقية والإغريقية والرومانية ، وهو يمثل « المركب » النهائى لهـــذه الحضارات ؛ ويستتبع ذلك فرضا أنه لما كانت المرحلة الأخيرة هى بالضرورة أفضل وأكمل إطار سياسى بلغه البشر ، فإنها تتألف من أسمى ذروة بلغتها الحضارة حتى الآن ، أى الدولة البروسية . وتكون الرغبة فى تعديلها أو هدمها عملا مذموماً من الناحية الأخلاقية لأنه يكون موجهاً ضد « الإرادة العقلية » المتجسمة فى هذه الدولة ، وهى على أية حال رغبة غير مجدية لأنها تضع نفسها فى مواجهة قرار اتخذه التاريخ فعلا . وهذا هو نوع المحاجة الذى جعلته الماركسية فيما بعد مألوفاً للعالم كله .

واعترض الراديكاليون مؤكدين أن العكس هو الصحيح ، أى أن « العقلى » هو وحده « الحقيقى » . فأصروا على أن الواقع كثيراً ما يكون مليئاً بالمتناقضات وبالأخطاء وبالتفكير المجرد من العقل ، ومن ثم فلا يمكن اعتباره حقيقياً بأى معنى أصيل ، أو بعبارة أخرى بأى معنى ميتافيزيقى . وقد ذكروا ، معتمدين على نصوص عديدة من آراء هيجل ، أن « الأستاذ » كان يدرك أن مجرد الحدوث فى المكان أو الزمان لا يعنى بأى حال من الأحوال أن « الحادث » حقيقى : فقد يكون « الموجود » نسيجاً من الأنظمة المضطربة ، كل منها يحبط أهداف الآخر ، ومن ثم يكون وهمياً تماماً من وجهة النظر الميتافيزيقية: إذا كانت درجة « واقعية » هذه الأنظمة تقاس بمقدار اتجاهها لأن تكون « كلا » عقلياً ، بما قد يتطلب تحولا جذرياً من جانبها وفقاً لما يمليه العقل . وخير من يعرف ما يمليه العقل هم أولئك الذين حرروا أنفسهم من طغيان الواقع المجرد واكتشفوا عدم كفايته للقيام بدوره التاريخى كما يُستنبط من التفسير الصحيح لطابع الماضى والحاضر واتجاههما . وهذا اللون من النقد الذى يوجهه الفرد ضد الأنظمة الاجتماعية فى عصره ـ الفرد الذى سما بنفسه فوق هذه الأنظمة ـ هو أنبل وظيفة للإنسان ، وكلما كان الناقد أكثر استنارة كان نقده أبعد أثراً ، وكان التقدم الفعلى نحو « الواقع » أسرع . لأن « الواقعية » ، كما أكد ماركس ، روحية فى طابعها وتزداد نمواً كلما ازداد الوعى

الذاتى الناقد بين الناس . بيد أنه لا يوجد من الأسباب ما يجعلنا نفترض أن هذا التقدم لا بد أن يأتى تدريجياً وأن يكون مبرأ من الآلام . واستشهد الراديكاليون مرة أخرى بنصوص لامراء فى أنه يمكن العثور عليها بين أقوال هيجل ، ليذكروا معارضيهم بأن التقدم هو نتيجة توتر بين أضداد نمت حتى صارت أزمة ثم انفجرت على صورة ثورة : وعندئذ ، وعندئذ فقط، تحدث القفزة إلى المرحلة التالية. هذه هى قوانين النمو التى توجد فى أكثر عمليات الطبيعة الغشوم فجاجة بقدر ما توجد فى شئون الناس والمجتمعات .

ومن ثم فإن الواجب الواضح على الفيلسوف الذى يحمل أعباء المدنية على أكتافه أن يعمل على نشر مثل هذه الثورة بتلك المهارة الفنية الخاصة التى يملكها هو وحده، أى عن طريق الحرب الذهنية . فمهمته فى هذه الحالة هى أن يحرك الناس ويوقظهم من سباتهم وأن يمحو الأنظمة المعرقلة التى لا فائدة منها بمساعدة أسلحة النقد التى لديه ، مثلما فعل الفلاسفة الفرنسيون إذ قوضوا أساس « النظام القديم » بقوة الأفكار وحدها . ولا ينبغى الالتجاء إلى العنف المادى أو إلى قوة الجماهير الغاشمة : فالالتجاء إلى الغوغاء ، وهو يمثل أحط مستويات الوعى الذاتى التى تصل إليها « الروح » بين الناس ، هو استخدام لوسائل لا عقلية ولا يمكن أن يؤدى إلا إلى نتائج لاعقلية : إن ثورة الأفكار هى وحدها التى تؤدى إلى الثورة عملا : (أن يتجلى « العملى » من تلقاء ذاته من وراء النظرية المجردة) . ولما كان إصدار النشرات السياسية علنا غير مباح ، فإن المعارضة تضطر إلى الالتجاء إلى أساليب هجومية غير مباشرة : فالمعارك الأولى ضد « الأرثوذكسية » (Orthodoxy) حوربت فى ميدان اللاهوت المسيحى الذى كان أساتذته حتى ذلك الوقت يجيزون، إن لم يكونوا يشجعون ، فلسفة كانت كل دلالاتها تتجه نحو دعم النظام القائم . وفى سنة ١٨٣٥ م نشر « دافيد شتراوس » سيرة المسيح على أساس نقدى تبعاً للأسلوب الهيجيلى الجديد ، نبذ فيها بعض أجزاء الكتب المقدسة، بعضها على أنها مخترعات اخترعها الناس والبعض الآخر على أنه يبعد عن الحقيقة ويمثل معتقدات شبه أسطورية كانت سائدة فى المجتمعات المسيحية الأولى ، وعالج الموضوع كله على أنه تمرين على البحث الناقد لنصوص مهمة تاريخية وإن كانت غير موثوق بها . وأثار كتابه

على الفور عاصفة شديدة ، لا فى الدوائر « الأرثوذكسية » وحدها ، بل وبين الهيجيليين الشبان ، فنشر « برنو باور » وهو محاضر فى علم اللاهوت فى جامعة برلين ، وكان أكبر ممثل لهم فى ذلك الوقت ، مطبوعات كثيرة هاجم فيها هـــذا الكتاب من وجهة نظر هيجيلية أكثر تطرفاً ، وأنكر فيها الوجود التاريخى للمسيح بالكلية محاولا تفسير الكتب المقدسة على أنها من وحى الخيال وأنها التعبير الأدبى عن « الأيديولوجية » السائدة فى عصرها ، وهى أسمى نقطة بلغها نمو « الفكرة المطلقة » فى ذلك العصر . ولم تكن السلطات البروسية لتهتم بصفة عامة بالخلافات بين الشيع المختلفة من الفلاسفة ، لولا أن هذه المعركة كان يبدو أن وجهتى نظر الجانبين فيها تهددان بتقويض أركان الدين ويحتمل جدا أن تؤديا إلى الإضرار « بالأرثوذكسية » السياسية . وهكذا نرى الهيجيلية ، التى كانت قد تركت حتى تكون فى سلام باعتبارها فلسفة لا ضرر منها ، بل وباعتبارها حركة فلسفية وطنية ، قد أصبحت فجأة موضع اتهام وعزيت إليها اتجاهات من شأنها إثارة الشغب بين الجماهير . وجىء إلى برلين « بشلنج » أكبر خصوم هيجل ، وكان وقتئذ قد أصبح شيخا رجعيا لاذعا فى رجعيته ، لكى يدحض هذه المذاهب علنا ؛ بيد أن محاضراته فشلت تماما فى تحقيق النتيجة المطلوبة . فشددت السلطات رقابتها ولم يلبث الهيجيليون الشبان أن وجدوا أنفسهم فى مأزق حرج ، ليس أمامهم فيه سوى أحد شيئين : إما الاستسلام التام وإما الاتجاه إلى اليسار السياسى بخطوات أوسع مما كانت أغلبيتهم تريده لنفسها . ولم تعد هناك سوى حلبة واحدة يمكن أن يثار فيها هذا الموضوع ، ألا وهى الجامعات التى ظلت تحتفظ بحرية أكاديمية حقيقية ، وإن كانت مقيدة . وكانت جامعة برلين هى المركز الرئيسى للهيجيلية فلم يمض وقت طويل حتى كانت فلسفاتها السياسية قد غمرته .

وقد استهل ماركس دراسته الأكاديمية فيها طالباً فى كلية الحقوق يحضر الفقه على « سافينى » والقانون الجنائى على « جانز » . وكان « سافينى » ، وهو مؤسس المدرسة التاريخية فى الفقه وأعظم أصحاب النظريات فيها وعدو التحررية اللدود ، أبرز المدافعين عن الحكم البروسى المطلق فى القرن التاسع عشر . ولم يكن هيجيليا بالمعنى الدقيق ، ولكنه كان متفقاً مع هذه المدرسة فى نبذ كل من نظريتى « الحقوق

الطبيعية » « والنفعية » ، كما فسر القانون تفسيراً تاريخياً بوصفه نموا تقليديا مستمرا ومنتظما ينبع من المثل العليا لأمة بذاتها فى محيطها التاريخى ويستمد مبرراته من هذه المثل .

وقد واظب ماركس على حضور محاضرات « سافينى » فترتين دراسيتين .

ولعل ما عرف عن « سافينى » من سعة الاطلاع الهائلة والقدرة على المناقشة التاريخية الدقيقة كان أول اتصال لماركس بالأسلوب الجديد فى البحث التاريخى الذى كان يتطلب معرفة دقيقة بالوقائع كأساس عام للنظريات الشاملة . وكان الخصم الأول لسافينى فى مهنته هو أستاذ القانون الجنائى « إدوارد جانز » الذى كان تأثيره على ماركس أعمق وأشد . وكان « جانز » أحد تلامذة هيجل المفضلين : فقد كان يهوديا بمولده ، وصديقا لهاين ، وكان مثله « إنسانيا » راديكاليا ، وإن لم يشارك أستاذه رأيه السيء فى الثقافة الفكرية الفرنسية . وكانت محاضراته نماذج فى سعة الاطلاع والشجاعة ويؤمها الكثيرون ؛ وقد ترك نقده الصريح للأنظمة القانونية ولأساليب التشريع — على ضوء العقل ومن غير تأثر بنزعات الماضى « الباطنية » — أثرا عميقا فى ماركس وأوحى إليه بفكرة صحيحة لم تفارقه مطلقا عن الهدف السليم للنقد النظرى وعن أسلوب هذا النقد .

وتحت تأثير « جانز » رأى ماركس فى الفقه المجال الطبيعى لتطبيق كل نوع من أنواع فلسفة التاريخ والتأكد من صحتها . أما الهيجيلية فقد نفر منها عقله الذى كان ينزع بطبيعته إلى الموضوعيـــة . وقد وصف الجهود التى بذلها لمحاولة تكوين خطة منافسة لها فى خطاب شخصى طويل لوالده ؛ ولكنه ، بعد ليال قضاها ساهرا وأيام أمضاها فى الصراع مع خصمه ، لم يلبث أن غلبه المرض فغادر برلين ليستعيد قواه . ثم عاد إليها بعد ذلك وهو يحس بالفشل وخيبة الأمل ، لا هو يستطيع العمل ولا هو يستطيع الراحة . وأرسل إليه والده خطابا أبويا طويلا يرجوه فيه ألا يضيع وقته فى تأملات ميتافيزيقية مجدبة بينما أمامه مستقبله الذى ينبغى عليه أن يفكر فيـــه . ولكن كلمات الأب لم تلق عند ابنه أذنا صاغية ، فانكب ماركس بعزم على دراسة أعمال هيجل دراسة مستفيضة وظل يقرأ ليلا ونهارا ، ولم تمض ثلاثة أسابيع حتى كان قد أعلن تحوله

الكامل ، وسجل هذا القول بانضمامه إلى عضوية « نادى الخريجين » ، وهم جماعة من المفكرين الأحرار من أعضاء الجامعة كانوا يجتمعون فى أقبية البيرة ويكتبون شعرا متسما بالتمرد ويعلنون كراهيتهم العنيفة للملك والكنيسة والبورجوازية ، وكانوا فوق هذا وذاك يتناقشون بلا انقطاع حول بعض نقط من اللاهوت الهيجيلى . وفى هذا النادى قابل ماركس زعماء هذه الجماعة البوهيمية ، وسرعان ما صار على علاقة وثيقة بهم ، وكانت تضم الأخوين « برونو » ، كما تضم « ادجار باور » و « اجرت باور » و « كوبن » . وكان هذا الأخير شخصية غريبة ومن الرواد الذين درسوا اللامية التبتية وكتب تاريخا « للإرهاب الفرنسى » ، ثم « ماكس ستيرنر » الذى كان يدعو إلى فردية متطرفة خاصة به ، غير واحد أو اثنين آخرين من « الأرواح الحرة » (كما كانوا يطلقون على أنفسهم) .

وهجر ماركس دراسته القانونية وكرس نفسه لدراسة الفلسفة . فلم تكن هناك مادة أخرى تقاربها فيما لها من مغزى معاصر كما بدت له . ورسم لنفسه خطة تقوم على إعداد نفسه ليكون محاضرا فى الفلسفة فى إحدى الجامعات وعلى أن يشن هو و « باور » حملة إلحاد عنيفة تضع حدا لذلك العبث الواهن المتردد بالمذاهب الخطرة ، الذى قصر الراديكاليون المعتدلون نشاطهم عليه . واتفقا على أن تكون الحملة فى صورة خدعة محكمة ، فيظهر هجوم عنيف غفل من الإمضاء ضد هيجل بإمضاء لوثرى متدين يتهم هيجل بالإلحاد وهدم النظام العام وتقويض الأخلاق ويكون مدعما باستشهادات كثيرة من عبارات هيجل نفسه . وقد ظهر فعلا هذا الهجوم المشترك وسبب بعض الإثارة ؛ حتى لقد خدع به بعض المعلقين ، وإن كانت شخصية هيجل وباور لم تلبث أن اكتشفت وانتهى الأمر بطرد «باور» من منصبه الأكاديمى . أما ماركس فقد ظل يؤم الندوات الأدبية والاجتماعية حيث تعرف إلى « بتينا فون أرنيم » الشهير ، صديق « بتهوفن » ، وإلى « جوته » ، الذى أعجبه فى ماركس جرأته وذهنه المتوقد ، وكتب فى هذه الفترة حوارا فلسفيا تقليديا وألف عجالة عن مأساة « بيرون » ووضع مجلدات عديدة من الشعر الردىء أهداها إلى « جينى فون وستفالن » التى كان قد خطبها لنفسه سرا فى هذه الأثناء .

وكتب إليه والده ، الذى أفزعه شطط ابنه الذهنى ، الخطاب بعد الخطاب ملأها جميعاً بالنصائح العطوفة التى تعبر عن قلقه ورجاه فيها بأن يفكر فى مستقبله وأن يعد نفسه لأن يكون محاميا أو موظفا حكوميا . ورد عليه ابنه بإجابات مطمئنة بينما استمر يسلك طريقه السابق فى الحياة .

وكان ماركس فى ذلك الوقت ، قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره ، فيلسوفا هاويا لا مهنة محددة له ، محترما فى الأوساط التقدمية لسعة اطلاعه وقدرته على الجدل التهكمى المر . وسرعان ما أخذت نفسه تضيق أكثر فأكثر بالأسلوب الأدبى والفلسفى الذى يستخدمه أصدقاؤه وحلفاؤه ويتألف من مزيج غير عادى من الحذلقة والتظاهر ملىء بالمفارقات الغامضة والأمثلة المتكلفة داخل إطار من النثر المراوغ أحكم فيه تجنيس الحروف الأولى من الكلمات المتتابعة بصورة لا يمكن أن يكون المقصود منها أن يؤدى معنى . وقد تأثر ماركس بهذا الأسلوب إلى حد ما ، وبخاصة فى مؤلفاته الجدلية الأولى ، ولكن نثره كان مع ذلك متماسكا وواضحا إذا قورن بذلك السيل من اللغو الهيجيلى الجديد الذى تدفق على الجمهور الألمانى فى تلك الفترة . وقد وصف ماركس فيما بعد حالة الفلسفة الألمانية فى تلك الفترة فكتب يقول : « تبعا لتقارير الأيديولوجيين عندنا ، تعرضت ألمانيا فى السنوات العشر الأخيرة لثورة لا مثيل لها . . . ثورة تعد الثورة الفرنسية بالنسبة لها كلعب الأطفال . فلقد حلت امبراطورية محل امبراطورية أخرى بسرعة لا يصدقها العقل ، وسقط بطل عظيم بيد بطل أقوى منه وأكثر جرأة فى تلك المرحلة من الفوضى الشاملة . ومرت على ألمانيا خلال ثلاث سنوات ، من ١٨٤٢ إلى ١٨٤٥ ، موجة طاغية من العنف ، أعنف من كل ما سبقها فى أى قرن مضى . على أن هذا كله قد حدث فى عالم الفكر البحت وحده ، فنحن بصدد ظاهرة غريبة ، ظاهرة تحلل « الروح المطلق » .

« فعندما اختفت آخر جذوة من جذوات الحياة من جسد الروح المطلق ، تحللت عناصره المختلفة وتألفت فى تكوينات جديدة . وعمد المشتغلون بالفلسفة ، الذين كانوا فيما سبق يكسبون عيشهم باستغلال « الروح المطلق » ، إلى الإقبال بشراهة على هذه التكوينات الجديدة . وبدأ كل منهم يتصرف فى نصيبه منها .

وما كان هذا ليتم دون منافسة . وقد اصطبغت هذه المنافسة فى أول الأمر بطابع تجارى محترم ، ولكنها كما هى العادة فى ألمانيا ، لم تلبث أن دبّ فيها الفساد ، بعد أن بلغت السوق الألمانية حد الإشباع ولم تعد السوق العالمية قادرة على استيعاب مزيد من السلع برغم ما بذل من جهود ، إذ أفسدها الإنتاج بالجملة ، وانحطاط نوع السلع ، وغش المواد الأولية ، واستخدام العلامات المزورة ، والالتجاء إلى المشروعات الوهمية وإلى التلاعب المالى وإلى مشروعات الائتمان التى لا أساس لها من الواقع . وتحولت المنافسة إلى صراع مرير يتمثل لنا الآن فى صورة براقة للثورة ذات مغزى كونى ، غنية بما حققته من أحداث تاريخية وما انتهت إليه من نتائج » .

وكتب ماركس هذا الكلام فى سنة ١٨٤٦ : ولقد كان من الجائز فى سنة ١٨٤١ أن يعيش فى هــــذا العالم الغريب ، بل وأن يشترك فى هذا التضخم والإنتاج بالجمله فى سوق الألفاظ والمفهومات، لولا أن ظروفه تعرضت لتغيير مفاجئ محزن : فلقد مات أبوه ، الذى كان يعتمد عليه مالياً ، ولم يترك سوى ما يكاد يكفى أرملته وأطفاله الصغار . وصاحب ذلك فى نفس الوقت قرار وزير التربية البروسى بإدانة الجناح اليسارى من الهيجيلية علنا ، وطرد « باور » من منصبه . وأغلق ذلك فى وجه ماركس ، الذى كان مشتركا إلى حد كبير فى قضية « باور » ، باب العمل فى أى منصب أكاديمى وأرغم على البحث عن مهنة أخرى . ولم يطل انتظاره مع ذلك ، فقد كان من بين أشد المعجبين به يهودى اسمه « موسى هيس » كان يعمل ناشراً بمدينة « كولونيا » ، وكان راديكالياً مخلصاً شديد التحمس لراديكاليته وكان فى ذلك الوقت أكثر تقدمية حتى من الهيجيليين اليساريين ، كما كان قد زار باريس قبل ذلك وقابل فيها زعماء الكتاب الاشتراكيين والشيوعيين الفرنسيين فى ذلك العهد ، واعتنق آراءهم بحماس ؛ وقد نادى « هيس » ، الذى كان يجمع فى شخصه خليطاً غريباً من اليهودية التقليدية الغيورة ومن الإنسانية المثالية ومن الآراء الهيجيلية ، بتفوق العوامل الاقتصادية على العوامل السياسية وباستحالة تحرير الجنس البشرى دون تحرير الأجراء من البروليتاريا أولا ، وأعلن أن استمرار عبودية البروليتاريا يجعل كل الجهود التى يبذلها المفكرون فى سبيل إنشاء عالم

أخلاقى جديد لا طائل من ورائها ، حيث أن العدالة لا يمكن أن توجد فى مجتمع يسمح بعدم المساواة الاقتصادية ، ولما كان نظام الملكية الخاصة هو أساس كل الشرور ، فقد رأى « هيس » أنه لاسبيل إلى تحرير الناس إلا بإلغاء الملكية الخاصة والملكية القومية ، مما يترتب عليه إزالة الحدود القومية وإنشاء مجتمع دولى جديد على أساس اقتصادى جماعى « عقلى » . وقد تركت مقابلته لماركس أثراً ضخماً فى نفسه ، فقد كتب إلى زميل من زملائه الراديكاليين يقول فيه « إنه أعظم فيلسوف بين الأحياء ، ولعله الفيلسوف الحقيقى الوحيد الآن ، وهو . . . . لا بد جاذب إليه أنظار ألمانيا كلها قريباً . . . . إن الدكتور ماركس — وهذا اسم معبودى — لا يزال حدثا (حوالى ٢٤ سنة على أكثر تقدير) وسيوجه إلى دين العصور الوسطى وفلسفتها الضربة الأخيرة القاضية . فهو يجمع بين عمق التفكير الفلسفى الجدى وبين البراعة اللاذعة . تصور روسو وفولتير وهولباخ ولسنج وهاين وهيجل وقد اندمجوا جميعاً ليؤلفوا من جماعهم شخصاً واحداً — وأنا استخدم كلمة اندمجوا ولا أقول تراكموا على صورة كومة — إذن لعرفت من هو ماركس » .

ورأى ماركس فى حماسة هيس إعزازاً له ولكنه إعزاز سخيف ، فاتخذ نحوه موقف المتفضّل ، وهو مالم يجد فيه هيس أية غضاضة فقد كان حماسه الأول كفيلا بأن يجعله يتقبل هذا الوضع . لقد كان هيس رجلا وسطا له آراؤه ، ومبشراً متحمساً أكثر منه مفكراً أصيلا ، واستطاع أن يحمل أكثر من شخص واحد من معاصريه على اعتناق الشيوعية ، من بينهم راديكالى شاب اسمه « فردريك انجلز » ، الذى لم يكن قد قابل ماركس بعد حتى ذلك الوقت . وقد تعلم كلاهما من صلته بهيس أكثر كثيراً مما اعترف به أى منهما فيما بعد ، عندما اتجها إلى معاملة « هيس » ، على أنه أبله لا ضرر منه وإن كان متعباً . وأيا كان الأمر فإن ماركس وجد فيه فى ذلك الوقت حليفاً مفيداً ؛ فإن هيس ، الذى كان داعية لا يكل ، كان قد أقنع جماعة من رجال الصناعة التحرريين فى أرض الراين بتمويل إصدار جريدة راديكالية تتضمن مقالات عن موضوعات سياسية واقتصادية موجهة ضد سياسة حكومة برلين الرجعية ، وتعطف بصفة عامة على مطالب الطبقة البورجوازية

الناهضة . وصدرت الجريدة فى كولونيا بالفعل تحت اسم «راينخ زايتونج» .

ودُعى ماركس إلى المشاركة فى تحرير هذه الجريدة بمقالات منتظمة ، فلبى الدعوة بحماس ، ولم تمض عشرة أشهر حتى كان قد أصبح محررها الأول : فكانت هذه أول محاولة له فى السياسة العملية : وقد سار بجريدته بنشاط هائل وبلا تسامح. فقد أثبتت طبيعته الدكتاتورية نفسها فى هذه المغامرة فى مرحلة مبكرة ، فلم يكن من مرؤوسيه إلا أن تركوا له الأمر يفعل ما يشاء عن طيب خاطر ويكتب فى الجريدة كل ما يريد كتابته . وسرعان ما تحولت الجريدة من جريدة تحررية فى غير عنف إلى جريدة راديكالية عنيفة : أكثر عداء للحكومة من أى جريدة ألمانيه أخرى . فنشرت هجمات بذيئة ضد الرقابة البروسية وضد «الدايت» الاتحادى وطبقة ملاك الأراضى بصفة عامة : وارتفع توزيعها وعمت شهرتها فى جميع أنحاء ألمانيا ، واضطرت الحكومة أخيراً أن تعير انتباهها إلى هذا السلوك الغريب من جانب بورجوازية أرض الراين . بل إن حملة أسهم الجريدة أنفسهم لم يكونوا فى الواقع بأقل دهشة من السلطات الحكومية . غير أنه لما كان عدد المشتركين فى ارتفاع مطرد وكانت السياسة الاقتصادية التى تسير عليها الجريدة سياسة تحررية بحتة تدعو إلى حرية التجارة وتنادى بتوحيد ألمانيا اقتصادياً ، فقد كفوا عن الاعتراض ، كما امتنعت السلطات البروسية كذلك عن التدخل رغبة منها فى عدم استثارة المقاطعات الغربية التى ضمت حديثاً . على أن هذا التسامح قد شجع ماركس على السير فى طريقة ، فشدد النكير فى هجومه وأضاف إلى المناقشات السياسية والاقتصادية العامة قضيتين بذاتهما كان يحيط بهما شعور مرير جداً فى المقاطعة ؛ أما الأولى فهى قضية الفلاحين من زارعى الكروم فى «الموزل» وما كانوا فيه من حالة سيئة . وأما الثانية فقد كانت قضية القانون الصارم الذى كان يعاقب الفقراء على سرقتهم للأخشاب المتخلفة من الأشجار الميتة فى الغابات المجاورة . وقد اتخذ ماركس الآن من هاتين القضيتين أساساً لعريضة اتهام عنيفة ضد حكومة كبار الملاك . وقررت الحكومة أخيراً ، بعد أن تحسست الشعور العام فى المنطقة ، أن تطبق حقها فى الرقابة ؛ وطبقته بالفعل بصرامة متزايدة . وعمل ماركس من جهته ما فى وسعه لمراوغة الرقباء الذين كانوا فى الغالب على قدر محدود من الذكاء

واستطاع أن ينشر قدراً من الدعاية الديمقراطية ومن الدعوة إلى المبادئ الجمهورية من وراء ستار شفاف من التمويه ، مما أدى إلى توجيه اللوم إلى الرقباء أكثر من مرة وإبدالهم بغيرهم ممن هم أكثر شدة وأصعب مراسا . وقضى ماركس سنة ١٨٤٢ فى هذه المحاورة التى كان من الممكن أن تستمر إلى ما لا نهاية لولا أنه تجاوز حدوده عن غير وعى . فقد كانت الحكومة الروسية طوال القرن التاسع عشر مثلا لا يجارى فى كبت المعرفة وفى استخدام أساليب الوحشية والطغيان فى أوروبا ، فكانت مصدرا لا ينفد استمد منه الرجعيون فى الأمم الأخرى قوتهم حتى أصبحت الغول الذى يخيف التحرريين الغربيين على تفاوت آرائهم . ولما كانت فى ذلك الوقت الشريك المسيطر فى الحلف الروسى البروسى ، فقد هاجمها ماركس بعنف فى سلسلة من المقالات الرئيسية : فقد كان يبدو له وقتئذ ، كما بدا له فيما بعد ، أن شن الحرب على روسيا هو خير ضربة يمكن أن توجه لحساب التحررية الأوروبية . وتصادف أن وقع نظر الإمبراطور نيقولا الأول نفسه على نسخة من هذه الهجمات المقذعة وأعرب للسفير البروسى عن دهشته وغضبه . وأرسل رئيس الوزراء الروسى مذكرة شديدة اللهجة إلى ملك بروسيا يعنفه فيها على عدم كفاية رقبائه . واتخذت الحكومة البروسية إجراءات فورية رغبة منها فى تهدئة جارتها القوية ؛ فأغلقت جريدة « الراينخ زايتونج » فى أبريل سنة ١٨٤٣ بلا إنذار ، وأصبح ماركس مرة أخرى بلا عمل . على أن سنة واحدة كانت كافية لأن تجعل منه صحفيا سياسيا نابها يمتاز بآرائه العنيفة ومزاجه المكتمل فى مشاكسة الحكومات الرجعية ، وهو مزاج لم تلبث أن توفرت له فرصة الإشباع الكامل فى طريقة حياته التالية .

كان ماركس يعمل فى هذه الأثناء بهمة لا تعرف الكلل : فقد علم نفسه اللغة الفرنسية عن طريق قراءة مؤلفات الاشتراكيين الباريسيين ، « فورييه » و « برودن » و « ديزاى » و « كابيه » و « ليرو » . وقرأ التاريخ الفرنسى والألمانى الحديث ، كما قرأ كتاب « الأمير » لمكيافيلى . وبقى شهرا وهو ينكب على قراءة تاريخ الفن القديم والحديث لكى يجمع الأدلة التى تثبت الطابع الثورى المدمر فى مبادئ هيجل الأساسية ؛ فقد كان ينظر إلى هذه المبادئ ، شأنه فى ذلك شأن

الراديكاليين الشبان الروس المعاصرين له ، على أنها « معادلات الثورة » على حد تعبير « هرتسن » . فلقد كتب « هرتسن » يقول « إن هذا الفيلسوف العجوز (هيجل) ، تملكه الخوف من تطبيقها (هذه المبادئ) بصراحة فى ذلك الخضم السياسى الذى تتقاذفه العواصف ، فأطلقها لتطفو على مياه تلك البحيرة الداخلية الهادئة ، بحيرة النظريات الجمالية » . بيد أن رأى ماركس فى التفسير الصحيح لهذه المبادئ كان قد تأثر مؤخرا بكتاب ظهر فى ذلك العام — « بحث فى الفلسفة الهيجلية » — ألفه « لودفيج فيورباخ » وبعث به إلى ماركس ليكتب عنه نقدا .

و « فيورباخ » واحد من أولئك المؤلفين ، الذين يصادفهم المرء كثيرا فى تاريخ الفكر ، من أصحاب القدرات المتوسطة ، الذين يهيئون للنابغين من الناس مع ذلك الشرارة التى تشعل النار فى الوقود الذى تجمع على مدى الزمن . فلقد كان نصيبه الذى أسهم به فى الفلسفة ركيكا ولا أصالة فيه ، ولكنه كان من أتباع المادية فى وقت كان فيه ماركس قد تأثر برد فعل عنيف ضد مراوغات المثالية المتدهورة التى ظل منغمسا فيها طوال السنوات الخمس السابقة . فبدا أسلوب فيورباخ ببساطة ، رغم ما فيه من حرجات — لعلها هى العامل الذى ساعد على ذلك — كما لو كان قد فتح طاقة واسعة على العالم الحقيق . وبدا لماركس فجأة أن الهيجلية الجديدة التى بشر بها الأخوان « باور » وأتباعهما كابوس ثقيل لم يتبدد إلا أخيرا ، فصمم على التخلص من كل أثر له فى ذاكرته .

لقد أكد هيجل أن آراء الناس الذين ينتمون إلى فترة حضارية واحدة وأفعالهم إنما يحددها تأثير « روح » مطابقة لنفس « الروح » التى تتجلى فى ظواهر هذه الفترة . وجاء فيورباخ الآن فنبذ هذا الرأى بقوة . وتساءل « ما هى روح أى عصر أو حضـــاره إذا لم تكن هى الاسم المجمل لمجموعة الظواهر التى يتكون منها هذا العهد أو تلك الحضارة ؟ » . ومن ثم فإن القول بأن هذه الظواهر حددتها الروح لتكون بالصورة التى هى عليها يكون بمثابة القول بأن هذه الظواهر تحددت بوساطة «مجموعها» . وهذا أكثر الأقوال الجوفاء سخفا . ثم استطرد فيورباخ يقول إن الأمر لن يكون أفضل إذا استبدلنا « المجموع » بمفهوم « النمط » ، لأن الأنماط لا يمكن أن تسبب الأحداث : فالنمط صورة ،

وشيء تضفيه الأحداث التى لا يمكن أن يكون سببها إلا أحداث أخرى . فالعبقرية الإغريقية والطابع الرومانى وروح النهضة وروح الثورة الفرنسية ليست كلها سوى مجردات أو عناوين تصف بإيجاز مركبا معينا من الصفات والأحداث التاريخية ، مجرد اصطلاحات عامة ابتكرها بعض الناس توخيا للتسهيل على أنفسهم، ولكنها ليست بأى معنى من المعانى أشياء موضوعية حقيقية تسكن الدنيا ولديها القدرة على تغيير هذا أو ذاك من شئون البشر . وعلى هذا فإن الرأى القديم ، الذى يجعل مسئولية التغيير نتيجة لقرارات الأفراد وتصرفاتهم ، كان أقل سخفا من ذلك القول : لأن الأفراد على الأقل موجودون ويتصرفون بأسلوب لا تتصرف به الآراء العامة والأسماء المشتركة . لقد أكد هيجل ، وبحق ، عدم صحة هذا الرأى لأنه لا يفسر كيف ترتبت النتيجة الإجمالية على تفاعل عدد هائل من حياة الأفراد وتصرفاتهم ، كما أنه كان عبقريا حين بحث عن قوة مشتركة موحدة تقع عليها مسئولية توحيد هذه الإرادات فى اتجاه معين ، أى عن قانون عام يمكن بناء عليه جعل التاريخ بيانا منتظما لتقدم مجتمعات بأسرها ؛ بيد أنه فى النهاية فشل فى أن يكون عقليا وانتهى إلى روحانية مبهمة ؛ فالفكرة الهيجلية ، إذا لم تكن مجرد عبارات معادة لصياغة ما أرادت أن تفسره مجرد صياغة أخرى ، فهى ليست سوى اسم آخر لإله المسيحية الشخصى ، ومن ثم فقد خرجت بالموضوع عن نطاق المناقشة العقلية .

وكانت خطوة فيورباخ التالية أن أعلن أن القوة المحركة فى التاريخ ليست قوة روحية ، ولكنها مجموعة الظروف المادية التى تدفع الناس الذين يعيشون فى فترة معينة إلى التفكير والتصرف على نحو ما يفكرون ويتصرفون ، وإن كان ضيقهم المادى قد جعلهم يطلبون العزاء فى عالم مثالى لا مادى ، ينعمون فيه بالنعيم الأبدى فى الحياة الأخرى ثوابا على ما يلقونه من شقاء فى هذه الحياة . فإذا أريد لهذا الوهم أن يفتضح أمره فلابد من تحليله على ضوء الأوضاع المادية السيئة التى أدت إلى ظهوره . إن كراهية فيورباخ للفلسفات (التفوقية) Tsanscendentalism مثله فى ذلك مثل « هولباخ » ومثل مؤلف « الرجل الآلة » ، قد دفعته فى كثير من الحالات إلى البحث عن أكثر التفسيرات بساطة وأقلها تهذيبا على ضوء اعتبارات

مادية بحتة . إن عبارة « الإنسان هو ما يأكل » (man is what he eats) إن هى إلا صورته الكاريكاتورية للهيجيلية . فنظريته التى تقول إن التاريخ البشرى إنما هو تاريخ الأثر الحاسم للبيئة المادية على الناس فى المجتمع ؛ ومن ثم فإن معرفة القوانين المادية وحدها هى التى تستطيع أن تجعل الإنسان سيد هذه القوى لأنها تساعده على تكييف حياته تكييفا شعوريا مع هذه القوى .

وقد تركت مادية « فيورباخ » ولا سيما نظريته التى تذهب إلى أن جميع « الأيديولوجيات » سواء أكانت دينية أم دنيوية كثيرا ما تكون محاولات للتعويض المثالى عن الشقاء الحقيقى — أثرا عميقا فى كل من «ماركس» و«إنجلز» ، كما فعلت الشيء نفسه فيما بعد فى لينين الذى قرأها إبان فترة نفيه فى سيبيريا . وإذا كان بحث « فيورباخ » بحثا فجا ركيكا لا يعتمد على أساس تاريخى سليم ، فقد كان من غير شك بحثا رصينا منعشا بسبب طريقته الواقعية بعد سخافات الهيجيلية التى انطلقت من عقالها خلال العقد الثالث من القرن التاسع عشر حتى أصبح لا ضابط لها . ومن ثم فقد أثار هذا الكتاب «ماركس» ، الذى كان لا يزال تحرريا ومثاليا فى تلك الفترة ، وأخرجه من جموده العقائدى . فقد ظهر له أن « الفكرة » الهيجيلية ليست سوى تعبيرات لا معنى لها : وبدا له الآن أن « هيجل » شيد صرحا جميل المنظر من ألفاظ وضعت بعضها فوق بعض ، وأن من واجب جيله ، المسلح بالأسلوب الهيجيلى الثمين ، أن يقيم مكانه صرحا من الاصطلاحات الرمزية التى تعبر عن أشياء حقيقية فى الزمان والمكان فى علاقاتها التجريبية الملحوظة بعضها ببعض . وكان ماركس لا يزال فى ذلك الوقت يؤمن بصلاحية الالتجاء إلى العقل ويعارض الثورة العنيفة . لقد كان مثاليا منشقا ، ولكنه ظل مع ذلك مثاليا : وكان قد حصل فى السنة السابقة على درجة الدكتوراه من جامعة تينا برسالة تقليدية بحثه عن أوجه الخلاف بين « ديموقريط » و « أبيقور » ، ذهب فيها بالضرورة إلى أن الاثنين يعتبران روادا لهيجل ، ودافع فيها عن مادية أكثر غموضا بكثير من تلك التى هاجمها هو نفسه فيما بعد واعتبرها هراء مثاليا نموذجيا .

وفى أبريل سنة ١٨٤٣ تزوج ماركس من « جنى فون وستفالن » ضد رغبة الجزء الأكبر من عائلتها . ولم يؤد اعتراض هذا الفريق إلا إلى زيادة ولاء هذه

الشابة التى كانت تتمتع بخيال عاطفى عميق ؛ فقد تحول كيانها تحت تأثير الحياة الجديدة التى تكشفت لها على يد زوجها ، فكرست وجودها كله لحياته وعمله . لقد كان زواجهما زواجا سعيدا ، إذ أحبته وأعجبت به ووثقت به ، وخضعت لسيطرته العاطفية والعقلية عليها خضوعا كاملا ، وكان هو يعتمد عليها بلا تردد فى جميع أوقات الشدة والكوارث، وظل طول حياته يفخر بجمالها وبمنبتها وبذكائها . وقد كتب الشاعر « هاين » ، الذى كان يعرفهما معرفة حقة فى باريس ، أبياتاً جميلة يعترف فيها بجاذبيتها وذكائها . وفى السنوات التالية ، عندما انحدر بهما الحال إلى الفقر المدقع ، أظهرت شجاعة أدبية فى المحافظة على كيان أسرتهما وبيتها ، فكانت العامل الذى ساعد زوجها على الاستمرار فى عمله.

وقررا معا أن يهاجرا إلى فرنسا ، فقد كان يعلم أنه يستطيع فيها أن يسهم بنصيب مبتكر فى القضايا المثيرة التى كانت منتشرة فى ذلك العهد ، بينما يستحيل عليه أن يتحدث بصراحة فى أى موضوع جدى وهو فى ألمانيا . ولم يكن هناك ما يقعده عن الهجرة ؛ فوالده كان قد توفى ، وعائلته لم تكن تحظى بشىء من عنايته ، ولم يكن له مورد مال ثابت فى ألمانيا ، وبدا له زملاؤه فى برلين وقد أضحوا مجموعة من المهرجين الفكريين الذين يريدون تغطية تفكيرهم العاجز المرتبك عن طريق الالتجاء إلى العبارات العنيفة ، وإلى السلوك الماجن فى حياتهم الخاصة . وكان ماركس يكره شيئين طوال حياته كراهية شديدة ، الحياة غير المنظمة والتظاهر المسرحى . فقد بدا له أن الحياة البوهيمية وتحدى الأوضاع التى تعارف عليها الناس عمدا أمر لا يخرج عن أن يكون عربدة تافهة تتضمن اعترافا بهذه القيم الكاذبة نفسها ، وتوكيدا لها عن طريق الإمعان فى الاحتجاج عليها ، ومن هنا كان الظهور بمظهر الابتذال .

وكان « ماركس » لايزال يحـــترم « كوبن » ولكن صلته الشخصية به كانت قد انقطعت تماما ؛ وكوّن صداقة جديدة فاترة مع صحفى موهوب من ساكسونيا اسمه « أرنولد روج » يصدر مجلة راديكالية دورية كان «ماركس» قد اشترك فى تحريرها . وكان « روج » رجلا متعاظما عصبيا ورومانسيا متذمرا تحول شيئاً فشيئاً بعد سنة ١٨٤٨ إلى قومى رجعى فى قوميته ، ولكنه مع ذلك

كان كاتبا ذا أفق أوسع من كثير من زملائه الراديكاليين فى ألمانيا ، وله ذوق فنى أرسخ قدما منهم ، كما كان يقدر مواهب الرجال الذين بلغوا شأوا أعظم مما بلغ ، مثل «ماركس» و«باكونين» ، ممن اتصل بهم. ورأى «روج» أنه لن يستطيع الاستمرار فى إصدار صحيفة على أرض ألمانية بين أنياب الرقباء ورجال الشرطة فى ساكسونيا ، فقرر أن ينتقل بها إلى باريس . ودعا ماركس إلى معاونته فى إصدار صحيفة جديدة يكون اسمها « دويتش فرانسوانج ياربوخر » ؛ وقبل ماركس الدعوة على الفور . وكتب إلى « روج » فى صيف سنة ١٨٤٣ يقول : « إن الجو هنا خانق لا يحتمل فى الواقع . فليس من اليسير على المرء أن يتذلل حتى من أجل الحرية ؛ لقد سئمت من النفاق والغباء ، ومن فظاظة الموظفين الرسميين ، وتعبت من طأطأة الرأس وابتكار العبارات التى لا خطر منها ولا ضرر من ورائها . إن ألمانيا لم يعد فيها ما أستطيع أن أفعله ... إن المرء لا يستطيع فيها إلا أن يكون غير أمين مع نفسه » . وغادر ماركس الأرض البروسية فى نوفمبر سنة ١٨٤٣ فوصل إلى باريس بعد ذلك بيومين . وكانت شهرته قد سبقته هناك إلى حد ما ؛ ففى ذلك الوقت كان قد عرف عنه أنه صحفى متحرر ذو قلم حاد أرغم على مغادرة ألمانيا لأنه دعا بعنف إلى الإصلاح الديموقراطى . وإن هما إلا عامان بعد ذلك حتى قد أصبح معروفا لدى الشرطة فى دول كثيرة بأنه شيوعى ثورى لا يقبل مساومة ، وأنه عدو لدود للتحررية المصلحة وزعيم معروف لحركة هدامة لها شُعب فى دول عديدة . لقد كانت السنوات من ١٨٤٣ — ١٨٤٥ هى أكثر سنى حياة ماركس خطورة وأبعدها أثرا ؛ ففى باريس مر بمرحلة تكوينه الفكرى النهائى ، وفى نهايتها كان قد بلغ مكاناً شخصيا وسياسيا واضحا ؛ كرس نفسه بقية حياته لتنميته وتحقيقه عمليا .

الفصل الخامس

باريس

« سيأتى وقت لن تشرق فيه الشمس إلا على عالم من الرجال الأحرار الذين لايعترفون بسيد سوى عقولهم ، وعندئذ لن يوجد طغاة أوعبيدأوكهنة ، أو أدوات أولئك من الأغنياء والمنافقين،إلا فى كتب التاريخ أو على خشبة المسرح »

« كوندورسيه »

— ١ —

كان الغليان الاجتماعى والسياسى والفنى الذى شهدته باريس فى منتصف القرن التاسع عشر ظاهرة لم يعرف لها مثيل فى التاريخ الأوروبى . فلقد اجتمع حشد عجيب من الشعراء والرسامين والموسيقيين والكتاب والمصلحين وأصحاب النظريات فى العاصمة الفرنسية ، وكانت قد أصبحت فى ظل ملكية « لويس فيليب » المتسامحة فى ذلك الوقت ، ملاذا للمنفيين والثوريين من بلاد عديدة . كانت باريس قد عرفت منذ أمد طويل بأنها بلد واسع الصدر يرحب برجال الفكر ؛ وقد شهد العقدان الرابع والخامس من القرن الماضى فترة من الرجعية العميقة فى سائر أنحاء أوروبا ، فتدفق الفنانون والمفكرون فى أعداد متزايدة نحو الضوء ، هربا من الظلام المحيط بهم ، فوجدوا فيها ترحيبا صادقاً ، بل وحماسيا ، ومنحوا حرية ارتياد « الصالونات » الاجتماعية والفنية التى ظلت قائمة بعد عودة الملكية ، ولم يصادفوا ذلك الضغط الذى كان يرغمهم على الانطواء فى ثقافتهم المحلية ، كما كانت الحال فى برلين ، أو يتركوا وشأنهم فى فتور يجتمعون فى جماعات صغيرة منعزلة ، كما كانت الحال فى لندن . فلقدكان الجو الفكرى الذى يعيش فيه هؤلاء الرجال فى باريس ، يتحدثون ويكتبون إن شاءوا ، جوا مثيرا تسوده المثالية . وقدجمع بين أفراد هذا المجتمع المشاغب المتنافر ،

وأنشأ بينهم إحساسا من التضامن العاطفى البهيج ، مزاج مشترك من الاحتجاج المتطرف ضد النظام القديم ، وضد الملوك والطغاة ، وضد الكنيسة والجيش ، وفوق كل شيء آخر ، ضد الجماهير الماجنة الغبية وضد العبيد والظالمين من أعداء الحياة وأعداء حقوق الشخصية الإنسانية الحرة . كانت عواطف الناس عميقة متغلغلة ، وكان الأفراد يعبرون عن مشاعرهم ومعتقداتهم فى عبارات حماسية ، وتدوى الهتافات الثورية والإنسانية يطلقها رجال كانوا على استعداد للتضحية بحياتهم فى سبيلها ؛ لقد كانت هذه الفترة فترة انتقلت فيها الأفكار والنظريات والمشاعر الشخصية على نطاق دولى أوسع مما كان لها فى أية فترة سابقة . فقد عاش فى هذه الفترة جمع من الرجال احتشدوا فى مكان واحد ، يجـــذب بعضهم بعضا ، وينفر بعضهم من بعض ، ويؤثر بعضهم فى بعض ، رجال ذوو مواهب مختلفة متباينة تستلفت الأنظار أكثر من أى عهد مضى منذ عصر النهضة . وكان يفد إلى باريس كل عام منفيون جدد جاءوا إليها من أرض الامبراطور وأرض القيصر . وتكونت فيها مستعمرات من الإيطاليين والبولنديين والهنغاريين والروس والألمان ، ازدهرت كلها فى جو عام من العطف والإعجاب ، وألف أعضاؤها لجاناً دولية ، وانطلقوا يحررون النشرات ، ويخطبون فى الاجتماعات ، ويشتركون فى المؤامرات ، ولكنهم فوق كل شيء جعلوا يتحدثون ويتناقشون فى المساكن والطرقات والمقاهى والاجتماعات العامة ؛ كان الجو كله تسوده الحماسة البهيجة والتفاؤل.

كان الكتاب الثوريون والسياسيون الراديكاليون فى ذلك الوقت قد بلغوا ذروة الأمل والقوة ، فلم تكن مثلهم العليا قد تحطمت بعد ، ولم تكن العبارات الثورية قد غرقت بعد فى ظلام كارثة سنة ١٨٤٨ . ولم يحدث فى أى وقت مضى أن وجد مثل هذا التضامن الدولى فى سبيل قضية الحرية : كان الشعراء والموسيقيون ، والمؤرخون وأصحاب النظريات الاجتماعية ، يحسون جميعاً أنهم لا يكتبون لأنفسهم ، بل يكتبون من أجل البشرية جمعاء . نعم ففى سنة ١٨٣٠ كان قد تحقق انتصار واضح ضد قوى الرجعية . فاستمروا الآن يعيشون على ثمرات هذا الانتصار ؛ وتجاهل معظم المتحررين الرومانسيين إخماد مؤامرة « بلانكى » فى عام ١٩٣٩ باعتبارها حدثاً تافهاً لا يستحق الذكر ، وإن لم تكن فى الواقع

حادثا منعزلا . ذلك أن النشـاط الفنى العصبى المتأجج كان يجرى فى ظل تقدم مالى وصناعى محموم يصحبه فساد لارادع له ، تكونت فيه ثروات فجائية ثم لم تلبث أن ضاعت ثانية فى غمار أحداث واسعة من الإفلاس المالى . وكانت تتولى الحكم فى البلاد حكومة من الواقعيين الذين تبددت أوهامهم ، وتسيطر عليها الطبقة الجديدة من كبار رجال المال وأقطاب السكك الحديدية وعظماء رجال الصناعة الذين يتحركون فى تيه من المؤامرات والرشاوى يمسك بخيوطها مضاربون مريبون ومغامرون أفاقون يتحكمون فى مصائر فرنسا الاقتصادية . وكانت إضرابات العمال الصناعيين وشغبهم فى الجنوب تدل على حالة من القلق والهياج ترجع إلى السلوك الذى لارحمة فيه ولا وازع لبعض أصحاب الأعمال بالذات ، بقدر ماترجع إلى الثورة الصناعية التى كانت تغير معالم البلاد بصورة أسرع وأقسى مما حدث فى انجلترا رغم أنها كانت على نطاق أضيق منها بكثير . إن التذمر الاجتماعى الحاد مع إدراك الناس عامة لضعف الحكومة وعدم أمانتها ، بالإضافة إلى الشعور العام بالأزمة والتعبير الذى جعل الأمر يبدو وكأن أى شىء أصبح فى متناول أى شخص لديه الموهبة الكافية والنشاط،وعدم التقيد بأى وازع يردعه ، كل ذلك أشعل أخيلة الناس وأدى إلى ظهور جماعة من الانتهازيين الطموحين الذين لايرحمون ، من ذلك الطراز الذى نجده فى صفحات « بلزاك » وفى قصة « ستندال » التى وضعها «لوسيان ليوين»ولم يكملها . بينما سمح تهاون الرقابة والتسامح الذى مارسته « ملكية يولية » بظهور ذلك الضرب من الصحافة السياسية الحادة العنيفة ، الذى كان يسمو أحيانا إلى حد البلاغة النبيلة ، ، فى وقت كانت للكلمة المطبوعة فيه قدرة أكبر على التأثير فى الناس ، فأثار العقول والعواطف وعمل على زيادة الثرثرة فى جو مكهرب مشحون بعوامل الإثارة. إن المذكرات والخطابات التى خلفها الشعراء والرسامون والروائيون والموسيقيون من أمثال « موسيه » و « هاين » و « ديلاكروا » و « فاجنر » و « برليوتز » و « جوتييه » و «هرتزن» و « تورجين » و « فيكتور هيجو » و « جورج ساند » و « ليست » ، تحمل إلينا بعض ذلك السحر الذى ساد تلك السنوات التى تميزت بالإحساس الواعى الحاد وبالحيوية الفائقة فى مجتمع زاخر بالعبقرية يشيع فيه الاهتمام الشديد بتحليل الذات — تحليلا مريرا حقا ، ولكنه نخور بجدته وقوته — كما يشيع فيه تحرر

مفاجىء من الأغلال القديمة وإحساس جديد باتساع المجال أمام المرء لكى يتحرك فيه ويبدع . ثم ما أن حل عام ١٨٥١ حتى كان هذا الجو قد انقضى . ومع ذلك ، فإن أسطورة عظيمة كانت قد خُلقت ، أسطورة ظلت حية حتى يومنا هذا ، وجعلت من باريس ، فى نظرها هى وفى نظر الناس ، رمزاً للتقدم الثورى .

على أن ماركس لم يذهب إلى باريس فى طلب تجربة جديدة ، فقد كان رجلا غير عاطفى ، بل كانت له طبيعة جامدة ولم تكن البيئة لتؤثر فيه كثيرا ، فقد كان يفرض أسلوبه الذى لا يتغير على كل موقف وجد نفسه فيه : كان رجلا لا يثق فى أية حماسة،وخاصة تلك التى تغذيها العبارات النبيلة . فلم يستشعر ذلك الإحساس بالتحرر الذى استشعره معاصروه من أمثال الشاعر « هاين» والثوريين الروسيين « هرتزن » و « باكونين » الذين أعلنوا فى ألفاظ ساحرة أنهم قد وجدوا فى باريس كل ما هو جميل يدعو إلى الإعجاب فى المدنية الأوروبية كلها . لقد اختار ماركس باريس ، بدلا من بروكسل أو أية مدينة من مدن سويسرا ، لسبب عملى محدد هو أنها بدت له أكثر الأماكن ملاءمة لإصدار مجلته «الكتاب السنوى الألمانى الفرنسى »التى كان يقصد بها غير الألمان بقدر ما كان يقصد بها الألمان أنفسهم ، هذا بالإضافة إلى أنه كان لا يزال يريد جوابا على السؤال الذى لم يجد له جوابا لدى « الموسوعيين » ولا لدى «هيجل» أو « فيورباخ » ولا فى تلك الأكوام الضخمة من المؤلفات التاريخية والسياسية التى التهمها التهاما وهو يقرؤها بسرعة وبصبر لا هوادة فيه فى سنة ١٨٤٣ : ما هو السبب النهائى فى فشل الثورة الفرنسية ؟ ماهو الخطأ ، فى النظريات أو فى العمل ، الذى جعل « الديركتوار » ثم الامبراطورية ثم العودة إلى الملكية فى النهاية ممكنا ؟ ما هى الأخطاء التى يجب أن يتجنبها أولئك الذين لا يزالون ، بعد نصف قرن ، يسعون إلى اكتشاف السبيل إلى إنشاء مجتمع حر عادل؟ ألا توجد قوانين تحكم التغير الاجتماعى، لو أنها عرفت لكان من الجائز أن تؤدى إلى إنقاذ الثورة العظيمة ؟ لقد بالغ « الموسوعيون » ولاشك فى تبسيط الطبيعة البشرية عندما صوروها على أنها يمكن أن تصبح بين عشية وضحاها كاملة « العقلية » وكاملة الخير عن طريق التربية المستنيرة . كذلك لم تكن المشكلة أقرب إلى الحل بما قاله «هيجل» جواباً على هذا السؤال من أن الثورة فشلت لأن « الفكرة

المطلقة ، لم تكن قد بلغت مرحلتها الملائمة . إذ لا يوجد معيار لقياس ملاءمة المرحلة لهذا الحدث أو ذاك سوى وقوع الحدث نفسه ؛ وكذلك لم يبد له أن إحلال تلك العبارات الجديدة ، مثل تحقيق الذات الإنسانية أو العقل المتضمن أو النقد الناقد ، محل الرأى الأصلى لهيجل من شأنه أن يجعل الحالة أقرب إلى التحديد ، بل إن هذا الإحلال فى الواقع لا يضيف إليها شيئاً على الإطلاق .

وبدأ ماركس ، وقد واجهته هذه المشكلة ، يعمل على نطاق شامل بطريقته التى انفرد بها ، فدرس الوقائع وقرأ السجلات التاريخية للثورة نفسها ، كما ألقى بنفسه فى ذلك الخضم الهائل من الكتابات الجدلية التى كتبت فى فرنسا عن هذا الموضوع والموضوعات المتصلة به ، وقد أتم هذا كله بدقته المعهودة فى عام واحد . وكان ماركس منذ أيام دراسته يقضى معظم أوقات فراغه فى القراءة ، ولكن إقباله على القراءة فى باريس جاوز كل حد ؛ إذ جعل يقرأ ، كما كان يفعل أيام اعتناقه الهيجلية ، ليلا ونهارا فى سرعة محمومة ، واستنفد عددا لا حصر له من الكراسات لتدوين المستخلصات والملخصات والتعليقات المستفيضة التى اعتمد عليها إلى حد بعيد فى كتاباته التالية . وما أن انتهت سنة ١٨٤٤ حتى كان قد تعرف على المذاهب السياسية والاقتصادية لكبار المفكرين الفرنسيين والانجليز ، ودرسها على ضوء هيجليته التى كانت لا تزال قريبة من الهيجلية الأصلية ، وأخيرا كون رأيه الشخصى بأن حدد موقفه بدقة من هذين الاتجاهين المتعارضين تماما . وقد قرأ أول ما قرأ كتابات الاقتصاديين ، مبتدئاً « بكسناى » و « آدم سميث » ومنتهياً « بسيسموندى » و « ريكاردو » و « برودون » وأتباعهم . وقد ترك فيه أسلوبهم الواضح اللاعاطفى أثرا طيبا بمقارنته بعاطفية الألمان وبلاغتهم اللفظية المشوشة ؛ فقد جذبه ذلك ، وامتزجت الحكمة العملية بتوكيد البحث التجريبى القائم على الفروض العلمية الحاذقة الجريئة ، ودعم ميله الطبيعى إلى تجنب كل صور الرومانسية وإلى الاقتصار على قبول تلك التفسيرات للظواهر التى يتبع فى بحثها منهج علماء الطبيعة ، والتى يمكن التحقق من صحتها بالدليل القائم على الملاحظة العلمية . فلقد بدأ تأثير الكتاب الاجتماعيين الفرنسيين والكتاب الاقتصاديين الانجليز يبـــدد ضباب الهيجيلية الذى أحاط به من كل جانب .

وعقد ماركس مقارنة بين الحالة العامة فى فرنسا وبين الحالة فى بلاده فأثر فيه كل الأثر مالاحظه فى الأولى من مستوى أعلى بكثير فى نواحى الذكاء والقدرة على التفكير السياسى : فكتب يقول فى سنة ١٨٤٣ « إن كل طبقة فى فرنسا بها مسحة من المثالية السياسية ، وتحس بأنها تمثل الضرورات الاجتماعية العامة ... بينما فى ألمانيا ، حيث الحياة العملية لا ذكاء فيها والذكاء غير عملى ، لا يدفع الناس إلى الاحتجاج سوى الضرورة المادية ، سوى القيود التى يرسفون فيها بالفعل ... ، بيد أن الطاقة الثورية والثقة فى النفس لا تكفيان وحدهما لكى تكون طبقة من الطبقات قادرة على تحرير المجتمع — بل لابد أن تربط بين طبقة أخرى وبين مبدأ الاضطهاد ... كطبقة النبلاء ورجال الدين فى فرنسا . غير أن هذا التوتر العنيف لا وجود له فى ألمانيا ... فليس هناك سوى طبقة واحدة مظالمها هى مظالم المجتمع كله — تلك هى طبقة البروليتاريا ». ويضيف ماركس أن الألمان هم أكثر الشعوب الغربية تخلفا ، حتى ليمكن تبين ماضى انجلترا وفرنسا بكل دقة فى حاضر ألمانيا : ومن ثم فإن التحرر الحقيقى للألمان ، الذين يعدون بالنسبة للشعوب الأكثر تقدما مثل «البروليتاريا» بالنسبة للطبقات الأخرى ، لابد بالضرورة أن يجرّ وراءه إلى تحرر المجتمع الأوروبى كله من الاضطهاد السياسى والاقتصادى .

بيد أنه إذا كان ماركس قد تأثر بالواقعية السياسية لدى هؤلاء الكتاب ، فإن نقص الإحساس التاريخى عندهم كان صدمة له لا تقل عن ذلك أثراً . وبدا له أن ذلك هو وحده السبب الذى جعل « انتقائيتهم »[1] السهلة السطحية أمرا ممكنا ، تلك القدرة الغريبة على إدخال التعديلات والإضافات على نظمهم دون حرج فكرى وفى غير مبالاة . وبدا له هذا التسامح نوعا من النقص إما فى الجدية وإما فى الأصالة . فلقد كانت آراؤه هو دائماً عنيفة محددة المعالم ومستمدة من قضايا لا تسمح بأى غموض فى نتائجها ؛ ومن ثم فقد بدا له أن تلك المرونة الفكرية لا يمكن أن يكون مردها إلا إلى عدم التأكد الكافى من الإطار الصارم للتطور التاريخى . وبدا له بصفة خاصة أن ماذهب إليه الاقتصاديون الكلاسيكيون ،

(١) eclecticism أسلوب فى تكوين المذاهب بانتقاء ما يصلح فى نظر المنتقى من المذاهب الأخرى لتكوين مذهب أو رأى جديد .

من افتراض أن الأنماط المعاصرة تصلح لكل الأوقات وفى جميع الأماكن ، سخيف كل السخف . وكما قال إنجلز فيما بعد : « إن الاقتصاديين فى الوقت الحاضر يتحدثون كما لو أن ريتشارد قلب الأسد كان فى وسعه ، لو أنه عرف شيئاً من الاقتصاد ، أن يوفر ستة قرون من الأخطاء البشعة بأن يشيد حرية التجارة بدلا من أن يضيع وقته فى الحروب الصليبية ، وكما لو كانت جميع الأنظمة الاقتصادية السابقة سلسلة من الأخطاء التى تتقارب فى اتجاهها من الرأسمالية ، وينبغى الحكم عليها وتبويبها على أسس الرأسمالية » . ويرى ماركس أن هذا العجز عن تفهم الحقيقة الثابتة ، وهى أنه لا يجوز تحليل كل فترة إلا على ضوء مفهوماتها وأنماطها الخاصة بها ، هو المسئول عن الاشتراكية الحالمة وعن تلك الخطط المنمقة التى تبين أنها ليست سوى صور مثالية للمجتمع البرجوازى أو الإقطاعى بعد أن طُهر من نواحيه « السيئة » ؛ بينما السؤال الذى ينبغى أن يسأل هو ماذا عسى التاريخ يسمح بحدوثه ، لا ماذا عسى يحب الإنسان أن يحدث ، وما الاتجاهات الحاضرة التى قدر لها أن تعيش ، وما تلك التى قدر لها أن تفنى ؟ فعلى نتائج هذا المنهج التجريبى البحت وحدها يجب أن يقيم الإنسان حججه .

ومع ذلك فإن ماركس وجد فى الاتجاه الأخلاقى لهؤلاء الكتاب ما يتفق وميوله ، فهم أيضاً لم يثقوا فى البصيرة الفطرية والالتجاء إلى المشاعر اللذين يتخطيان حدود المنطق والملاحظة التجريبية : وهم أيضاً رأوا فى ذلك الخط الأخير للدفاع عن الرجعية واللاعقلية ؛ وهم أيضاً كانوا أعداء ألداء للكهنوتية وللحكم المطلق . غير أن كثيرا منهم كانت لهم آراء قديمة عفى عليها الدهر عن التناسق الطبيعى بين المصالح البشرية أو آمنوا بقدرة الفرد على تحقيق سعادته وسعادة الآخرين إذا تحرر من تدخل الدولة والملوك ، إلا أن تربية ماركس الهيجيلية الأولى جعلت مثل هذه الآراء غير مقبولة لديه إطلاقا ؛ ومع ذلك فإن هؤلاء الكتاب كانوا ، على أية حال ، أعداء لأعدائه ، يقفون إلى جانب التقدم ، ويكافحون فى سبيل سير العقل قدما .

— ٢ —

إذا كان ماركس قد أخذ عن هيجل وجهة نظره الخاصة بالبناء التاريخى — أى العلاقات الشكلية بين العناصر التى يتكون منها التاريخ البشرى — فإنه قد استمد معرفته عن هذه العناصر نفسها من « سان سيمون » وتلامذته ، خاصة « تيرى » و « ميتيه » . لقد كان « سان سيمون » مفكرا ذا آراء جريئة وأصيلة : فهو أول كاتب أكد أن نمو العلاقات الاقتصادية هو العامل الحاسم فى التاريخ — ويكفيه أنه فعل ذلك فى العصر الذى عاش فيه ليكون جديراً بالخلود — وحلل التطور التاريخى على أنه صراع دائم بين « طبقات اقتصادية » بين أولئك الذين — فى أى وقت بعينه — يملكون المصادر الاقتصاديه الرئيسية للمجتمع ، وأولئك الذين لايتمتعون بهذه الميزة ويعتمدون على الأولين فى الحصول على معاشهم . وتبعاً لما يقول «سان سيمون» فإنه نادرا ماتكون الطبقة الحاكمة قادرة أو غير متحيزة بدرجة كافية لأن تستعمل مصادر ثروة الأمة التى تحت يدها استعمالا رشيدا، أوأن تقيم نظاما يستطيع فى ظله أكثرالناس قدرة على تحقيق ذلك أن يوجهوا مصادرالمجتمع هذه الوجهة وينموها . كما أن هذه الطبقة ، فى نظره ، نادرا ماتكون مرنة بدرجة تكفى لأن تكيف نفسها وتكيف النظم التى تحت سلطانها مع الظروف الاجتماعية الجديدة التى تجلبها تصرفاتها هى نفسها . ومن ثم فهى تميل إلى اتباع سياسة أنانية قصيرة النظر ، وإلى تكوين طائفة مغلقة ، وتركيز الثروة الموجودة فى أيد قليلة ، وإلى استعمال ماتحصل عليه من نفوذ وقوة بهذه الطريقة فى الهبوط بالغالبية التى لا تملك شيئا إلى حالة من العبودية الاجتماعية والاقتصادية : وطبيعى أن يزداد الرعايا الكارهون تذمراً وأن يكرسوا حياتهم لخلع القلة الطاغية ، فإذا كانت الظروف مواتية نجحوا مع الوقت . غير أن طول عهدهم بالعبودية يشيع فيهم الفساد فيصبحون غير قادرين على تصور مثل عليا تعلو على مثل سادتهم ، فإذا ما آلت إليهم السلطة استخدموها بصورة لاتقل سخافة وظلما عن مضطهديهم السابقين ؛ وتكون نتيجة تصرفاتهم بدورها قيام «بروليتاريا» جديدة ، وهكذا يستمر الصراع فى صعيد جديد . والتاريخ البشرى ما هو إلا تاريخ مثل هذه الصراعات التى يرجع السبب النهائى فيها — كما كان آدم سميث وفلاسفة القرن

الثامن عشر من الفرنسيين يقولون — إلى أن السادة والرعايا على السواء قد عميت أبصارهم عن أن يدركوا توافق المصالح العليا لكل منهما فى ظل توزيع أكثر تعقلا للمصادر الاقتصادية ، وبدلا من ذلك تحاول الطبقات الحاكمة أن توقف كل تغيير اجتماعى ، وتحيا حياة الكسل ، والمضيعة ، وتقف حجر عثرة فى سبيل كل تقدم اقتصادى يجئ فى صورة مخترعات فنية ، لو أحسنت تنميتها لأدت بما تحدثه من فيض عميم وخير لاحد له يوزع على أسس علمية إلى سعادة الجنس البشرى ورخائه الأبدى . وقد اتخذ « سان سيمون » ، الذى كان مؤرخا يفضل كثيرا سابقيه الموسوعيين ، وجهة نظر تطورية حقيقية عن المجتمع البشرى ، ونظر إلى الأحقاب السابقة ، لا على ضوء بعدها عن المدنية الحاضرة ، بل على ضوء ملاءمة أنظمتها للحاجات الاجتماعية والاقتصادية فى عصرها ؛ وكانت نتيجة ذلك مثلا أن جاء رأيه عن العصور الوسطى أكثر فهما وعطفاً بكثير من آراء معظم معاصريه من المتحررين . على أن أى نظام اجتماعى يتجاوب مع الحاجات الحقيقية لعصره قد ينزع إلى عرقلة الحركات فى عصر يليه ، إذ يصير قيدا تحفى الطبقات ، التى يحميها وجوده ، طبيعته عامدة . فالجيش والكنيسة ، وهما عنصران حيويان فى أوضاع العصور الوسطى ، أصبحا الآن رواسب بالية يقوم بوظائفها فى المجتمع الحديث أصحاب البنوك ، والصناعيون ، والعلماء . وترتب على ذلك أن القس والجندى وصاحب الدخل الثابت لا يمكن أن يظلوا باقين إلا على أنهم طفيليات على المجتمع وكسالى ولا عمل لهم ، يضيعون خيراته ويعرقلون تقدم الطبقات الجديدة ، ومن ثم ينبغى التخلص منهم ، وأن يوضع بدلا منهم على رأس المجتمع خبراء نشيطون ومهرة يختارون لقدراتهم الإدارية ؛ فالحكومة يجب أن تتكون من رجال المال والمهندسين ومنظمى المشروعات الصناعية والزراعية الضخمة المركزة . كما يجب أخيرا إلغاء قوانين الوراثة التى تؤدى إلى تفاوت فى الثروات لا يقوم على أساس الجدارة والاستحقاق ؛ بيد أن ذلك كله يجب بصفة عامة ألا يمتد بأية حال إلى الملكية الخاصة ، فكل إنسان له الحق فى ثمرات عمله الشخصى . وقد آمن «سان سيمون» إيماناً راسخاً ، مثله فى ذلك مثل صانعى الثورة الفرنسية ، ومثل « فورييه » و « برودون » من بعدهم ، بأن الملكية الخاصة هى فى نفس الوقت الباعث الوحيد للعمل النشيط ، وأساس الأخلاق الخاصة

والعامة فى المجتمع ، ومن ثم وجب على الدولة أن تكافىء مديرى البنوك ومؤسسى الشركات ورجال الصناعة والمخترعين مكافآت تتناسب مع حظهم من الكفاية ؛ حتى إذا نجح الخبراء فى تنظيم الحياة الاقتصادية للمجتمع على أساس عقلى كانت الفضيلة الطبيعية فى النفس البشرية والوئام الطبيعى بين مصالح الجميع كفيلين بأن يهيئا عدلا يعم الجميع ، ورضى ومساواة فى الفرص بين جميع الناس على السواء .

لقد عاش « سان سيمون » فى وقت كانت آخر آثار الإقطاع فى أوروبا الغربية فى سبيلها إلى الاختفاء منه نهائيا أمام تقدم صاحب المشروعات البورجوازى ووسائله الآلية . وقد كانت له ثقة لاحدّ لها فى الإمكانيات الهائلة للاختراع الفنى وفى آثاره الطبيعية الطيبة على المجتمع البشرى . فقد رأى فى الطبقة الوسطى الناهضة رجالا أكفاء وعلى قدر كبير من الحيوية يحدوهم الإحساس بالعدالة والإيثار غير المغرض ،ويعرقل مساعيهم عداوة الارستقراطيين العمياء ، من ملاك الأراضى ورجال الكنيسة الذين يرتجفون خوفاً على امتيازاتهم وممتلكاتهم فأصبحوا أعداء لكل عدالة ولكل تقدم علمى أو معنوى .

ولم يكن هذا الاعتقاد فى ذلك الوقت بالسذاجة التى يبدو بها الآن ، فكما قال ماركس نفسه فيما بعد : إن طليعة الطبقة الناهضة فى لحظات الصراع الفعلى من أجل التحرر الاجتماعى ترى بطبيعة الحال أن قضيتها هى قضية الكتلة البشرية المضطهدة كلها ، وتحس بأنها المدافع الذى لا مصلحة له عن مثل أعلى جديد ؛ بل هى فى الواقع كذلك إلى حد ما ، فهى تقاتل من أقصى المراكز الأمامية دفاعا عن الجبهة التقدمية . وقد كان سان «سيمون» أفصح الدعاة إلى البورجوازية الناهضة فى أكثر حالاتها كرما ومثالية ، وكان طبيعيا أن يجعل للصناعة والابتكار والقدرة على التخطيط على نطاق واسع المقام الأول . ولكنه وضع أيضا بصورة محددة نظرية صراع الطبقات وهو لا يدرى كيف سيُستغل هذا الجزء من مذهبه فى يوم من الأيام . وكان هو نفسه ارستقراطيا من ملاك الأراضى فى القرن الثامن عشر أنزلت به الثورة الفرنسية الخراب وارتأى لنفسه أن ينضم إلى القوة المتقدمة ، حتى يستطيع أن يفسر ، وأن يبرر ، ما أحاط بطبقته من اضطهاد . وكان أشهر منافسيه من الأيديولوجيين، وهو شارلس فورييه ، تاجراً متنقلا عاش فى باريس

خلال السنوات الأولى من القرن الجديد ، عندما أخذ رجال المال والصناعة ، الذين كان «سان سيمون» قد عقد عليهم كل آماله ؛ يعملون على زيادة حدة العداء بين الطبقات بإنشائهم مشروعات احتكارية شديدة التركيز ، بدلا من أن يعملوا على التوفيق بين فئات المجتمع . وقد استطاعوا عن طريق السيطرة على الائتمان ، واستخدام الأيدى العاملة على نطاق واسع لم يسبق له مثيل ، أن يحققوا إمكانية الإنتاج والتوزيع بالجملة ، وبذلك دخلوا فى منافسة مع الصناع وذوى المهن الصغار فى ظروف غير متكافئة ، فجعلوا يطاردونهم من السوق المفتوحة بطريقة منتظمة ، ثم أخذوا أبناءهم للعمل فى مصانعهم ومناجمهم . وكانت النتيجة الاجتماعية للثورة الصناعية فى فرنسا أنها أوجدت انشقاقا وإحساسا متواصلا بالمرارة بين البورجوازيين « الصغار » والبورجوازيين « الكبار » ، وهى حالة تسيطر على حياة البلاد منذ ذلك الوقت . وقد هاجم «فورييه» ، وهو ممثل أنموذجى للطبقة التى لحقها الخراب ، بشدة ومرارة الزعم القائل بأن الرأسماليين هم الفئة التى قدر لها أن تنقذ المجتمع . وكان معاصره الذى يكبره سنا ، الاقتصادى السويسرى «سيسموندى» ، قد أوضح — وساق كمية هائلة من الأدلة التاريخية دفاعا عما يقول فى وقت كان الأمر يحتاج فيه إلى ما يشبه العبقرية لاكتشاف ذلك — وجهة نظره التى ذهب فيها إلى أنه بينما حدثت جميع الصراعات الطبقية السابقة نتيجة لقلة البضائع فى العالم ، فإن اكتشاف وسائل الإنتاج الآلية الحديثة وما سوف يترتب على ذلك من غمر العالم بوفرة زائدة سيؤدى ، إذا لم يوقف عند حده ، إلى صراع طبقى تبدو جميع الصراعات السابقة بالنسبة إليه هنة لا قيمة لها ؛ وأن الحاجة الماسة إلى تسويق الإنتاج المتزايد باستمرار ستؤدى إلى منافسة مستمرة بين الرأسماليين المتنافسين الذين سيضطرون بطريقة آلية إلى خفض الأجور وزيادة ساعات العمل لعمالهم لكى يحصلوا ولو على ميزة مؤقتة على منافسيهم الأكثر بطأ منهم ، وسيؤدى هذا بدوره إلى سلسلة من الأزمات الاقتصادية الحادة التى تنتهى بفوضى اجتماعية وسياسية ، بسبب الحرب الضروس بين جماعات الرأسماليين . ومثل هذا الفقر المصطنع الذى يزداد بنسبة مباشرة مع اطراد زيادة المنتجات ، وهذا الامتهان البشع للحقوق الأساسية للإنسان التى قامت الثورة الكبرى فى الأصل لضمانها ، لا يمكن منعهما إلا بوساطة تدخل الدولة التى يتعين عليها أن تحد من حق تكديس

رءوس المال وأن تحد من وسائل الإنتاج . وإذا كان « سيسموندى » متحررا يؤمن بإمكان قيام مجتمع بشرى منظم يرتكز على أساس مركزى ، وتساس أموره بطريقة تقوم على العقل واقتصر فى ذلك على توصيات عامة ، فإن « فورييه » لم يثق فى أية سلطة مركزية ، وأعلن أن الطغيان البيروقراطى لابد أن ينمو ويشتد إذا كانت الوحدات الحكومية أكبر مما ينبغى ، واقترح تلافيا لذلك أن تقسم الكرة الأرضية إلى جماعات صغيرة أطلق عليها « الزمر » تحكم كل منها نفسها بنفسها، وتتحد فى وحدات أكبر فأكبر ، وتكون ملكية جميع الآلات والأراضى والمبانى والمصادر الطبيعية فيها بالمشاع . ولسوف تظل تصورات فورييه ، التى كانت مزيجا غريبا من العبقرية والشذوذ ، حتى فى أكثر حالاتها غموضا ، دقيقة ومحكمة : فهناك محطة كهربائية ضخمة تقوم بجميع العمل الآلى فى « الزمرة » ، والربح يقسم بين العمل ورأس المال والمواهب بنسبة محددة تحديدا قاطعا هى ٥ : ٣ : ٢ ، وأفراد « الزمرة » لن يعملوا سوى ساعات قليلة يوميا ومن ثم يكون لديهم الفراغ لكى يشغلوا أنفسهم بتنمية إمكانياتهم الذهنية والفنية والمعنوية إلى حد لم يعرف له التاريخ مثيلا . وتتخلل تصوراته أحياناً نزوات من الخيال مثل التنبؤ بأنه ستظهر فى المستقبل القريب سلالة جديدة من الوحوش لا تختلف عن الأنواع الموجودة ولكنها أشد منها وأكثر عددا — مثل « ضد الأسد » و « ضد الدب » و « ضد النمر » — تكون صديقة للإنسان ومتعلقة به بقدر ما كان أسلافها الحاليون أعداء متلفين ، وتقوم بكثير من الأعمال بمهارة وذكاء وبعد نظر تفتقده الآلات . ونظرية « فورييه » أكثر ما تكون تدميرا وهى فى أحسن حالاتها ، فإن الاتهامات التى تتضمنها هذه النظرية ضد الأوضاع القائمة ، وما تتسم به من سخط عميق وإحساس حقيق ببشاعة القضاء بالجملة على حياة الأفراد وحرياتهم بوساطة ذلك النظام المخيف الذى أقامه الماليون ومأجوروهم من القضاة والجنود والموظفين ، تعد أنموذجا لكل ما تلاها من هجمات على مذهب حرية التعامل « Laissy faire » المطلق : من إنذارات « ماركس » و « كارلايل » الشديدة ، إلى احتجاجات الشيوعيين والفاشيين والمسيحيين ضد إحلال صور جديدة من التمييز مكان غيرها ، إلى استعباد الفرد بوساطة الآلة نفسها التى أريد بها تحريره

إن ثورة ١٨٣٠ التى طردت شارل العاشر ووضعت لويس فيليب على العرش مكانه كانت قد أحيت اهتمام الجماهير بالمسائل الاجتماعية مرة أخرى . فقد تدفقت من المطابع خلال العقد التالى سلسلة لا نهاية لها من الكتب والمنشورات تهاجم مساوئ النظام القائم ، وتقترح جميع أنواع العلاجات ، من مقترحات « لامارتين » و « كرمييه » التحررية المعتدلة إلى مطالب « ماراست » و « لردو رولان » الأكثر راديكالية والقريبة الشبه بالاشتراكية ، إلى اشتراكية الدولة المكتملة النمو التى نادى بها « لويس بلان » ، وأخيرا إلى تلك البرامج العنيفة التى نادى بها « باربيه » و « بلانكى » اللذان دعوا فى صحيفتهما « الرجل الحر » إلى ثورة عنيفة وإلى إلغاء الملكية الخاصة . كذلك أعلن « كونسيدران » تلميذ « فورييه » أن انهيار النظام القائم فى علاقات الملكية أصبح وشيكا ؛ كما شن كتاب ذلك العهد من الاشتراكيين المعروفين ، من أمثال « بيكويه » و « لويس بلان » و « ديزامى » و « برودون » ، وكان أكثرهم استقلالا وأصالة رأى ، أقوى هجماتهم الشهيرة على النظام الرأسمالى بين ١٨٣٩ و ١٨٤٢ ، ثم تبعهم رهط من الشخصيات ، أقل قدرا ، خففوا من حدة مذاهب أولئك الكتاب وجعلوها أقرب إلى فهم الشعب . وفى سنة ١٨٣٤ نشر القس الكاثوليكى « لامينيه » كتابه الاشتراكى المسيحى « كلمات مؤمن » ، وفى سنة ١٨٤٠ ظهر « انجيل الحرية » الذى كتبه الأب « كونستان » فجاء دليلا جديدا على وجود رجال لم يستطيعوا أن يقاوموا الإغراء الشديد للنظريات الثورية الجديدة ، حتى داخل جدران الكنيسة نفسها .

وقد دل النجاح الباهر الذى لقيه كتاب « لويس بلان » « السنوات العشر » ، الذى يحوى تحليلا مريرا رائعا للسنوات من ١٨٣٠ — ١٨٤٠ ، على اتجاه الرأى العام . وبدأت الشيوعية الأدبية والفلسفية تصبح الأسلوب السائد : فقد كتب « كابيه » قصة مدينة فاضلة شيوعية لقيت نجاحا شعبيا كبيرا اسمها « رحلة إلى ايكاريا » . وبشر « بيير ليرو » بنوع من المساواة الروحانية للكاتبة « جورج ساند » ، وناقشها « هاين » بروح مشبعة بالعطف فى تعقيباته المشهورة عن الحياة الاجتماعية والأدبية فى باريس خلال فترة ملكية يوليو .

ولا يعتد بالمصير الذى لقيته هذه المحاولات فيما بعـــد ، فلقد اختفى أتباع « سان سيمون » بوصفهم ممثلين لحركة من الحركات بعد بضع سنوات من الانحلال والتفكك ، وأصبح بعضهم أقطابا فى شركات السكك الحديدية،وذوى دخول ثابتة يعيشون فى رخاء كبير ، محققين بذلك ناحية واحدة على الأقل من نبوءة أستاذهم . أما أتباع « فورييه » الذين كانوا أكثر مثالية فقد أنشأوا مستعمرات شيوعية فى الولايات المتحدة تمتع بعضها ، مثل مجتمع « أويندا » برخاء كبير وجذب انتباه بعض المفكرين والكتاب من الأمريكيين ؛ ولم يأت العقد السابع من القرن حتى كان لهم تأثير كبير عن طريق صحيفتهم « نيويورك تريبيون » .

وتعرف ماركس على هذه النظريات واختبرها على قدر استطاعته ، متوسلا إلى ذلك بدراسة تفاصيل التاريخ الاجتماعى الحديث من جميع مصادره الممكنة ، من الكتب والصحف ، وبلقاء الكتاب والصحفيين ، وقضاء أمسياته بين الجماعات الثورية الصغيرة المكونة من الصناع الألمان المتجولين التى كانت تجتمع ، بتأييد المهيجين الشيوعيين ، لتناقش شئون منظمتهم المبعثرة ولتناقش كذلك ، وبطريقة أكثر إبهاما ، إمكان إحداث ثورة فى بلادهم . واكتشف ماركس خلال أحاديثه مع هؤلاء الصناع شيئا من حاجات طبقة وآمالها ، طبقة كانت قد وردت عنها صورة تجريدية فى كتابات « سان سيمون » ، ومن تتبعوا خطاه . ولم يكن ماركس قد أعار كثيراً من الاهتمام إلى الأدوار المحددة التى قدر على البورجوازية الصغيرة والبروليتاريا أن تلعبها فى سبيل تقدم العقل وتحسين المجتمع . وكان هناك بالإضافة إلى ذلك عنصر آخر ممثل فى أولئك « الذين لا ينتمون إلى طبقة » (deelassés) ، عنصر يتكون من أشخاص بين بين ، من أعضاء فى مهن غريبة وبوهيميين وجنود متعطلين وممثلين ومفكرين ، ممن لا هم سادة ولا هم عبيد ، وهم مستقلون ومع ذلك يعيشون متأرجحين على أقصى حافة البقاء لا يصيبون من الرزق إلا ما يكاد يكفى لأودهم ، فئة لم يتبين وجودها المؤرخون الاجتماعيون إلا لماما ، ولم يحلل حياتها أحد من الكتاب أو يذكر لوجودها سبباً . وقد أدى اهتمام ماركس بالكتابات الاقتصادية للاشتراكيين ، الذين كان يتألف منهم الجناح الأيسر لحزب الإصلاح الفرنسى ، إلى تحول انتباهه إلى تلك المسائل . واستخدمه « روج » ليكتب له

مقالا فى مجلته عن « فلسـفة الحق » عند هيجل . وكتب ماركس المقال مع مقال آخر عن المشكلة اليهودية فى أوائل سنة ١٩٤٤ . وكان المقصود بمقاله عن اليهود أن يكون ردا على مقالات « برونو باور » فى هذا الموضوع ، إذ كان « باور » قد أعلن أن اليهود تخلفوا عن المسيحيين من الناحية التاريخية بمرحلة واحدة ، وأنه يجب أن يُعمّدوا قبل أن يكون من حقهم المعقول أن يطالبوا بحقوقهم المدنية الكاملة . وأعلن ماركس فى رده عليه أن اليهود لم يعودوا وحدة دينية أو عنصرية ، بل صاروا وحدة اقتصادية بحتة ، أرغمتهم معاملة جيرانهم لهم على الالتجاء إلى الربا وإلى مهن أخرى منفرة ، ومن ثم لا يمكن تحريرهم إلا إذا تحررت بقية المجتمع الأوربى ؛ وتعميدهم إنما يكون بمثابة إحلال مجموعة من الأغلال محل أخرى ؛ كما أن منحهم الحريات السياسية وحدها يكون كمن يلقى بنفسه فى أحضان دعاة التحررية الذين يؤمنون بأن هذه الحريات وحدها هى كل ما يستطيع أن يأمل فيه أى كائن بشرى ، بل هى كل ما يجب أن يحصل عليه . وإذا كان مقال ماركس عن اليهود يتسم بالخمول والسطحية فقد أظهره فى حالة مزاجية هى مما امتاز به ماركس . فلقد كان مصمما على ألا تلاحقه ، ما أمكنه ذلك ، تلك السخرية والإهانات التى ظل بعض وجهاء اليهود من جيله من أمثال « هاين » و « لاسال » و « دزرائيلى » يتلقونها طوال حياتهم . ومن ثم فقد قرر أن يقضى على المشكلة اليهودية قضاء مبرما ، فيما يتصل به ، بأن أعلن أن قضية اليهود قضية لا سند لهـا ، أثيرت لتكون ستاراً يخفى مشكلة أكثر أهمية وإلحاحا ؛ مشكلة لا صعوبة فى حلها ، ولكنها نشأت من الفوضى الاجتماعية العامة التى تقتضى علاجا ينظمها . وقد كان ماركس معمدا بوصفه لوثريا ومتزوجا من مسيحية ، كما مدّ يد المساعدة مرة للمجتمع اليهودى فى كولونيا ، ولكنه ظل طوال الجزء الأكبر من حياته متباعدا عن أى شىء يتصل ، ولو من بعيد ، بالسلالة التى ينتمى إليها ، يظهر عداء صريحا لكل أنظمتها .

أما مقاله فى نقد هيجل فقد كان أكثر أهمية : فلقد بزّ المبدأ الذى عرضه فى هذا المقال كل ما سبق له نشره من قبل ؛ إذ شرع فيه ، على حد قوله هو نفسه ، يسوى حسابه مع الفلسفة المثالية . فقد كان ذلك بداية عملية كاملة وطويلة وشاقة

ظهر فيما بعد ، عند ما بلغت ذروتها ، أنها وضعت الأسس لحركة جديدة ووجهة نظر مستحدثة ، وأنها نمت فصارت إيماناً دوجماتيا ، وخطة للعمل سيطرت على الوعى السياسى فى أوروبا حتى يومنا هذا .

باريس

— ٣ —

إذا كان ما يبغيه ماركس هو برنامج كامل للعمل يقوم على دراسة التاريخ وملاحظة الوضع المعاصر ، فلابد أنه وجد نفسه مجردا من الإحساس بالعطف نحو المصلحين والنيئين الذين كانوا يجتمعون فى «صالونات» باريس ومقاهيها عندما وصل إليها . لقد كانوا فى الواقع أكثر ذكاء وأشد إحساساً بالمسئولية وأوسع نفوذا من الناحية السياسية من فلاسفة المقاهى فى برلين ، ولكنهم مع ذلك بدوا فى نظره إما خياليين موهوبين ، مثل « روبرت أوين » ، وإما مصلحين تحرريين مثل « ليرو ـ رولان » وإما « كازينى » يجمعون بين الناحيتين فى وقت واحد ، غير مُصَدَّقين فى النهاية ، لأن يفعلوا شيئاً من أجل الطبقة العاملة ؛ وإذا لم يكونوا هذا ولاذاك فهم عاطفيون مثاليون ، ممن ينتمون إلى البورجوازية الصغيرة ، يخفون مافى نفوسهم ؛ هم أشبه بالخراف فى ثياب الذئب ، مثل « برودون » و « لويس بلان » قد يمكن تحقيق بعض مثلهم على الأقل ، وإن كانت أساليبهم التدريجية غير الثورية تدل على أنهم كانوا مخطئين كل الخطأ فى تقديرهم لقوة العدو ، ومن ثم وجبت محاربتهم بمزيد من الحزم بوصفهم الأعداء الداخليين ، الذين كثيرا ما يكونون غير شاعرين بهذا العداء للثورة . ومع ذلك فقد تعلم منهم ماركس الكثير مما لم يعترف به ، ولاسيما من « لويس بلان » الذى أثر كتابه عن تنظيم العمل، فى آراء ماركس عن تطور المجتمع الصناعى وتحليله الصحيح .

وقد اتجه ماركس أكثر ما اتجه إلى ذلك الحزب الذى أطلق على نفسه اسم الشيوعيين تمييزا لنفسه عن المعتدلين الذين أصبحوا يعرفون باسم الاشتراكيين : ولم يكن أى من الفريقين حزبا بالمعنى الحديث للكلمة ؛ فكلاهما كان يتألف من

جماعات وأفراد يرتبطون إلى بعضهم بروابط ضعيفة . وإذا كان فريق الاشتراكيين يضم غالبية من المفكرين ، فإن الفريق الآخر كان يتألف كله تقريباً من عمال المصانع وصغار الصناع ، معظمهم رجال بسطاء علوا أنفسهم بأنفسهم، ضاقت نفوسهم بما يلقونه من مظالم ، وأصبح من السهل اقتناعهم بضرورة القيام بمؤامرة ثورية تستهدف إلغاء الامتياز والقضاء على الملكية الخاصة ، وهو مذهب كان يبشر به تلميذا « بابيف » — « بلانكى » و « باربيس » اللذان اتهما بالاشتراك فى ثورة سنة ١٨٣٩ التى ولدت ميتة . وقد تأثر ماركس بصفة خاصة بقدرة « أوجست بلانكى » التنظيمية وجرأة معتقداته وعنفها ؛ ولكنه رأى أن الأفكار تنقصه ، وأن آراءه عن الخطوات التى تتخذ بعد نجاح الانقلاب شديدة الإبهام . كما وجد بين غيره من دعاة استعمال العنف اتجاها مماثلا يتسم بعدم الإحساس بالمسئولية، وكان أبرزهم الحائك المتجول « وايتلنج »، والمنفى الروسى « باكونين »، وكان ماركس يعرفهما معرفة طيبة فى ذلك الوقت . وقد بدا له أنه ليس من بين الثوريين الذين قابلهم فى باريس سوى شخص واحد أظهر فهما حقيقيا للموقف . كان هذا « فردريك إنجلز » وهو راديكالى ألمانى ثرى وابن أحد أصحاب مصانع القطن فى « بارمن » . وقد تقابلا فى باريس بمناسبة نشر مقالات اقتصادية بقلم « إنجلز » فى صحيفة ماركس . وكان اللقاء حاسما بالنسبة للاثنين ؛ فقد كان بداية لصداقة طويلة غريبة بينهما ، وتعاون استمر بقية حياتهما .

وقد بدأ «إنجلز» حياته شاعراً وصحفياً راديكاليا ثم أنهى حياته ، بعد موت ماركس ، زعيما معترفا به للاشتراكية الدولية التى كانت قد نمت فى ذلك الوقت حتى أصبحت حركة عالمية . وكان رجلا له عقل ملىء قوى وإن لم يكن مبتكرا ، رجلا له شخصية قوية وسليمة بصورة غير عادية ، ويتمتع بمواهب مختلفة عديدة ، وخاصة بقدرته على تحصيل المعرفة وسرعة تحصيلها ، كما كان يتمتع بذهن صاف وثاقب ، وإحساس مكين بالواقع لم يكن يتمتع به إلا قلة ضئيلة من معاصريه الراديكاليين ، إن كان بينهم من كان يتمتع به . وإذا كانت تعوزه القدرة على الاكتشاف الأصيل ، فقد كانت له قدرة فريدة على غربلة اكتشافات الآخرين وتقييمها وإدراك كنهها . وقد ساعدته قدرته على الكتابة السريعة الواضحة

وإخلاصه وصبره الذى لا ينفد على أن يصبح حليفاً ومعاوناً مثالياً لماركس ، على الرغم من طبيعة ماركس الصعبة المليئة بالكبت،وعلى الرغم من أن كتاباته كثيراً ماكانت غامضة جافة ومحملة بأكثر مما ينبغى.ولم يكن إنجلز يريد لنفسه فى حياته مصيراً خيراً من أن يعيش فى ضوء تعاليم ماركس ، فقدكان يرى فيه ينبوع العبقرية الأصيلة التى هيأت لمواهبه الحياة وأفسحت لها المجال ؛ فأفنى نفســـه وعمله فى ماركس حتى وجد مكافآته فى مشاركة أستاذه خلوده.وكان «إنجلز» قبل أن يقابل ماركس قد وصل بجهده إلى مركز شبيه بما وصل إليه ماركس ، ثم كان فى الأعوام التالية يفهم آراء صديقه الجديدة ، التى كانت أحيانا غير مستكملة الوضوح ، خيرا مما يفهمها صديقه نفسه فى بعض الأوقات ، وكان يصوغها فى لغة أكثر جاذبية وأقرب إلى أفهام الجماهير من الأسلوب الماركسى الملتوى فى كثير من الأحيان . وأهم من ذلك كله أن إنجلز كان يتمتع بصفة كان لابد منها لكى يظل على اتصال دائم برجل له مزاج ماركس ، تلك هى انتفاء فكرة المنافسة لديه فى علاقته به ، وانتفاء كل رغبة فى مقاومة أثر تلك الشخصية القوية فى نفسه أو فى الاحتفاظ بمركز خاص به ؛ بل على النقيض من ذلك كان إنجلز أشد ما يكون رغبة فى أن يتلقى غذاءه الذهنى كله من ماركس فى غير جدال ، مثله كمثل التلميذ المخلص ، وأن يرد له هذا الجميل بتفكيره السليم وحماسته وحيويته ومرحه ، ثم أخيرا ، بإمداده فعلا بما يكفل له العيش فى لحظات فقره المدقع. وكان ماركس نفسه مثل كثيرين غيره من رجال الفكر المبدعين ، يحس باستمرار بعدم الطمأنينة ، كما كان سريع الإثارة يحس بمرارة وريبة وغيرة من أقل إشارة تتضمن هجوما عليه أو على مبادئه ؛ ومن ثم كان فى حاجة إلى شخص واحد على الأقل يفهم وجهة نظره ويستطيع هو أن يضع فيه ثقته كاملة ، وأن يعتمد عليه كل الاعتماد كلما عن له ذلك . وقد وجد فى إنجلز صديقا مخلصاً وحليفاً فكريا كان بطؤه نفسه كفيلا بأن يعيد إليه إحساسه بالتفوق وثقته فى نفسه وفى هدفه . وظل ماركس طوال الجزء الأكبر من حياته يباشر أعماله وهو واثق من أن هذا الرجل القوى الذى يمكن الاعتماد عليه قريب منه على استعداد لأن يحمل معه العبء فى كل طارىء . فمنحه فى مقابل ذلك عطفا واعتزازاً لصفاته ، لم يمنحهما لأى مخلوق آخر عدا زوجته وأولاده .

وقد تقابل الاثنان فى خريف سنة ١٨٤٤ بعد أن كان إنجلز قد أرسل إليه بحثا فى نقد مذاهب الاقتصاديين التحرريين لينشره فى مجلته . وكان ماركس حتى ذلك الوقت يضع انجلز فى شيء من الغموض بين رجال الفكر فى برلين ، وهو رأى لم يبدده لقاؤه الوحيد معه قبل ذلك ، فكتب له ماركس على الفور ، وكانت النتيجة لقاء فى باريس اتضح خلاله لكليهما تماثل وجهة نظريهما فى القضايا الأساسية . وكان انجلز ، الذى ظل فترة يتنقل فى انجلترا والذى نشر وصفا تقليديا لحالة الطبقة العاملة فيها ، ينفر من الاشتراكية العاطفية التى تدعو إليها مدرسة « سيموندى » أكثر مما كان ينفر منها ماركس نفسه . وكان لديه فوق ذلك الشيء الذى كان ماركس يبحث عنه طويلا ، وهو ذلك القدر الكبير من المعلومات الثابتة المحدودة عن الحالة الفعلية فى مجتمع صناعى متقدم ، لتكون بمثابة دليل مادى فى النظرية التاريخية الشاملة التى كانت تتبلور بسرعة فى ذهن ماركس . ووجد انجلز من ناحية أخرى أن ماركس منحه ما كان يفتقده ؛ منحه إطارا متينا يرتب فيه ما لديه من حقائق ، ليجعل منها سلاحا ضد التجريدات السائدة التى كان يعتقد أنها لا تصلح لأن يقام على أساسها أية فلسفة ثورية جديدة . ولابد أن الأثر الذى تركه فيه لقاؤه مع ماركس كان يشبه ذلك الذى تركه ماركس قبل ذلك فى « هيس » الذى كان أكثر استعدادا للتأثر . فقد رفع لقاؤه به معنوياته وحيويته ، وأزال الغموض عن آرائه السياسية التى لم يكن قد اكتمل نموها بعد إلى ذلك الوقت ، وأمده بإحساس بالاتجاه نحو هدف محدد وبوجهة نظر منظمة عن المجتمع يستطيع أن يعمل داخل إطارها وهو على ثقة من هدف ثورى ثابت قابل للتحقيق .

ولابد أن ذلك كان بمثابة بداية حياة جديدة بالنسبة له بعد التخبط فى تيه حركة الهيجيليين الشبان ؛ بل كان بالفعل بداية حياة جديدة له . وكان أسلوب المراسلات بينهما ، التى استمرت أربعين عاما ، وديا وجادا فى نفس الوقت منذ البداية ، فكلاهما لم يكن يميل إلى الاستبطان ؛ وكلاهما كان مشغولا بالحركة التى أخذا على عاتقهما أن يخلقاها ، والتى صارت بالنسبة لها أهم واقع فى حياتهما . وعلى هذا الأساس المتين الثابت قامت صداقة فريدة بينهما خلت من كل أثر من الاستعلاء أو فرض الذات أو الغيرة . ولم يحدث أبدا أن أشار أحدهما إلى هذه العلاقة دون أن يستحوذ عليه شعور بالخجل والارتباك . لقد كان إنجلز يحس

بأنه يأخذ أكثر بكثير مما يعطى ، إذ كان يعيش فى عالم فكرى خلقه له ماركس، من مصادره الداخلية الخاصة به ، وهيأه له . وعندما مات ماركس اعتبر نفسه الحارس الذى أوكل إليه أمر هذا العالم الفكرى ، فدافع عنه بغيرة ضد كل محاولة بذلها الجيل الأصغر من الاشتراكيين المتهورين المتعجلين لتغيير معالمه .

وكانت السنتان اللتان قضاهما ماركس فى باريس الفرصة الأولى والأخيرة فى حياته التى قابل فيها رجالا أندادا له ، إن لم يكن فى الذكاء ، فعلى الأقل فى أصالة الشخصية والحياة ، وكان معهم على علاقة طيبة . فلما وقع انقلاب سنة ١٨٤٨ الذى حطم معنويات جميع الراديكاليين ، إلا أصلبهم عودا ، وأفناهم بالموت والسجن والنفى ، وترك غالبيتهم نهباً للقلق وخيبة الأمل ، انسحب ماركس إلى عزلة متوثبة وقطع صلته بالجميع فيما عدا أولئك الذين أثبتوا ولاءهم الشخصى للقضية التى كرس نفسه لها ، ومنذ ذلك الوقت أصبح إنجلز رئيس أركان حربه ، أما الباقون فكان يعاملهم علنا معاملة من هم دونه .

والصورة التى تتكون عنه من مذكرات أولئك الذين كانوا أصدقاءه فى ذلك الوقت ، « روج » و « فرايليجراث » و « هاين » و « اننكوف » ، هى صورة لشخصية جريئة نشطة ، ومجادل عنيف متحمس، يزدرى خصومه ، ويستعمل فى كل ما يتناوله أسلحته الهيجيلية الثقيلة الصعبة ؛ ولكن على الرغم من أن الأداة التى استعملها لم تكن مصقولة ، فقد كشف عن ذهن قوى متوقد اعترف به اعترافا كاملا حتى أولئك الذين كانوا يكنون له أشد العداء — ولم يكن هناك سوى قلة من الراديكاليين النابهين لم يتعرضوا لطعناته وإهاناته بصورة من الصور .

والتقى ماركس بالشاعر « هاين » ، وعقد معه أواصر صداقة ودية ، فكان يقدر ذكاءه الممتاز خير تقدير، وكان يعتبره شاعرا ثوريا أصيلا أكثر من « هيرويج » و « فرايليجراث » اللذين كانا موضع تقديس الشباب الراديكالى فى ألمانيا فى ذلك الوقت ؛ كذلك كان ماركس على علاقة طيبة مع جماعة المتحررين الروسيين الذين كان بعضهم ثوريين حقيقيين وبعضهم ارستقراطيين هواة ، أولعوا بالشخصيات والمواقف الغريبة . وقد ترك أحد هؤلاء ، وهو أحد المتبطلين الظرفاء اسمه «اننكوف» كان يقع موقعا طيبا من نفس ماركس، وصفا موجزا لماركس فى ذلك

الوقت قال فيه : « إن ماركس ينتمى إلى ذلك الضرب من الرجال الممتلىء نشاطا وقوة إرادة وإيمانا لا يتزعزع . كانت له ، بشعره الأسود الكثيف الذى يغطى رأسه ، ويديه اللتين يكسوهما شعر غزير ، وسترته التى لا يحسن شبك أزرارها ، قدرة على فرض احترامه على الآخرين . كانت حركاته فجة ولكنها كانت حركات الواثق من نفسه . وكان فى سلوكه لا يعبأ بما تعارف عليه الناس فى علاقاتهم الاجتماعية ، ويشيع فيه الاستعلاء إلى ما يكاد يشبه الازدراء . وكان صوته خشنا لا يروق السامع ، وكان يتحدث عن الناس والأشياء فى لهجة من لا يسمح بالمعارضة ، وكأنها تعبير عن إيمانه الراسخ برسالته فى التأثير على عقول الناس وإملاء قوانين كيانهم » . وثمة عضو آخر من أعضاء هذه الجماعة أجدر منهم بالاعتبار ألا وهو « ميشيل باكونين » المعروف ، الذى كان للقائه مع ماركس فى باريس فى ذلك الوقت أثر أكثر دواما . كان « باكونين » قد غادر روسيا حوالى الوقت الذى غادر فيه ماركس ألمانيا ولنفس الأسباب تقريبا . وكان فى ذلك الوقت هيجيليا « نقديا » متحمسا وعدوا شديد العداء للقيصرية ولكل حكم مطلق . وكان له إلى جانب ذلك طبيعة رحبة متسامحة مندفعة إلى حد كبير ، وخيال غنى غير منظم لا ضابط له ، وشغف شديد بالعنف وبكل ما هو رائع أو هائل ؛ كان يكره كل نظام أو ترتيب ، ليس له إحساس بالملكية الشخصية ، وفوق كل ذلك كانت له رغبة جارفة متوحشة فى تدمير ذلك المجتمع الضيق الذى يعيش فيه ، الذى يختنق فيه الفرد ، كما فعل « جاليفر » فى أرض الأقزام ، لضيق المجال أمامه عن أن يحقق إمكانياته إلى أقصى وأنبل حدودها . وقد قال عنه صديقه ومواطنه « اسكندر هرتزن » ، الذى كان يعجب به ويضيق به فى نفس الوقت ، فى مذكراته :

« إن باكونين كان يستطيع أن يكون أى شىء — مهيجا أو خطيبا أو مبشراً أو زعيم حزب أو قائد شيعة أو على رأس بدعة . ضعه فى أى مكان شئت ، طالما كان ذلك فى الطرف الأقصى من أية حركة ، يخلب ألباب الناس ويلعب بمصائرهم . ولكن هذا « الكولمبس » بدون أمريكا وبدون سفينة ، بعد أن خدم فى روسيا عاماً أو عامين ، على غير رغبة منه ، فى سلاح المدفعية ، وقضى بعد ذلك عاماً آخر أو حوالى ذلك بين الهيجيليين فى موسكو ، تاقت نفسه بشدة إلى أن يغادر أرضا

كان فيها كل تفكير من أى نوع يعرض صاحبه للاضطهاد بوصفه عملا شريراً ، ويعتبر فيها الاستقلال فى الكلام أو إصدار الأحكام إهانة للأخلاق العامة » .

وكان باكونين خطيباً شعبياً ممتازا ، تتملكه كراهية حقيقية للظلم ، وإحساس مشتعل برسالته لإثارة الجنس البشرى إلى عمل بطولى جماعى عظيم يحرره إلى الأبد ؛ وكان له سحر شخصى على الناس يعميهم فى غمرة الثورة التى يشيعها عن افتقاده الإحساس بالمسئولية وعن اصطناعه وبهتانه الغريزى ، ولم يكن مفكراً ذا أصالة يسهل عليه استيعاب وجهات نظر الآخرين ؛ بيد أنه كان معلما ملهماً ، ورغم أن عقيدته كلها لم تزد عن إيمـــان حماسى بالحاجة إلى تدمير كل سلطة وتحرير المضطهدين ، فإنه أقام على هذا الأساس وحده حركة ظلت باقية أمدا طويلا بعد موته .

كان «باكونين» يختلف عن ماركس بقدر ما يختلف الشعر عن النثر ؛ وقد قامت العلاقة السياسية بينهما على أسس غير صالحة فلم تعش طويلا . لقد كان الرباط الذى يربط بينهما ، هى كراهيتهما المشتركة لكل نوع من أنواع الإصلاح ؛ بيد أن هذه الكراهية انبثقت عند كل منهما من جذور مختلفة . فقد كانت « التدريجية » دائماً فى نظر ماركس محاولة متنكرة من جانب الطبقة الحاكمة لتحويل جهود أعدائها إلى اتجاهات غير فعالة ولا ضرر منها ، وهى سياسة كانت الرؤوس المفكرة فى الطبقة الحاكمة تعرف أنها خدعة مقصودة ، أما الباقون فقد خدعوا بها مثلما خدع المصلحون الراديكاليون الذين كان خوفهم من العنف هو نفسه ضربا من التخريب اللاشعورى للأهداف التى أعلنوها. وكان «باكونين» يكره الإصلاح لأنه كان يعتقد أن كل ما يحد من الحرية الشخصية هو شر فى ذاته ، وأن كل عنف مدمر هو ذاته خير ، حين يوجه إلى الحكومة ، بوصفه صورة من صور التعبير الخلاق عن الذات . وهو من هذه الناحية كان يتعارض بشدة مع الهدف الذى تقبله كل من ماركس والمصلحين ، ألا وهو إحلال دولة اشتراكية مركزة محل الوضع القائم ، حيث إن ذلك ، فى رأيه ، يكون نوعا جديداً من الطغيان ألعن وأكثر إطلاقا من الدكتاتورية الشخصية والطبقية التى قُصد به أن يحل محلها . والأساس العاطفى لهذا الاتجاه هو الكراهية المزاجية لأساليب الحياة المنظمة فى المجتمع

المتمدين العادى ، وهى الحياة التى يأخذها الديموقراطيون الغربيون على أنها أمر مسلم به ، وتبدو لمثل من كان له خيال « باكونين » الخصيب وعاداته الفوضوية وكراهيته لكل القيود والحواجز حياة لا لون لها ، حياة تافهة وحقيرة ومبتذلة . ولم يكن من الممكن لحلف تكاد تفتقد فيه الأهداف المشتركة تماما أن يدوم طويلا. ولهذا فقد كان ماركس ، تلك الشخصية المنظمة الصلبة التى لا تتأثر بسهولة ، ينظر إلى « باكونين » على أنه نصف دجال ونصف مجنون ، ويعتبر آراءه سخيفة وهمجية ، كما رأى فى مذهب « باكونين » نموا للفردية الهمجية التى سبق أن هاجم « شتيرنر » من أجلها . بيد أنه بينما كان « شتيرنر » معلما مغموراً فى مدرسة ثانوية للبنات ، ومفكراً لا أثر له فى المجال السياسى ، لا يستطيع إثارة الجماهير ولا مطمح له فى ذلك ، كان باكونين رجل عمل يمتاز بعزيمته ، ومهيجا لا يهاب ولا يخشى ، وخطيباً مفوها وشخصا خطراً مصابا بجنون العظمة، تستبد به رغبة جامحة للحصول على القوة لا تقل عن تلك التى ملكت على ماركس نفسه .

وقد سجل « باكونين » رأيه فى ماركس بعد ذلك بعدة سنوات فى إحدى نشراته السياسية ، فقال : « إن مستر ماركس يهودى الأصل ، وهو يجمع بين جميع ميزات هذه السلالة الموهوبة ونقائصها ؛ فهو عصبى إلى حد الجبن فى رأى البعض ، وشرير إلى أقصى حدود الشر ، مغرور ، مشاكس ، وديكتاتورى غير متسامح كيهوذا ، إله آبائه ، وهو مثله كذلك فيما يحدوه من روح انتقام جنونية » .

« وليس هناك ضرب من الكذب أو الوشاية لا يقدم على استعماله ضد أى شخص يجلب على نفسه غيرته أو حقده ؛ ولا يمنعه شىء عن أحقر المكائد إذا اعتقد أنها سترفع مركزه أو تزيد من نفوذه وقوته » .

« هذه هى نقائصه ، بيد أن له أيضاً فضائله . فهو ماهر جداً ، وعلى قدر واسع من العلم . حتى كان فى حوالى سنة ١٨٤٠ الروح المحركة والروح المنعشة لجماعة ممتازة من الألمان الهيجيليين الراديكاليين ؛ جماعة فاقت كثيرا أعنف الفوضويين الروس فى استخفافهم المتواصل ، وقليل جدا من الناس من قرأ مثلما قرأ ماركس ، بل ، قرأ بمثل فهمه وإدراكه ... »

« وهو ، مثله مثل مسيو « لويس بلان » ، عابد متعصب من عباد الدولة — عابد

مثلث العبادة ؛ بوصفه يهوديا وألمانيا وهيجيليا — ولكن بينما استعمل الأول البلاغة الحماسية ، بدلا من الحجج ، فقد نمق الثانى ، كما يليق بألمانى خطير مثقف مثله ، هذا المذهب بكل الألاعيب والمحاسن الجدلية الهيجيلية ، وبكل ما لثقافته المتعددة الجوانب من ثروة واسعة » .

وقد ازدادت الكراهية المتبادلة بينهما وضوحا مع مضى الزمن ؛ فقد استمرت علاقاتهما الودية الظاهرية تتعثر بضع سنين ، ولا ينقذها من الانقطاع الكامل إلا الاحترام الوجل المتردد الذى كان يكنه كل منهما على مضض لصفات الآخر الماثلة . فلما اندلع الصراع بينهما فى النهاية كاد يقضى تماماً على كل ما بناه كل منهما ، وألحق ضررا بالغا لا يقدر بقضية الاشتراكية الأوروبية .

وإذا كان ماركس قد عامل باكونين بوصفه ندأ له ، فإنه لم يخف ازدراءه للمهيج الآخر المعروف «ولهلم وايتلنج» الذى قابله فى ذلك الوقت . و «ولهلم وايتلنج» حائك كرّس نفسه للتجول ليبشر بما يؤمن به ، وكان هذا الحالم الألمانى المتحمس الذى لا يهاب شيئا هو آخر ، بل وأبلغ ، من يمثل تلك السلالة من الرجال الذين أثاروا التمرد بين الفلاحين فى أواخر العصور الوسطى ، والذين تجمع ممثلوهم المعاصرون الآن ، ومعظمهم من الصناع وأرباب الحرف المتجولين ، فى جمعيات سرية كرست نفسها لقضية الثورة ؛ وكانت هناك فروع عديدة فى كثير من المدن الصناعية فى ألمانيا والخارج، مراكز متناثرة من مراكز التذمر السياسى التف حولها العديدون من ضحايا العملية الاجتماعية ومصابيها ، وهم أشخاص دفعتهم المظالم التى تعرضوا لها إلى الإحساس بمرارة عنيفة وتبلبلت أذهانهم فيما يتعلق بقضيتهم وبعلاجها ، ولكن ظل يوحد بينهم شعورهم المشترك بالضيم ورغبتهم المشتركة فى القضاء على النظام الذى دمر حياتهم . وقد دعا « وايتلنج » فى كتابيه « انجيل شخص آثم مسكين » و « ضمانات للتناسق والحرية » إلى حرب طبقية يشنها الفقراء ضد الأغنياء ، سلاحها الرئيسى الإرهاب العلنى ؛ كما دعا بصفة خاصة إلى تكوين فرق عاصفة من بين أولئك الذين تعرضوا لأشد المظالم فى المجتمع ، ومن ثم ، من بين أكثر عناصره استبسالا وشجاعة — وهم الخارجون على القانون والمجرمون — ليقاتلوا قتال المستميت انتقاماً لأنفسهم من الطبقة التى جردتهم

من كل شيء ، وفى سبيل عالم جديد لا منافسة فيه يبدأون فيه حياتهم الجديدة . وقد جذب إليه — بإيمانه بتضامن العمال فى جميع البلاد ، ورواقيته الشخصية ، والسنوات التى قضاها فى مختلف السجون ، وفوق كل شيء ، الغيرة التبشيرية التى تفيض بها كتاباته — عددا كبيرا من الأتباع المخلصين من بين زملائه من الصناع ، فانقلب فى فترة قصيرة شخصية رنانة لها دوى فى أوروبا . ومع أن ماركس لم يكن يهتم بالإخلاص عندما يساء توجيهه ، وكان يكره بصفة خاصة الأنبياء المتجولين بقدر ما كان يكره العاطفية المبهمة التى تؤدى حتما إلى تلويث الأعمال الثورية الجدية ، فقد اعترف بأهمية « وايتلنج » . ذلك أن فكرته عن إعلان حرب علنية ضد الطبقة الحاكمة بوساطة رجال مستيئسين ليس لديهم ما يفقدونه بل أمامهم كل ما يجنونه ، وعن التجربة الشخصية التى تكمن وراء هجماته التى تثير سامعيه ، وعن تأكيده لأهمية الواقع الاقتصادى ، ومحاولته أن ينفذ إلى ما وراء الواجهة المضللة للأحزاب وبرامجها الرسمية ، وفوق كل شيء نجاحه العملى فى خلق نواة لحزب شيوعى دولى ، قد تركت كلها أثرا عميقاً فى نفس ماركس . على أن ماركس مع ذلك قابل مبادئ « وايتلنج » التفصيلية بازدراء سافر واعتقد ، وكان فى ذلك على حق ، أنه رجل مشوش هستيرى ومصدر بلبلة فى الحزب ، ومن ثم فقد أخذ ماركس على عاتقه أن يزيح الغطاء علنا عن جهله ، ويحط من قدره بكل وسيلة ممكنة . وهناك سجل عن لقاء تم بينهما فى بروكسل سنة ١٨٤٦ طلب ماركس خلاله من « وايتلنج » أن يحدد له مقترحاته من أجل الطبقة العاملة ، وعندما تلعثم «وايتلنج» وغمغم شيئا عن عدم جدوى النقد داخل غرف الدراسة بعيدا عن العالم الذى يعانى ما يعانى، ضرب «ماركس» المنضدة بيده وصرخ قائلا : « إن الجهل لم يفد أحدا من قبل » واندفع خارجا من الغرفة . ولم يتقابلا بعد ذلك أبدا .

وكانت علاقته مع « برودون » أكثر تعقيدا من ذلك بكثير . وكان ماركس قد قرأ وهو لا يزال فى كولونيا ، كتاب « برودون » الذى أضفى على اسمه الشهرة ، كتاب « ما هى الملكية ؟ » ، فامتدح جمال أسلوبه وشجاعة مؤلفه ؛ فلقد كان فى سنة ١٨٤٣ يرضيه كل شيء يشتم منه رائحة الثورة ، وكل شيء يبدو واضحا حازما

فى دعوته الصريحة إلى قلب النظام القائم . بيد أنه سرعان ما اقتنع بعد ذلك بأن « برودون » ، رغم كل ما أعلنه من إعجاب بهيجل ، كان يتناول المشكلات الاجتماعية من زاوية هى فى نهاية الأمر أخلاقية لا تاريخية ، أى أن حكمه على حسن الأشياء أو سوئها كان يقدم مباشرة على معاييره الأخلاقية الشخصية المطلقة ، متجاهلا الأهمية التاريخية للأنظمة والنظم . ومنذ تلك اللحظة اعتبره ماركس مجرد داعية أخلاقى بورجوازى آخر من الدعاة الفرنسيين ، وفقد كل احترام لشخصه ولمبادئه .

وكان « برودون » فى ذروة شهرته عندما وصـــل ماركس إلى باريس . كان « برودون » فلاحا ببيئته الأولى ، وصفافاً للحروف بمهنته بعد ذلك ، وكان ذا طابع ضيق عنيد متعصب لا يخشى شيئاً ، فكان نموذجاً للطبقة الدنيا من الطبقة الوسطى الفرنسية ، تلك الطبقة التى لم تلبث أن وجدت ، بعد أن قامت بدور فعال فى قلب حكم « البوربون » نهائياً ، إن كل ما فعلته إنما هو استبدال سيد بسيد ، وإن الحكومة الجديدة المكونة من أصحاب البنوك وكبار رجال الصناعة ، الذين قال « سان سيمون » عنهم إنهم سوف يفيدون الطبقات الدنيا كثيرا ، لم تفعل سوى أنها عملت على دمارهم بخطى أوسع .

وكانت القوتان اللتان اعتبرهما « برودون » قاضيتين على العدالة الاجتماعية والإخاء الإنسانى هما : الاتجاه نحو تكديس رأس المال الذى يؤدى باستمرار إلى زيادة الفوارق فى الثروة ، ثم النزعة المرتبطة بذلك ارتباطا مباشرا ، وهى النزعة التى وحّدت بين القوة السياسية والسيطرة الاقتصادية صراحة ، وكان من شأنها زيادة السلطة الاستبدادية المطلقة للقلة تحت ستار الأنظمة الحرة . وهكذا أصبحت الدولة ، فى نظره ، أداة قصد بها تجريد الأغلبية من كل مزاياها لحساب الأقلية ، وهى صورة من صور السرقة المشروعة التى تؤدى إلى حرمان الفرد بطريقة منتظمة من حقه الطبيعى فى الملكية بأن تعطى الأغنياء وحدهم السيطرة على التشريع الاجتماعى والائتمان المالى ، بينما تجرد « البورجوازى الصغير » من كل ما يملك وهو لا حول له ولا قوة . على أن خير كتب « برودون » ، الذى يفتتحه بقوله : « إن كل ملكية إن هى إلا ضرب من السرقة » ، قد أضل كثيراً من الناس عن فهم

وجهة نظره فى أكمل نواحيها . فلقد ذهب فى الفترة الأولى من حياته إلى أن كل ملكية فى غير محلها ؛ ثم عاد أخيرا فقال إن الأمر يتطلب أن يكون لكل فرد أقل قدر ممكن من الممتلكات حتى يستطيع الاحتفاظ باستقلاله الشخصى وكرامته الأخلاقية والاجتماعية ، وإن أى نظام يسمح بأن يفقد فيه الفرد هذا القدر الضئيل ، أى يستطيع فى ظل القوانين القائمة أن يتنازل عنه بوساطة صفقة تجارية ، ومن ثم يبيع نفسه فى الواقع فيصبح بذلك عبدا لغيره من الناحية الاقتصادية ، هو نظام يشجع على السرقة ويضفى عليها ستارا من المشروعية ، سرقة الحقوق الأولية للإنسان التى لا يستطيع بدونها أن يسعى إلى تحقيق غاياته . واعتبر « برودون » أن السبب الرئيسى فى هذه العملية هو الصراع الاقتصادى الذى لا ضابط له بين الأفراد والجماعات والنظم الاجتماعية الذى يؤدى بالضرورة إلى سيطرة من كان أكثر قوة أوأحسن تنظيما ، ويجعل الغلبة على جمهرة الشعب،ولأولئك الذين لايأبهون بأى واجب أخلاقى أواجتماعى . وفى هذا يتمثل انتصار القوة التى لايردعها رادع التى تتخذ من المهارة التكتيكية حليفا لها على العقل والعدالة ؛ بيد أنه لم يكن هناك ، فى نظر « برودون » — الذى لم يكن « حتمياً » ، أى سبب تاريخى يبرر استمرار هذه الحالة إلى الأبد . وقد كانت المنافسة ، التى اعتبرها المفكرون المستنيرون فى القرن السابق العلاج المفضل لكل داء ، والتى بدت للتحرريين والعقليين فى القرن التاسع عشر شيئاً يكاد يكون مقدساً على اعتبار أنها أغنى وأكمل تعبير عن مثالية الفرد التى بلغها بعد عناء ، وعن انتصاره على قوى الطبيعة العمياء ،وتغلبه على شهواته التى لا ضابط لها ،كانت هذه المنافسة بالنسبة لـ « برودون » شراً ما بعده شر ، وتوجيها سيئاً لكل القدرات الإنسانية يدفعها إلى خلق مجتمع اقتنائى « acquisitive » غير طبيعى ، ومن ثم فهو يدفعها نحو مجتمع غير عادل ، تعتمد فيه الميزات التى يحصل عليها المرء على ما يتمتع به من قدرة على خداع الآخرين وتقويضهم ، بل والقضاء عليهم . وهو شر يطابق ذلك الذى هاجمه « فورييه » و « سيسموندى » قبل ذلك ، وإن كان التعبير عنه جاء مختلفاً وكذلك أسبابه . فلقد ورث «فورييه» وعياً من فكر القرن الثامن عشر وأسلوبه على السواء ، ففسر كوارث العصر على أنها نتيجة لكبت « العقل » بوساطة سياسة تعمدها أولئك الذين كانوا يخشون استعمال العقل :

القساوسة والنبلاء والأغنياء . أما « برودون » فقد تأثر إلى حد ما بالاتجاه التاريخي السائد فى عصره ، وهو وإن لم يكن يعرف الألمانية فقد عرف الهيجيلية على يد « باكونين » ثم على يد بعض المنفيين الألمان . وقد أدت محاولة « برودون » إلى المواءمة بين النظرية الجديدة وبين مذهبه ، بما يتضمنه هذا المذهب من توكيد للعدالة والحقوق الإنسانية ، إلى نتائج بدت لماركس صورة للهيجيلية مشوهة وفجة .

والواقع أن الأسلوب الذى يصف كل شئ على هيئة مفهومين مضادين، ويجعل كل قول يبدو واقعياً ومتناقضاً فى نفس الوقت كان يتلاءم مع موهبة « برودون » فى صياغة العبارات الحادة الملفتة للنظر، وحبه للحكم، ورغبته فى الاستثارة والترويع. فكل شئ هو نقيضه ؛ الملكية سرقة ؛ أن تكون مواطنا هو أن تحرم من الحقوق ؛ الرأسمالية هى فى وقت واحد ديكتاتورية القوى على الضعيف وديكتاتورية الأقل على الأكثر ؛ تكديس الثروة سلب ؛ إلغاء الملكية تدمير لأسس الفضيلة . والعلاج الذى أتى به « برودون » لكل هذا ، هو القضاء على المنافسة وإحلال نظام تعاونى « تبادلى » محلها ، نظام يسمح فى ظله بقدر محدود من الملكية الخاصة ، بل ويفرض فيه هذا القدر فرضا ، ولكن لا يسمح فيه بتكديس رأس المال . فبينما المنافسة فى رأيه أسوأ صفات الإنسان وأكثرها وحشية ، فإن التعاون ، فضلا عما يؤدى إليه من استزادة الكفايات، يجعل الناس أحسن أخلاقا وأكثر تمدينا بما يكشف لهم عنه من الهدف الحقيقى للحياة المشتركة. وقد يسمح للدولة أن تتمتع ببعض الوظائف المحددة ، ولكن نشاطها يجب أن يخضع لرقابة مشددة من جانب الاتحادات المختلفة والحرف والمهن ، وكذلك من جانب المستهلكين والمنتجين ، وهى الفئات التى ينظم المجتمع فى ظلها . وما علينا إلا أن ننظم المجتمع فى وحدة اقتصادية واحدة على أسس لاتنافسية ، بل «تبادلية»، لكى تختفى أوجه النقص ويزول الشر ويبقى الخير. وإذن يختفى الفقر والتعطل وخيبة الأمل التى تصيب أولئك الذين يرغمون على القيام بأعمال تتفق لا مع طبيعتهم نتيجة لسوء التوزيع الطبقى فى مجتمع ينقصه التخطيط، وينفسح المجال أمام ما فى طبائع الناس من خير أن يفرض وجوده ؛ فالطبيعة البشرية لا تنقصها المثالية ، ولكنه النظام الاقتصادى القائم الذى يجعل منها شيئاً

لا أثر له ، وسوء التوجيه الذى قد يجعل منها شيئاً خطراً ؛ بيد أنه مما لا يجدى ، فى نظر « برودون » ، توجيه الدعوة إلى الأغنياء لأن غرائزهم الكريمة قد ضمرت منذ أمد طويل . ولن يولد ذلك « الأمير المستنير » الذى راود أحـــلام الموسوعيين لأن وجوده تناقض اجتماعى . وليس هناك من يمكن الاتجاه إليهم فى هذه الحالة سوى الضحايا الحقيقيين للنظام ، صغار الفلاحين والبورجوازيين والبروليتاريا فى المدن ، فهم وحدهم الذين يستطيعون تغيير ما هم فيه ، لأنهم لما كانوا أكثر أعضاء المجتمع عدداً وألزمهم له ، فإنهم وحدهم يملكون القدرة على تغييره . ومن ثم فقد اتجه « برودون » إليهم بدعوته ، وحذر العمال من أن ينظموا أنفسهم تنظيماً سياسياً ، لأنهم بتقليدهم للطبقة الحاكمة سوف يضعون أنفسهم تحت رحمتها . فإن العدو ، بما لديه من خبرة أكبر بالأساليب السياسية ، سوف ينجح عن طريق الإرهاب ، وعن طريق الرشوة المالية والاجتماعية فى اجتذاب العناصر الضعيفة والعناصر التى لهاحظ أقل من الذكاء والتبصر ، فيجعل من حركتهم حركة ضعيفة عقيمة . وعلى أية حال ، فحتى لو انتصر العمال ، فإنهم باستيلائهم على النظم السياسية للحكم الديكتاتورى وما يستتبعه ذلك من احتفاظهم بها إنما يهيئون للتناقضات التى يسعون إلى الهرب منها فرصة جديدة للبقاء . لذلك كان على العمال والبورجوازيين الصغار أن يحاولوا فرض طابعهم على بقية المجتمع بوساطة الضغط الاقتصادى البحت ؛ وأن يحققوا هذه العملية بالتدريج وبالوسائل السلبية . ولهذا أعلن « برودون » المرة بعد المرة أن العمال يجب ألا يلجأوا إلى العنف مهما كانت الأسباب ؛ بل إن الاضرابات نفسها يجب ألا يُسمح بها ، حيث أن فى ذلك اعتداء على حق العامل الفردى فى التصرف فى عمله بحرية .

ولم يكن « برودون » حكيماً حين عرض كتابه « فلسفة الفقر » على ماركس لينتقده . فقد قرأه ماركس فى يومين أعلن بعـــدها أنه مؤلَّف سطحى وملىء بالأخطاء ، وأنه كتب بلغة جذابة ، وأن فيه من البلاغة والإخلاص ما يكفى لتضليل الجماهير . وقد عاد «ماركس» فقال عن موقف مماثل بعد ذلك بعدة سنوات « إن ترك الخطأ دون تفنيد ، لهو تشجيع على الفساد الفكرى » . فإن مقابل كل عشرة عمال يتقدمون إلى الأمام يقعد تسعون مع « برودون » ويظلون فى ظلام .

ومن ثم قرر القضاء على الكتاب ، والقضاء على سمعة « برودون » كمفكر أصيل ، بصفة نهائية.ففى سنة ١٨٤٧ظهر كتاب « فقر الفلسفة » بقلم «دكتور كارل ماركس» رداً على كتاب « فلسفة الفقر » ، وتضمن كتاب «ماركس» أشد هجوم وجهه مفكر إلى مفكر آخر منذ تراشق المتجادلين الشهير فى عصر النهضة،وقد حرص «ماركس» باذلا فى ذلك جهداً شاقاً ، على أن يثبت أن « برودون » لا قبل له بالتفكير المجرد على الإطلاق ، وأنه يحاول إخفاء هذه الحقيقة عن طريق استخدام المصطلحات الهيجيلية المزيفة .

واتهم ماركس « برودون » بأنه أساء فهم « التقسيمات » الهيجيلية من أساسها، ففسر الصراع الجدلى فى سذاجة واضحة على أنه نزاع بسيط بين الخير والشر مما يؤدى بدوره إلى نتيجة خاطئة ، هى أن كل ما يتطلبه الأمر هو إزالة الشر حتى يبقى الخير ، وأن وصف هذا الجانب أو ذاك من الصراع الجدلى بأنه خير أو شر لهو علامة على افتقاد الموضوعية التاريخية التى لا غنى عنها فى أى تحليل اجتماعى جدى . فكلا الجانبين لا معدى عنه فى نمو المجتمع البشرى . والتقدم الحقيقى لا يتحقق بانتصار أحد الجانبين وهزيمة الآخر ، بل بالصراع نفسه الذى يتضمن بالضرورة دمارهما . وطالما أن « برودون » يظل يعبر باستمرار عن عطفه على هذا العنصر أو ذاك فى الصراع الاجتماعى ، فإنه مهما يكن إخلاصه فى اعتقاده بأنه مقتنع بضرورة الصراع وقيمته ، سوف يبقى مثاليا لا أمل فى الخلاص من مثاليته ، أى يظل مضطرا إلى تقييم الواقع الموضوعى على ضوء رغباته وميوله الذاتية ، دون الاعتداد بمرحلة التطور التى بلغها هذا الواقع . ثم أتبع ماركس ذلك بمجهود ضخم فى دحض نظرية « برودون » الاقتصادية فقال عنها : إنها تقوم على مفهوم خاطىء لآلية التبادل ، وإن « برودون» قد أخطأ فى فهم « ريكاردو » بما لا يقل عن خطئه فى فهم هيجل ، فخلط بين الرأى الذى يقول : إن العمل البشرى يحدد القيمة الاقتصادية ، والرأى الذى يقول إن العمل البشرى يجب أن يفعل ذلك . وهذا بدوره يؤدى إلى تحريف علاقة المال بالسلع الأخرى تحريفاً كاملا ، الأمر الذى يقوض رأيه من أساسه فيما يتعلق بالتنظيم الاقتصادى المؤقت للمجتمع الرأسمالى . ووجه ماركس أشد هجماته وأقساها

إلى فردية « برودون » المستترة ، وكراهيته الواضحة لأى اتجاه نحو التنظيم الجماعى ، وإيمانه بالملاك الزراعيين الأشداء وبمستوياتهم الأخلاقية ، وإيمانه بالقيمة التى لا يمكن هدمها لنظام الملكية الخاصة ، وبقداسة الزواج والأسرة وسلطان ربها الأخلاقى والقانونى المطلق على زوجته وأطفاله ؛ وهى نواح كانت فى الواقع أساس حياته الشخصية ، وإليها يرجع السبب فى خوفه العميق من أية صورة من صور الثورة العنيفة ، ومن أى شىء يحتمل أن يدمر الصور الأساسية للحياة فى مزرعة صغيرة ، تلك الحياة التى ولد فيها أجداده وعاشوا بين جوانبها والتى ظل مخلصا لها لا يتحول عنها،رغم كل عباراته الثورية الجريئة . بل لقد ذهب ماركس فى الواقع إلى اتهام«برودون»بأنه يريد علاج المظالم المباشرة فى النظام القائم دون تدمير النظام نفسه،لأنه ، مثل جميع الفرنسيين من طبقته،كان ملتصقا بهذا النظام التصاقا عاطفيا ، وبأنه على الرغم مما يضفيه على الهيجيلية من زخرف لم يكن يؤمن بأن العملية التاريخية عملية حتمية ، أو أنها غير قابلة لأن تتحول عن مجراها ، أو أنها تتقدم بقفزات ثورية ، أو بأن الشرور الحالية هى نفسها ضرورة من ضرورات القوانين التاريخية بقدر ما سوف تكون المرحلة التى ستحل محلها يوما ما ضرورة من ضروراتها . إذ أن افتراض أن مثل هذه الشرور مساوىء عارضة هو وحده الذى يمكن أن يجعل الدعوة إلى إلغائها عن طريق التشريع الجرىء ، دون حاجة إلى تدمير الأوضاع التى تعد هذه المساوىء من نتاجها التاريخى ، دعوة مستصوبة . ويقول ماركس نفسه فى نبذة بليغة : « لا يكفى أن يتمنى المرء انهيار هذه الأوضاع ، بل يجب عليه أن يعرف القوانين التى وجدت هذه الأوضاع على أساسها،ليعرف كيف يتصرف داخل نطاق هذه الأسباب ، حيث أن التصرف ضدها ، سواء أكان عن عمد أم عن غير عمد ، دون إدراك لأسبابها وطابعها ، يكون تصرفا انتحاريا،ويؤدى بما يترتب عليه من فوضى إلى هزيمة الطبقة الثورية وقتل روحها المعنوية ، ومن ثم يؤدى إلى إطالة أمد الشقاء الحالى » . بل لقد كان هذا هو نفس النقد الذى وجهه إلى جميع أصحاب « المدن الفاضلة » الذين أعلنوا أن لديهم رسالة جديدة للطبقة العاملة .

لقد كان ماركس مقتنعا بأن «برودون» عاجز بطبيعة تكوينه عن أن يدرك

الحقيقة ؛ وأنه ، على الرغم من تمتعه بموهبة لا شك فيها فى صياغة العبارات ، رجل غبى فى حقيقته ؛ وأن كونه شجاعا وأمينا إلى درجة التعصب ، وأنه استطاع أن يجتذب إليه عددا متزايدا من الأتباع المخلصين ، لم يكن له من أثر سوى أن جعله أكثر خطورة ؛ ومن هنا كانت محاولة ماركس تدمير مذهبه ونفوذه بضربة قاصمة واحدة . على أن قسوة ماركس قد جاوزت حدها ، فأدت إلى عكس ما كانت تستهدفه ، إذ خلقت جوا من العطف الذى يولده السخط حول ضحيته ، وظل مذهب « برودون » باقيا بعد هذا الهجوم الماركسى وما تلاه من هجمات أخرى ، وزاد نفوذه فى السنوات التالية .

ولم يكن « برودون » فى المرتبة الأولى مفكرا أصيلا ، لقد كان موهوبا فى هضم الأفكار الراديكالية السائدة فى عهده وبلورتها : كان يجيد الكتابة ، وبذكاء واضح أحياناً ، وكانت الجماهير التى يكتب لها تحس بأنه مخلص فيما يكتب ، وأن ما يكتبه منبثق من حاجات ومطامح يشتركون معه فيها . ولا يزال التقليد القائم على عدم المشاركة السياسية والوحدة اللامركزية الذى كان « برودون » أبلغ من دافعوا عنه ، قويا حتى يومنا هذا بين الراديكاليين والاشتراكيين الفرنسيين ، ويجد تأييدا فى الاتجاه الفردى الذى يتضح أكثر ما يتضح فى فرنسا والبلاد اللاتينية الأخرى ، التى تتكون الأغلبية العديدة من سكانها من فلاحين وصناع وأصحاب مهن متواضعين يعيشون بعيدا عن الحياة الصناعية فى المدن الكبرى . ومذهب « برودون » هو فى الواقع السلف المباشر للنقابية الحديثة . وقد تأثر هذا المذهب بفوضوية « باكونين » كما تأثر ، بعد نصف قرن ، بمذهب « سورل » القائل بأنه ما دامت « التقسيمات » الاقتصادية هى الأساس الأول فإن الوحدات التى يجب أن تتكون فيها القوى المضادة للرأسمالية ينبغى أن تضم أشخاصا ، يرتبطون لا بالمعتقدات المشتركة — فهى مجرد بناء فوقى فكرى ، بل بالمهن التى يمارسونها فعلا ، فهو العامل الجوهرى الذى يؤثر فى سلوكهم . وقد أصبح هذا المذهب ، بما يستخدمه من تهديد بإشاعة الفوضى فى الحياة الاجتماعية عن طريق إيقاف جميع الخدمات الحيوية بوساطة الإضراب العام ، وهو أشد أسلحته أثراً ، أقوى مذهب للجناح اليسارى فى عدة أجزاء من فرنسا وإيطاليا وإسبانيا ، بل فى الواقع فى كل

مكان لم يسر فيه التصنيع شوطا موغلا وظلت تسوده التقاليد الفردية الزراعية . وما برح هذا المذهب أقوى قوة معارضة بمفردها للاشتراكية السياسية،حيثما كان النظام المركزى مستعصياً وتقاليد «العمل السياسى» غير قوية . وقد أدرك ماركس على الفور ، وهو الذى كان يتمتع بإحساس لا يخطىء فيما يتعلق بالاتجاه العام والمزاج السياسى لأية حركة مهما كانت مظاهرها ، ما لهذا الاتجاه من أساس فردى ، وبالتالى من أساس رجعى فى نظره ، ومن ثم هاجمه بشدة لا تقل عن هجومه على التحررية السافرة . إن « فقر الفلسفة » قد أصبح الآن ، مثله مثل الآراء التى هاجمها بالذات ، وقد عفى عليه الزمن ، ولكنه مع ذلك يمثل مرحلة محددة فى النمو العقلى لمؤلفه ؛ فهو أول محاولاته لجمع آرائه السياسية والاجتماعية فى مذهب موحد يمكن تطبيقه على كل ناحية من نواحى الموقف الاجتماعى ، وهو الذى عرف بعد ذلك بنظرية المادية التاريخية .

الفصل السادس

المادية التاريخية

« تصور أحد الأشخاص يوما ما أن الناس إنما يغرقون فى الماء لأن فكرة الثقل تسيطر على أذهانهم ، واعتقد أن الناس إذا تمكنوا من التخلص من هذه الفكرة بأن وصفوها بأنها خرافة مثلا أو وهم دينى ، فإن ذلك سوف ينقذهم من جميع أخطار الغرق ، وظل طوال حياته يحارب وهم الثقل ، الذى ظلت الإحصاءات تمده بالأدلة التى تثبت ماله من عواقب وخيمة ، هذه الشخصية هى النموذج السائد الذى يمثل الفلاسفة الثوريين من الألمان فى الوقت الحاضر »

كارل ماركس

« الأيديولوجية الألمانية »

لم ينشر ماركس نفسه على الإطلاق عرضا رسميا للمادية التاريخية ، ولم تظهر المادية التاريخية فى كتاباته إلا فى صورة شذرات وردت فى جميع أعماله الأولى التى كتبت إبان السنوات من ١٨٤٣ إلى ١٨٤٨ ، ثم جعل منها الناس أمرا مسلما به فى آرائه التى تلت ذلك . ولم يكن ماركس يعتبر المادية التاريخية نظاماً فلسفياً جديداً بقدر ما كان ينظر إليها على أنها أسلوب عملى فى التحليل الاجتماعى والتاريخى وقاعدة للاستراتيجية السياسية . وكثيرا ما كان يشكو فى الفترات التالية من حياته من الطريقة التى يستعملها بها أتباعه ، فبعضهم تصور أنها توفر عليهم مجهود البحث التاريخى بأن تهيء لهم حلولا جاهزة لكل بحث تاريخى بوساطة نوع من الجداول الجبرية يمكن أن يستخلصوا منها بنظرة واحدة إجابات آلية لجميع المسائل التاريخية إذا توافر لهم القدر الكافى من البيانات . وقد كتب ماركس ، فى خطاب أرسله فى أخريات أيامه إلى أحد الروس ممن كانوا يتراسلون معه ، عن إمكان اختلاف النمو رغم التماثل فى الظروف الاجتماعية ، ومثّل لذلك بتاريخ

طبقة العامة عند الرومان وبالبروليتاريا الصناعية فى أوروبا . فقال : عندما يدرس المرء هذه الصور من التطور كلا على حدة ، ثم يقارن بينها ، يستطيع بسهولة أن يكتشف مفتاح هذه الظاهرة ؛ ولكنه لن يستطيع أبداً أن يفعل ذلك بوساطة أى حل عام تهيئة نظرية تاريخية فلسفية معينة تفسر كل شىء لأنها لا تفسر شيئاً ؛ فميزتها الأولى أنها نظرية فوق التاريخ » .

وقد جاء أوسع ماكتبه عن هذه النظرية فى مؤلف اشترك فى وضعه مع انجلز فى سنة ١٨٤٦ ، عنوانه « الأيديولوجية الألمانية » لم ينشر منه قبل القرن الحالى سوى بعض الأجزاء . وهذا المؤلف مصنف غريب يضم أكثر من ستمائة صفحة ، وهو خليط من الهجمات الجدلية ضد الفلاسفة « النقديين » ومن عروض لوجهات نظر المؤلفين ، كما يتضمن — إلى جانب أشياء أخرى غريبه — بحثا محكما فى المغزى الاجتماعى لرواية « يوجين سو » : « أسرار باريس » ، وهى رواية شعبية مثيرة من روايات ذلك العهد يبدو فيها قدر كبير من العطف الظاهرى على المضطهدين والممتهنين من سكان أزقة باريس . ويضم الكتاب بعض الهجوم الشديد ، وفقرات تمتاز بقدرتها على النقد ، ولكن الكتاب فى مجموعه مضجر ملىء بالحشو يعالج آراء مؤلفين طواهم النسيان عن حق .

وإطار النظرية الجديدة إطار هيجيلى صميم ، وتذهب هذه النظرية إلى أن تاريخ البشرية عملية واحدة لا تكرار فيها تخضع لقوانين يمكن اكتشافها . وهى قوانين تختلف عن قوانين العلوم الطبيعية والكيمائية — لأنها غير تاريخية — التى تسجل اقترانات وتتابعات لظواهر متداخلة أينما وكلما كررت هذه الظواهر نفسها ؛ إنها قوانين أقرب شبها إلى قوانين علم طبقات الأرض وعلم النبات التى تتضمن المبادئ التى تتم تبعاً لها عملية تغيير مستمرة . وكل لحظة فى هذه العملية جديدة بمعنى أنها تتسم بسمات جديدة أو بمجموعات جديدة من السمات المعروفة ؛ ولكن رغم كونها فريدة وغير متكررة ، فإنها مع ذلك تنبعث من الحالة السابقة عليها مباشرة ، نتيجة لنفس الأسباب وخضوعاً لنفس القوانين الطبيعية التى أدت إلى انبعاث الحالة السابقة عليها من تلك التى قبلها . وبينما يذهب هيجل إلى أن الجوهر الفرد الذى يتكون التاريخ من تتابع حالاته هو الروح « الكونية الأبدية » التى

يتجسد الصراع الداخلي لعناصرها ، في الحروب بين الدول القومية مثلا ، ويكون كل عنصر من هذه العناصر متضمناً « فكرة » نامية يتطلب إدراكها بصيرة تعلو على الحواس ، فإن ماركس قد اتبع «فيورباخ»في هجومه على هذا الرأى بوصفه شطحة روحانية لا يمكن أن تقوم على أساسها أية معرفة . لأنه إذا كان العالم جوهرا ميتافيزيقيا من هذا النوع لما أمكن اختبار سلوكه بوساطة الأسلوب الوحيد في متناولنا الذى يمكن الوثوق به ، ألا وهو الملاحظة التجريبية ؛ ومن ثم كان لا يمكن التحقق من صحته بوساطة أساليب أى علم من العلوم . فالهيجيلي يستطيع طبعاً ، دون أن يخشى أية مناقضة ، أن يعزو أى شئ يريده إلى النشاط غير الملحوظ لجوهر غير محسوس ، تماما كما يعزو المسيحى المؤمن هذا الشئ إلى فعل « الله » ، ولكن ذلك لن يكون إلا على حساب عدم تفسير أى شئ بإعلان أن الجواب عليه سر خفى لا يمكن الوصول إليه بالوسائل التجريبية . وإن هذه الترجمة المجردة للأسئلة العادية إلى لغة أقل وضوحاً لهى التى تجعل الغموض الناجم يبدو جواباً حقيقياً . فتفسير ما يُعرف على ضوء مالا يُعرف هو بمثابة أن يأخذ المرء بإحدى يديه ما يتظاهر بإعطائه باليد الأخرى . وأيا كانت قيمة مثل هذه الطريقة فإنه لا يمكن اعتبارها مساوية للتفسير العلمى ، أى تقسيم المجموعة الضخمة المتباينة من الظواهر المحدودة الثابتة غير المتصلة في ظواهرها بمقتضى عدد قليل نسبياً من القوانين المترابطة . هذا هو رأى ماركس في الهيجيلية الأصلية .

بيد أن الحلول التى تضعها مذاهب « باور » و « روج » و « شتيرنر » وحتى « فيورباخ » نفسه ، التى تعرف باسم المدارس « النقدية » ، ليست أفضل من ناحية المبدأ . فهم بعد أن كشفوا الغطاء بلا رحمة عن أخطاء أستاذهم ، أخذوا هم أنفسهم يترددون في أوهام أسوأ منها ، إذ أن « روح النقد الناقد لذاته » التى جاء بها « باور » و « الروح البشرية التقدمية » التى أتى بها « روج » و « النفس المفردة ومقتنياتها التى لا تفترق عنها » التى بشر بها « شتيرنر » ، بل حتى فكرة الكائن البشرى الذى تتبع « فيورباخ » تطوره ، كانت جميعها تجريدات معممة جوفاء لا تحوى من المعنى أكثر مما يحويه ذلك البناء الأكثر روعة وخيالا الذى تقدمه الهيجيلية الأصلية والذى يماثلها في اللاجوهرية ، كما أنها ليست أصلح منه بوصفها شيئاً خارج الظواهر وعلة لها .

والمجال الوحيد للبحث عن مبدأ الحركة التاريخية هو ذلك المجال الذى يظل مفتوحاً للاختبار العلمى ، أى التجريبى ؛ ولما كانت الظواهر المراد تفسيرها هى تلك التى تتعلق بالحياة الاجتماعية ، فإن التفسير يجب أن يكمن بصورة ما فى طبيعة البيئة الاجتماعية التى تكوّن الملابسات التى يقضى فيها الناس حياتهم ؛ فى ذلك النسيج المتشابك من العلاقات العامة والخاصة الذى يكوّن الأفراد وحداته المعبرة ، والذى يمثلون فيه نقط الارتكاز وملتقى الخيوط المختلفة التى أطلق هيجل على جماعها المجتمع المدنى . وقد أظهر هيجل عبقرية بإدراكه أن نمو هذا النسيج ليس تقدما هادئا ، تعوقه صدمات عكسية من وقت لآخر ، على نحو ما أخذ به « سان سيمون » ، وتلميذه « كونت » ، بل هو نتاج توتر مستمر بين قوى متعارضة تكفل استمرار تحركه إلى الأمام بلا انقطاع ، وأن ظهور الفعل ورد الفعل وهم منشؤه أن اتجاها من الاتجاهات المتصارعة يفرض نفسه بعنف أكثر ؛ هذا الاتجاه أولا ثم ذاك ثانياً . وهذا التقدم غير مستمر ، لأن التوتر عندما يبلغ نقطة حرجة ينتهى إلى طوفان جائح ؛ فالزيادة فى الكمية تصبح تغييراً فى الماهية ؛ والقوى المتصارعة تنمو تحت السطح وتتجمع ثم تنفجر جهراً ؛ وعنف الصدام بين هذه القوى يؤثر فى الوسط الذى يحدث فيه فيغيره ؛ وهكذا يصبح الثلج ماء والماء بخاراً ؛ ويصبح الأرقاء أقناناً والأقنان أحراراً ؛ إن كل تطور ينتهى بثورة خلاقة ، فى الطبيعة وفى المجتمع على السواء . وهذه القوى هى فى الطبيعة قوى مادية وكيميائية وبيولوجية ، أما فى المجتمع فهى قوى اجتماعية فى نوعها .

وإذن ماهى القوى الاجتماعية التى ينشأ بينها الصراع ؟ يقول «هيجل» إنها تتمثل فى الأمم ، كل منها يمثل نمو حضارة أو « فكرة » بذاتها . أما «ماركس» فقد تبع «سان سيمون» و « فورييه» ، ولعله أيضاً تأثر بعض الشئ بنظرية « سيسموندى » فى الأزمات ، فأجاب على ذلك بأن هذه القوى هى أساساً قوى اقتصادية . وقد كتب يقول بعد ذلك بإثنى عشر عاماً : « لقد انتهيت إلى نتيجة هى أن العلاقات القانونية وكذلك صور الدولة لا يمكن أن تفهم فى ذاتها ، ولا أن تفسر بوساطة ما يسمى التقدم العام للعقل البشرى ، لأن جذورها تكمن فى الظروف المادية للحياة التى يسميها هيجل . . . المجتمع المدنى . إن التكوين التفصيلى للمجتمع المدنى

ينبغي أن نبحث عنه في الاقتصاد السياسي». والصراع هو دائماً صدام بين طبقات تحدد معالمها العوامل الاقتصادية؛ والطبقة تعرف بأنها مجموعة من الأشخاص في المجتمع يحدد حياتهم تمتعهم بوضع اقتصادي مشترك في ذلك المجتمع. أما وضع الفرد فيحدده الدور الذي يلعبه في عملية الإنتاج الاجتماعي، ويعتمد هذا بدوره مباشرة على طابع القوى الإنتاجية ودرجة نموها في مرحلة بذاتها. فجميع الأفراد يتصرفون بالطريقة التي يتصرفون بها بتأثير وضعهم الفعلي من العلاقات الاقتصادية بالنسبة لأعضاء مجتمعهم الآخرين. وأقوى هذه العلاقات يقوم، كما قال «سان سيمون»، على ملكية وسائل العيش: فإن أشد الحاجات كلها إلحاحاً على الإنسان هي الحاجة إلى البقاء.

وقد رأى «فيورباخ»، رغم كل فجاجته، أن الناس تأكل قبل أن تعقل. ولا سبيل إلى إشباع حاجتهم إلى الأكل إشباعا كاملا إلا بالسيطرة على وسائل الإنتاج المادي، أي السيطرة على القوة والمهارة البشرية. وعلى المصادر الطبيعية وعلى الأرض والماء والأدوات والآلات والعبيد. وتكون هذه الأشياء نادرة في أول الأمر بطبيعة الحال، ومن ثم فإنها تكون موضع منافسة تشتد حدتها لأن من يحصلون عليها يستطيعون التحكم في حياة أولئك الذين تنقصهم هذه الأشياء وفي تصرفاتهم؛ إلى أن يفقدوها بدورهم ويستولى عليها رعاياهم الذين يكتسبون القوة والدهاء في خدمتهم، فيخلعونهم ليحلوا محلهم ويستعبدونهم إلى أن يخلعهم آخرون بدورهم ويجردوهم مما يملكون. وقد ابتكرت أنظمة ضخمة تساعد المالكين في وقت ما في الاحتفاظ بما يملكون، لا عن طريق سياسة متعمدة، بل نتيجة لحالة لا شعورية تنبثق من الاتجاه العام نحو الحياة في مجتمع بذاته. وعلى حين يقول «هيجل» إن ما يضفى على أي مجتمع بذاته طابعه النوعي الخاص به هو الطابع القومي، باعتبار أن الأمة تمثل في نظره مرحلة بذاتها في نمو «روح الكون»، فإن ماركس قد ذهب إلى أن ما يضفي على المجتمع هذا الطابع هو نظام العلاقات الاقتصادية التي تحكم المجتمع المعين. وقد لخص «ماركس» هذا الرأي في نبذة معروفة على النحو التالي: «إن الناس في الإنتاج الاجتماعي الذي يقومون به يدخلون في علاقات محددة مستقلة عن إرادتهم ولا غنى عنها؛ وعلاقات الإنتاج هذه تقابل

مرحلة محدودة من نموّ قدراتهم المادية فى الإنتاج . ويؤلف جماع علاقات الإنتاج البنيان الاقتصادى للمجتمع — وهو الأساس الحقيقى الذى يقوم عليه البناء الفوقى ، القانونى والسياسى ، والذى تقابله صور محددة من الوعى الاجتماعى . ويحدد أسلوب الإنتاج فى الحياة المادية الطابع العام للعمليات الاجتماعية والسياسية والروحية فى الحياة . فليس وعى الناس هو الذى يحدد وجودهم ، بل على العكس يحدد وجودهم الاجتماعى وعيهم . وفى مرحلة معينة من نمو قوى الإنتاج المادية تدخل هذه القوى فى صراع مع علاقات الإنتاج القائمة أو — وهذا مجرد تعبير قانونى عن نفس الشىء — مع علاقات الملكية التى كانت هذه القوى تعمل داخل إطارها من قبل . وتتحول هذه العلاقات من صور لنمو قوى الإنتاج إلى أغلال تقيدها . وعندئذ تأتى فترة الثورة الاجتماعية . إذ مع تغيير الأساس الاقتصادى يتغير ، إن عاجلا أو آجلا ، البناء الفوقى الضخم بأكمله . بيد أنه يجب ، عند النظر فى مثل هذه التغيرات ، أن نميز دائماً بين الظروف الاقتصادية للإنتاج ، التى يمكن تحديدها بالدقة التى تتسم بها العلوم الطبيعية ، وبين الأوضاع القانونية أو السياسية أو الدينية أو الجمالية أو الفلسفية ، أو بالاختصار الأوضاع الأيديولوجية التى يدرك فيها الناسُ وجود الصراع ويشتركون فيه .

وكما أن من المستحيل أن نصل إلى حكم صحيح عن فرد ما بتسجيل رأيه عن نفسه فقط ، فكذلك من المستحيل أن نحكم على فترات ثورية بأكملها على أساس الطريقة الواعية التى ترى بها نفسها ؛ لأن مثل هذا الوعى يجب ، على النقيض من ذلك ، أن يفسر على أنه نتاج متناقضات الحياة المادية ، أى نتاج الصراع بين قوى الإنتاج الاجتماعى وعلاقاتها الفعلية . إذ أن أى نظام اجتماعى لا يختفى إطلاقا قبل أن تكون جميع قوى الإنتاج ، التى يمكن أن توجد فيه ، قد اكتملت نموا ، كما أن علاقات الإنتاج الجديدة التى تسمو عليها لا تظهر أبدا قبل أن تكون ظروف وجودها قد اكتمل نموها فى رحم المجتمع القديم . . . ولا تنشأ المشكلة نفسها ، إلا عندما تكون الظروف المادية التى لابد منها لحلها قد وجدت فعلا ، أو على الأقل فى طريقها إلى التكوين »[١] .

---

(١) (نقد الاقتصاد السياسى) ترجمة ق . ا . ستون ص — ١١

والمجتمع البورجوازى هو آخر صورة تأخذها هذه الصراعات . وبعد اختفائه سوف يختفى الصراع إلى الأبد . ستكون فترة ما قبل التاريخ قد أكملت حلقاتها ، ويبدأ تاريخ الفرد البشرى الحر فى آخر الأمر .

وقد أصبح ماركس الآن يعتقد أن العامل الفعال الوحيد الذى يجعل شعبا مختلفا عن شعب آخر ، ويجعل مجموعة ما من المعتقدات والأنظمة متعارضة مع مجموعة أخرى ، هو البيئه الاقتصادية التى يقوم فيها هذا الشعب أو هذه المجموعة ، أى علاقة الطبقة الحاكمة من المالكين بأولئك الذين يستغلونهم ، وهى علاقة تنشأ عن نوع التوتر المستمر بينهم . وذهب ماركس إلى أن الباعث الأساسى على العمل فى حياة الانسان هو علاقته بالطبقات المختلفة فى الصراع الاقتصادى ، وهو باعث تزيد قوته لأن الإنسان لا يدركه ؛ وأن العامل الذى يجعل فى وسع أى إنسان أن يكون موفقا فى تنبئه بسلوك فرد بعينه هو وضع الفرد الاجتماعى الفعلى ؛ ما إذا كان خارج الطبقة الحاكمة أو داخلها ، وما إذا كان خيره الشخصى يعتمد على نجاحها أو إخفاقها ، وما إذا كان وضعه يقتضى المحافظة على الوضع القائم أم لا . فإذا عرف ذلك لم تعد دوافعه وعواطفه الشخصية نسبيا ذات أهمية فى البحث : فليكن أنانيا أو كريما ، متسامحا أو حقيراً ، ماهرا أو خبيثا ، طموحا أو متواضعا ، فإن صفاته الطبيعية سوف تتحكم فيها الظروف وتوجهها وجهة بذاتها أيا كانت ميوله الطبيعية . والواقع أن الحديث عن « الميل الطبيعى » أو عن « الطبيعة البشرية » التى لا تتغير هو حديث مضلل . فالميول يمكن تقسيمها إما تبعاً للمشاعر الشخصية التى تتولد عنها ، وهذا أمر غير مهم فى مجال التنبؤ العلمى ، أو تبعاً لأهدافها الفعلية ، وهذه تتكيف بالظروف الاجتماعية . والإنسان يتصرف قبل أن يبدأ فى التفكير فى أسباب تصرفه أو فى مبرراته : ومعظم أعضاء أى مجتمع يتصرفون بطريقة مماثلة أيا كانت الدوافع الشخصية التى تبدو لهم أنها السبب فى تصرفهم بهذه الطريقة . وإن كان يحجب ذلك أن محاولة الناس إقناع أنفسهم بأن تصرفاتهم إنما تمليها المعتقدات الدينية أو الأخلاقية قد جعلتهم يتجهون إلى إقامة حواجز عقلية محكمة حول سلوكهم . كما أن هذه الحواجز العقلية ليست مجردة تماماً من القدرة على التأثير على التصرفات ، لأنها وقد نمت فأصبحت أنظمة

هائلة ، مثل قواعد الأخلاق أو المنظمات الدينية ، كثيرا ما تظل باقية فترة طويلة بعد أن تكون الحاجة إلى تفسير وجودها قد اختفت . وهكذا تصير هذه الحواجز نفسها جزءا من الموقف الموضوعى ، أى جزءا من العالم الخارجى الذى يؤثر فى سلوك الأفراد ، وتعمل بنفس الطريقة التى تعمل بها العوامل الثابتة ، مثل الجو والتربية ، والكائن المادى ، فى علاقتها بالأنظمة الاجتماعية .

وفى كتاب « الأيديولوجية الألمانيـــة » يفحص ادعاءات الهيجليين الجدد كل على حدة ، وينال كل منها ما يستحقه كذلك ، ويتناول قسم منه عنوانه « العائلة المقدسة » الإخوة « برونو باور » و « ادجار باور » و « اجبرت باور » فى إيجاز وبعنف شديد ، فيمثلهم على هيئة ثلاثة باثعين متجولين حقراء يتاجرون فى أدوات ميتافيزيقية من صنف واطىء ، ويعتقدون أن مجرد وجود « نخبة » متأنقة ناقدة ، ارتفعت عن الغوغاء الأوغاد بمواهبها الفكرية ، يكفى وحده لتحرير تلك الجماعات من الإنسانية التى تستحق التحرر . وهذا الاعتقاد فى قدرة الانفصال عن الصراع الاجتماعى والاقتصادى على تغيير المجتمع يراه ماركس اتجاها أكاديميا انقلب جنونا ، وهو يشبه موقف النعامة ، وسوف تكتسحه الثورة الحقيقية ، التى تدل جميع الدلائل على أن وقوعها قد أصبح وشيكا . كما اكتسحت بقية العالم الذى يمت إليه مثل هذا الموقف . ويتناول الكتاب « شيترنر » بصورة أكثر تطويلا ، ليتعقبه خلال خمسمائة صفحة من التهكم المرير تحت عنوان « القديس ماركس » ويلاحقه بالإهانات والسخرية . فقد ذهب « شيترنر » إلى أن جميع البرامج والمثل والنظريات ليست سوى سجون مصطنعة للعقل والروح ، وأنها وسيلة للضغط على الإرادة ، لكى تخفى عن الإنسان وجود قدراته الخلاقة اللانهائية الخاصة به ، ومن ثم وجب تدمير جميع النظم ، لا لأنها سيئة ، ولكن لمجرد أنها نظم ؟ ولن يصبح الإنسان سيد نفسه حقيقة ، ويبلغ مداه الكامل بوصفه كائنا بشريا ، إلا إذا تحقق ذلك فتحرر من أغلاله غير الطبيعية . وقد عالج الكتاب هذا الرأى ، الذى كان له تأثير عظيم على كل من « نيتشة » و « باكونين » ، على أنه ظاهرة مرضية ، وأنها صيحة ألم يطلقها عصابى مصاب بالشعور بالاضطهاد ، ومجالها الطب لا النظريات السياسية .

أما « فيورباخ » فقد عومل برقة أكثر ؛ فقد كانت كتابته أكثر اتزاناً ، وبذل مجهودا خالصاً ، وإن كان فجا ، فى كشف الغطاء عن معميات المثالية . وقد أعلن ماركس فى كتابه « أحد عشر بحثا فى فيورباخ » الذى كتبه فى هذه الفترة نفسها أنه بينما كان «فيورباخ» محقا فيما ارتآه من أن الإنسان هو نتاج الظروف والتربية إلى حد كبير ، فإنه لم يتابع سيره حتى يدرك أن عمل الناس يغير الظروف ، وأن المربين أنفسهم إنهم إلا أبناء عصورهم . وقد قسم مذهب«فيورباخ» المجتمع تقسيما صناعيا إلى جزئين : الجماهير التى تتعرض وهى مكتوفة اليدين لجميع أنواع التأثير ، ومن ثم يجب تحريرها ؛ والمعلمين الذين ينجحون بطريقة ما فى الاحتفاظ ببعض المناعة ضد تأثير البيئة . على أن العلاقة بين العقل والمادة ، بين الإنسان والطبيعة ، هى علاقة المبادلة ؛ ولو أن الأمر لم يكن كذلك لتحول التاريخ إلى علم من العلوم الطبيعية . ويثنى ماركس على « فيورباخ » لأنه أثبت أن الدين يضلل الناس باختراع عالم وهمى لكى يعوض من شقائهم فى العالم الحقيقى ، وهكذا يكون الدين فى عبارة ماركس الشهيرة « أفيون الشعوب » ومن ثم فإن نقد الدين ينبغى أن يكون « انتروبولوجيا » فى طابعه ، وأن يأخذ صورة التحليل لأصوله العلمانية . ومع ذلك فإن « فيورباخ » لم ينج من الاتهام بأنه قد ترك المهمة الرئيسية دون مساس ، وأنه نظر إلى الدين على أنه المسكن الذى يهدئ من حدة الآلام التى تسببها متناقضات العالم المادى ، وعجز عن أن يرى أن هذه المتناقضات يجب فى هذه الحالة زوالها ؛ ويجب أن تتم الثورة ، التى تستطيع وحدها أن تحقق ذلك ، فى العالم المادى ، فى العالم الحقيقى المكون من الناس والأشياء ، لا فى البناء الفوقى — عالم الفكر . « فالفلاسفة قد قدموا لنا فيما مضى تفسيرات مختلفة للعالم ، ومهمتنا هى أن نغيره » .

ولم يكن ما لقيه من يسمون « بالاشتراكيين الحقيقيين » ، « جرون » و « هيس » خيرا من ذلك ؛ صحيح أنهما كتبا عن الموقف الواقعى ، ولكنهما ، إذ وضعا المثل العليا فوق المصالح فى الأهمية ، لم يكونا أكثر حظاً فى رؤية الحقائق بوضوح . وقد آمنا فعلا بأن عدم المساواة السياسية والقلق العاطفى العام فى جيلهما يرجعان إلى متناقضات اقتصادية لا سبيل إلى إزالتها إلا بالإلغاء الكامل للملكية

الخاصة . بيد أنهما اعتقدا أن التقدم الفنى الذى جعل ذلك ممكنا لم يكن غاية فى ذاته بل وسيلة ، وأن التصرفات لا يمكن الحكم عليها إلا بالالتجاء إلى المشاعر الأخلاقية ، وأن استخدام القوة ، أيا كان نبل الهدف الذى تستخدم من أجله ، يهدم الغرض منه ، إذ يحول طرفى النزاع إلى وحوش ضارية ويجعلهما غير قادرين على التمتع بالحرية الحقيقية بعد انتهاء النزاع . فإذا أريد للناس أن يتحرروا وجب أن يتم ذلك بالوسائل السلمية المتمدينة وحدها ، وأن يكون ذلك بأكبر سرعة وبأقل ألم ممكنين قبل أن ينتشر التصنيع على نطاق يجعل الحرب الطبقية أمرا لا مندوحة عنه . وفى الواقع ستصبح القوة ، إذا لم يتم ذلك ، هى الطريقة العملية الوحيدة ، والقوة لابد أن تفشل فى تحقيق أهدافها حتما ؛ لأن أى مجتمع يقوم بحد السيف ، حتى ولو كانت العدالة فى جانبه من مبدأ الأمر ، لابد أن يتحول إلى طغيان طبقة واحدة على بقية المجتمع ، وهذا مالا يتفق والمساواة البشرية التى تسعى الاشتراكية إلى خلقها . وعارض « الاشتراكيون الحقيقيون » مبدأ ضرورة الحرب الطبقية العلنية ، على أساس أنها تعمى العمال عن الحقوق ، والمثل التى حاربوا من أجلها . ولا سبيل إلى تحقيق تناسق دائم بين مختلف المصالح إلا بمعاملة الناس منذ البداية باعتبارهم أكفاء ، وبوصفهم كائنات بشرية ، أى بنبذ القوة والالتجاء إلى الشعور بالتضامن الإنسانى ، والإحساس بالعدالة والعواطف الكريمة الكامنة فى الجنس البشرى . ويجب ، قبل كل شىء آخر ، ألا يرفع العبء عن كاهل البروليتاريا لكى يلقى على كاهل طبقة أخرى . وقد ذهب « الاشتراكيون الحقيقيون » إلى أن ماركس وحزبه يريدون مجرد قلب الأوضاع بين الطبقات القائمة ، وأن يجردوا البورجوازية من قوتها لا لشىء سوى أن يدمروها ويستعبدوها . بيد أن هذا ، فضلا عن أنه غير مقبول أخلاقيا ، من شأنه أن يؤدى إلى ترك الحرب الطبقية نفسها باقية ، ومن ثم فهو يخفق فى إصلاح المتناقضات الموجودة بالوسيلة الوحيدة الممكنة ، عن طريق تنسيق المصالح المتصارعة وتحويلها إلى مثل أعلى واحد مشترك.

وقد نظر ماركس إلى ذلك كله باعتباره عبارات حماسية لا قيمة لها . وقد أبان فى قدر من الملل أن النظرية كلها تقوم على فرض أن الناس ، بما فيهم الرأسماليين ، يقتنعون بالحجج العقلية ، وأنهم على استعداد ، عندما تتوافر الظروف المواتية ،

للتسليم طواعية فى القوة التى حصلوا عليها عن طريق المولد أو الثروة أو الكفاية فى سبيل مبدأ أخلاقى حرصا منهم على خلق عالم أكثر عدلا . وقد اعتبر «ماركس» هذا الرأى أقدم الأوهام العقلية التى أكل عليها الدهر وشرب وأكثرها شيوعا بين الناس. فقد رآها فى أسوأ صورها فى إيمان أبيه ومعاصريه بأن العقل والطيبة الخلقية لابد أن ينتصرا فى النهاية ؛ وهى نظرية أثبت عدم صحتها منذ أمد طويل الأحداث التى وقعت فى الفترة السوداء التى أعقبت الثورة الفرنسية . والدعوة إليها الآن ، كما لو كان المرء ما زال يعيش فى بداية القرن الثامن عشر ، تعنى إما أن الداعى إليها غبى غباء مطبقاً ، وإما أنه يحاول الالتجاء إلى مجرد ألفاظ تقال ، وإما أنه يلجأ عامدا إلى عالم من الأحلام فى الوقت الذى يتطلب فيه الأمر بحث الموقف بحثا علميا . وقد حرص ماركس على أن يذكر أنه هو نفسه لم يقع فى الخطأ المضاد ؛ فهو لم يعترض ببساطة على هذه النظرية الخاصة بالطبيعة البشرية ، ولم يقل إنه بينما يفترض أصحاب هذه النظريات أن الإنسان كريم وعادل بطبعه فإنه يراه طماعا أنانيا ليس فى وسعه أن يتصرف بدون دافع من مصلحة ذاتية . فإن من شأن ذلك أن يكون رأيا ذاتيا وغير موضوعى مثل رأى خصومه ، فكلا الرأيين يفسده ذلك الوهم الذى يقول : إن أعمال الناس إنما يحددها فى النهاية طابعهم الأخلاقى الذى يمكن أن يوصف فى معزل نسبى عن بيئتهم . ولكن «ماركس» ، الذى ظل مخلصا لمنهج هيجل ، وإن لم يكن كذلك بالنسبة لنتائجه ، ذهب إلى أن ما يجعل أهداف الإنسان ما هى عليه إنما هو وضعه الاجتماعى ، أى الاقتصادى ، الذى يعيش فيه ، وأن هذه الأهداف تكونت بهذه الطريقة سواء عن علم منه أو عن غير علم . فأيا كانت آراء الإنسان فإن تصرفاته توجهها مصالحه الحقيقية ، أى مقتضيات وضعه المادى ؛ والأهداف الواعية للأغلبية العظمى من البشر ، على الأقل لا تتعارض ، مع مصالحهم الحقيقية ، رغم أن هذه الأهداف قد تتخفى أحيانا فى صورة من أهداف سياسية أو أخلاقية أو جمالية أو عاطفية ، أو ما إلى ذلك تتسم باستقلالها وموضوعيتها واختفاء المصلحة الذاتية وراءها ؛ وقد أفلح معظم الأفراد فى إخفاء اعتمادهم على بيئتهم وعلى وضعهم ، وخاصة فيما يتعلق بارتباطاتهم الطبقية ، حتى عن أنفسهم إلى حد أنهم آمنوا عن إخلاص بأن تغيير ما فى نفوسهم من شأنه أن يؤدى إلى قلب أسلوب حياتهم بالكلية ، وهو أكبر

خطأ وقع فيه المفكرون الحديثون . ويرجع جزء من السبب فى نشأة هذا الخطأ إلى « الفردية البروتستانتية » التى نشأت بدورها كأيديولوجية تقابل نمو حرية التجارة والإنتاج ، وعلمت الناس أن يصدقوا أن الفرد يقبض بيديه على وسائل سعادته ، وأن الإيمان والجد يكفيان وحدهما لتحقيقها ، وأن كل إنسان فى مقدوره أن يحقق خيره الروحى ورخاءه المادى ، وأنه لا يجوز له أن يلوم إلا نفسه فى نهاية الأمر على ضعفه وشقائه . وذهب «ماركس» إلى نقيض ، ذلك فأخذ بأن حرية العمل يقيدها تقييدا شاملا الوضع المحدد الذى يحتله الشخص على الخريطة الاجتماعية . وكل أفكار الصواب والخطأ ، والعدالة والظلم ، والإيثار والأنانية ، غير ذات موضوع ، فهى كلها مظاهر تنصب كلية على حالة حقيقية فكرية ليست على الرغم من كونها حقيقية لا زيف فيها ، سوى أعراض للحالة الواقعية لصاحبها . وأحياناً يستطيع المريض نفسه ، عندما يكون على دراية بعلم العوارض المرضية ، أن يشخص حالته تشخيصاً دقيقاً ؛ وهذا هو فى الواقع ما يعنيه الفلاسفة الاجتماعيون بالبصيرة الحقيقية ، غير أن ما يحدث فى معظم الحالات هو أن يبدو العرض المرضى وكأنه الحقيقة الوحيدة التى تشغل كل انتباه المريض . ولما كانت الأعراض فى هذه الحالة هى مجرد حالات عقلية ، فقد تولد عن ذلك الوهم ، الذى لا يقبل تفسيرا ، وهو أن الواقع ذو طابع عقلى أو روحى ، أو أن التاريخ يمكن تغييره بوساطة قرارات منعزلة تتخذها إرادات بشرية حرة من القيود . فالمبادئ والقضايا ، إذا لم تكن مصحوبة بتعبيرات عن المصالح الحقيقية ، ليست سوى عبارات جوفاء ؛ وقيادة الناس على هديها إنما هو بمثابة قيادتهم إلى مأزق لا مخرج منه، إلى حالة يسوقهم فيها فشلهم فى فهم حقيقة موقفهم إلى الفوضى والدمار .

ولكى يستطيع الإنسان أن يغير العالم يجب عليه أولا أن يفهم المادة التى يتناولها . والبورجوازية التى لا تريد تغيير هذا العالم ، بل تريد أن تحافظ على الحالة القائمة ، إنما تتصرف وتفكر على هدى مفاهيم هى من نتاج مرحلة معينة من مراحل نموها . وهى بالذات التى تعمل على المحافظة على هذه الحالة مؤقتا . وتتقبل البروليتاريا دون مناقشة، وهى التى من مصلحتها تغيير العالم، هذا الجهاز الفكرى للطبقة الوسطى مع أنه جهاز نما من حاجات الطبقة الوسطى وظروفها، وذلك على الرغم من الاختلاف

الكامل فى مصالح الطبقتين . إن عبارات العدالة والحرية تمثل شيئا محددا بقدرما ، عندما تأتى على لسان أحد المتحررين من أبناء الطبقة الوسطى ، إنها تمثل اتجاهه نحو أسلوبه هو فى الحياة وعلاقاته ، الفعلية أو المرغوب فيها ، نحو أعضاء الطبقات الاجتماعية الأخرى . ولكنها تكون أصواتا جوفاء عندما ينطق بها بروليتارى ، حيث أنها فى هذه الحالة لاتصف شيئا واقعيا فى حياته وإنما تكشف عن مجرد حالته العقلية المهوشة ، وذلك نتيجة لما لهذه العبارات من تأثير مغناطيسى ، فهى ، بما تؤدى إليه من خلط القضايا بعضها ببعض ، لا تكون عديمة الجدوى بالنسبة له فحسب ، بل هى تعرقل قدرته على التصرف أو تشلها بالكلية أحياناً . ولذلك فإن « التبادليين » و « الاشتراكيين الحقيقيين » و « الفوضويين الروحانيين » ، أيا كان نقاء دوافعهم ، أعداء للبروليتاريا ، وأشد خطرا عليها من البورجوازية ، لأن البورجوازية عدو واضح على الأقل ، يمكن تعليم العمال إلا يثقوا فى كلماتها وأفعالها؛ أما الآخرون ، الذين يدعون تضامنهم مع العمال ، فهم ينشرون الخطأ والتضليل فى صميم معسكر البروليتاريا ، ومن ثم يضعفونه فى صراعه المقبل . ولذلك يجب العمل على إفهام العمال أن النظام الصناعى الحالى ، مثله مثل النظام الإقطاعى من قبله ومثل أى نظام اجتماعى آخر يتطلب بقاءهم كطبقة لاستمرار وجوده ، هو ديكتاتورية حديدية فرضتها الأحداث نفسها ، ولا يستطيع أى فرد أن يهرب منها سواء أكان سيداً أم عبدا . وجميع الرؤا الحالمة عن الحرية البشرية ، وعن عهد سيكون الناس فيه قادرين على تنمية مواهبهم الطبيعية إلى أقصى حدودها بحيث يعيشون ويبتكرون تلقائيا ولا يعتمدون على الآخرين فى حريتهم فى أن يفعلوا ويفكروا كما يحلو لهم ، سوف تظل حلما غير قابل للتحقيق طالما كان الصراع فى سبيل السيطرة على وسائل الإنتاج قائما . إذ لم يعد هذا الصراع مجرد صراع على وسائل العيش ؛ فالمخترعات والمكتشفات الحديثة قد قضت على الندرة الطبيعية، فأصبحت الآن ندرة مصطنعة خلقها نفس الصراع فى سبيل الحصول على أدوات جديدة ، مما يودى بالضرورة بما يخلقه من احتكارات ، إلى تركيز القوة فى أحد طرفى السلم الاجتماعى ، وزيادة الفاقة والانحطاط فى الطرف الآخر ؛ وليس هنالك سوى علاج واحد يستطيع أن يقضى على هذه الهوة التى تزداد اتساعا ، ذلك هو اختفاء الصراع الطبقى . بيد أن جوهر الطبقة هو منافستها لطبقات

غيرها ، ومن ثم فإن هذا الهدف لا تحققه المساواة بين الطبقات ، فهذه فكرة خيالية ؛ بل يحققه إلغاء الطبقات نفسها إلغاء تاما .

والإنسان فى نظر ماركس ، بقدر ما كان فى نظر العقليين السابقين ، يملك بطبيعته إمكانيات الحكمة والابتكار والحرية . وإذا كان طابعه قد تغير الآن بحيث لم يعد يمكن تمييزه ، فرد ذلك إلى الحرب الطويلة الوحشية التى عاش فيها هو وجدوده تبعا للآراء الانثروبولوجية السائدة . منذ أن تحول المجتمع عن الشيوعية البدائية التى نما فيها فى الأصل ، وإلى أن يبلغ الإنسان هذه الحالة مرة أخرى ، ويجمع إليها جميع الانتصارات الفنية والروحية التى حققها الجنس البشرى أثناء تخبطه الطويل فى تيه من الصحراء ، فلا سبيل إلى تحقيق سلام أو حرية ؛ ولقد كانت الثورة الفرنسية محاولة لتحقيق ذلك عن طريق تغيير الأوضاع السياسية وحدها — وهو ما لم تكن البورجوازية تطمع فى أكثر منه إذ أنها كانت تملك الواقع الاقتصادى بالفعل — ومن ثم فإن كل ما نجحت فى تحقيقه لم يزد على رفع البورجوازية إلى وضع مسيطر بأن دمرت نهائيا البقايا الفاسدة لنظام إقطاعى لم يعد له وجود (وهذا فى الواقع هو دور الثورة الكبرى التاريخى الذى كان مقدراً لها فى مرحلة النمو التى حدثت فيها) . وكان لابد لنابليون أن يتم هذه المهمة ، وهو الذى لا يستطيع أحد أن يتهمه بأنه كان يريد عامدا أن يحرر البشرية ، وأيا كان دافعه الشخصى إلى فعل ما فعل فإن بيئته التاريخية جعلته حتما أداة للتغيير الاجتماعى ، وتقدمت أوروبا عن طريقه خطوة أخرى نحو تحقيق مصيرها .

وقد سار التحرير التدريجى للجنس البشرى فى اتجاه محدد لا رجوع فيه ؛ ففى مطلع عصر جديد تتحرر طبقة كانت مظلومة قبل ذلك ، وكل طبقة تدمر لا تظهر مرة أخرى أبدا . والتاريخ لا يعود إلى الوراء أو يدور فى حلقات ؛ فكل انتصاراته نهائية لا رجعة فيها . ومعظم الدساتير المثالية السابقة كانت عديمة القيمة لأنهـــا تجاهلت القوانين الواقعية للنمو التاريخى وأحلت محلها نزوات المفكرين الشخصية أو أهواءهم . ومعرفة هذه القوانين ضرورية للعمل السياسى الفعال . فالعالم القديم قد أخلى مكانه للعصور الوسطى ، والعبودية للإقطاع ، والإقطاع للبورجوازية الصناعية . ولم تكن هذه التغيرات وليدة تطور سلمى ، بل ولدت فى حروب

وثورات ، لأنه ما من نظام قائم يخلى مكانه لنظام يليه دون صراع .

والآن لم يعد هناك سوى طبقة واحدة ظلت مغمورة تحت مستوى غيرها من الطبقات مستعبدة لا مال لها ولا أرض ؛ تلك هى البروليتاريا التى خلقها تقدم العلوم والمخترعات والتى لا تفتأ تساعد الطبقات التى فوقها للتخلص من نير الظالم المشترك ، وحتى إذا تحقق هذا الهدف المشترك تسلط عليها حلفاؤها السابقون أنفسهم ، حلفاؤها الذين أصبحوا الطبقة المنتصرة الجديدة ، فانقلبوا سادة بعد أن كانوا عبيدا منذ وقت قريب . والبروليتاريا هى أدنى درجة فى السلم الاجتماعى : فليس هناك طبقة تحتها ؛ فهى إذا حررت نفسها فإنما تحرر الجنس البشرى كله . فصراعها ليس إذن صراعاً من أجل حقوق قسم مضطهد من المجتمع ؛ إن الحقوق الطبيعية ليست سوى ناحية مثالية من موقف البورجوازية تجاه قداسة الملكية الخاصة ، والحقوق الطبيعية الوحيدة هى تلك التى يمنحها التاريخ ، ألا وهى حق القيام بالدور الذى فرض على الطبقة التى ينتمى إليها المرء . وللبورجوازية ، بهذا المعنى ، كل الحق فى شن معركتها الأخيرة ضد الجماهير وإن كانت مهمتها مهمة ميئوساً منهـا ، فهى تهزم بالضرورة كما هزمت الأرستقراطية الإقطاعية فى حينها : أما الجماهير فهى تقاتل فى سبيل الحرية ، لا لأنها تريد ذلك ، لكن لأنها لا بد أن تفعله . فالقتال هو شرط بقائها ، والمستقبل لها ؛ وهى إذ تقاتل فى سبيله إنما تقاتل ، مثلها مثل كل طبقة ناهضة ، ضد عدو حكم عليه بالفناء ، ومن ثم فهى تقاتل من أجل الإنسانية جمعاء . ولكن بينما انتهت كل الانتصارات الأخرى بأن رفعت إلى مقاليد السلطان طبقة محكوم عليها بالفناء فى النهاية ، فإن هذا الصراع لن يتبعه صراع آخر ، فهو صراع قدر له أن ينهى هذه الصراعات عن طريق إلغاء الطبقات ، وأن ينهى الدولة نفسها ، التى ظلت حتى ذلك الوقت أداة فى يد طبقة واحدة ، بإذابتها فى مجتمع حر ، ذلك لأنه مجتمع لا طبقات فيه . ويجب أن تفهم البروليتاريا أنه ما من سبيل إلى أى تفاهم حقيقى مع العدو ، وأنه قد يعن لها أن تعقد تحالفا مؤقتا معه ضد خصم مشترك ، ولكنها لا بد لها فى النهاية من أن تنقلب ضده . وفى البلاد المتخلفة ، حيث ما برحت البورجوازية نفسها تقاتل فى سبيل القوة ، يجب على البروليتاريا أن تنضم إليها ، على ألا تسأل نفسها عن ماهية

المثل العليا للبورجوازية ، بل عما عساها «مرغمة» على عمله فى هذا الموقف بالذات وأن تكيف أساليبها وفق ذلك . وما دام التاريخ محددا — ومن ثم فإن النصر سوف يكون من نصيب الطبقة الناهضة أراد فرد بالذات ذلك أو لم يرده — فإن سرعة وقوع ذلك ومدى أثره وإلى أى حد سيكون متفق مع الإرادة العامةالواعية، سوف يتوقف كله على الابتكار البشرى ، وعلى درجة فهم الجماهير لمهمتها وشجاعة زعمائها وكفايتهم .

ومن ثم فإن واجب الفيلسوف المعاصر ينحصر كله ، فى رأى ماركس ، فى إيضاح ذلك للجماهير وإعدادهم لمصيرهم . بيد أن الناس طالما تساءلوا كيف يمكن استنتاج قاعدة أخلاقية — أى أمر بأن يفعل المرء هذا الشيء أو ذاك — من حقائق نظرية تاريخية ؟ فالمادية التاريخية قد تفسر ما يحدث فعلا ، ولكنها لا تستطيع — لأنها تتعلق بما هو حادث فقط — أن تجيب بدقة على أسئلة أخلاقية ، أى أن تدلنا على ما يجب أن يكون . بيد أن ماركس ، مثل هيجل ، ينبذ تماماً هذا التمييز . فالأحكام المتعلقة بالحقائق لا يمكن أن نميزها تمييزاً دقيقاً عن الأحكام المتعلقة بالقيم ، لأن جميع أحكام الإنسان تتأثر بنشاط عملى يتم فى وسط اجتماعى بذاته . وآراء المرء فيما يتعلق باعتقاده بما هو موجود ، وفيما يتعلق بما يريد أن يفعله به تعدل بعضها البعض . فإذا كانت الأحكام الأخلاقية تتسم بالسلامة الموضوعية — وهى إذا لم تكن كذلك لا يمكن ، تبعاً لماركس ، أن تكون صائبة أو خاطئة على السواء — فإنها يجب أن تنصب على ظواهر تجريبية ، وأن يكون من الممكن التحقق من صحتها على ضوء هذه الظواهر . وقد رفض ماركس أية فكرة تتعلق ببصيرة أخلاقية خالصة لا تجريبية أو بمنطق أخلاقى لا تجريبى . والوسيلة الوحيدة التى يمكن عن طريقها إثبات أن شيئاً من الأشياء هو خير أو شر ، أو هو خطأ أو صواب ، هى بالتدليل على أنه يتفق أو لا يتفق مع العملية التاريخية ، يدعمها أو يعرقلها ، وعلى أنه سيبقى أو سيفنى . وجميع القضايا التى خسرها أصحابها إلى الأبد تجعل هذه الحقيقة نفسها شراً وخطأ ، بل هذا فى الواقع هو ما يتضمنه معنى هذه الكلمات . على أن هذا معيار تجريبى خطر ، حيث إن بعض القضايا التى تبدو خاسرة ، قد تكون فى الواقع فى حالة من الهزيمة المؤقتة ، وسوف تنتصر فى النهاية .

ويستمد ماركس وجهة نظره عن الحقيقة بصفة عامة من هذا الوضع مباشرة. وقد اتهم أحياناً بأنه يذهب إلى القول بأنه ما دام الإنسان مسيراً كلية فى تفكيره بوساطة البيئة الاجتماعيـــة ، فحتى لو كانت بعض أقواله صحيحة من الناحية الموضوعية ، فإنه لن يستطيع أن يتبين ذلك لأن عوامل مادية هى التى تجعله يعتقد أنهـا صحيحة ، وليست صحتها هى التى تجعله يعتقد ذلك . على أن أقوال ماركس فى هذا الموضوع مبهمة إلى حد ما ؛ وإن كان يمكن القول بصفة عامة بأنه كان يقبل التفسير العـادى لمـا يعنيه القول بأن نظرية أو فرضا ما من نظريات أو فروض العلوم الطبيعية أو التجربة الحسية العـادية ، هو خطأ أو صواب . ولكنه لم يكن يهتم بهذا ، رغم أنه أكثر أنواع الحقيقة التى ناقشها الفلاسفة شيوعاً . فإن ما كان يهمه هو الأسباب التى تؤدى إلى الاقتناع بأن أقوالا اجتماعية أو أخلاقية أو تاريخية بذاتها هى خطأ أو صواب عندما يكون واضحاً ، وضوحا قاطعاً ، أن حجج الأطراف المتعارضة لا يمكن البت فيها عن طريق الالتجاء مباشرة إلى وقائع تجريبية فى متناول هــــذه الأطراف . ولعله كان يوافق على أن القضية المجردة التى تقول : إن نابليون مات فى المنفى ، قضية يقبلها المؤرخ البورجوازى والاشتراكى على السواء على أنها حقيقة . ولكنه كان سيستطرد فى هذه الحالة إلى القول بأنه ما من مؤرخ حقيقى يقتصر على سرد قائمة بالأحداث والتواريخ ؛ وإن محاسن ما يسرده المؤرخ عن الماضى ، وادعاءه بأن ما يسرده ليس مجرد سجل تاريخى ، إنما يتوقف على اختياره للمفاهيم الأساسية وقدرته على التوكيد والترتيب ، كما أن عملية الاختيار ذاتها تكشف عن اتجاهه إلى توكيد هذا الحادث أو ذاك أو هذا العمل أو ذاك ، من حيث هو حادث أو عمل ، هام أو تافه من شأنه أن يدعم التقدم البشرى أو يعرقله ، هو خير أو شر . وواضح تمام الوضوح أن هذا الاتجاه يتأثر بالأصل الاجتماعى والبيئة والارتباطات الطبقية .

وهذا الاتجاه هو الذى تقوم عليه وجهة نظره الهيجلية الخالصة من أن الحرية ومعرفة قوانين الضرورة شيئان متطابقان . فإذا عرفت فى أى اتجاه تعمل العملية التاريخية فإنك تستطيع أن تجعله نفس اتجاهك أو لا تجعله ؛ وإذا لم تجعله وحاربته فإنك تمهد السبيل لدمارك أنت ، حيث إنك ستهزم بالضرورة أمام تطور التاريخ

فإذا اخترت هذا الطريق عامداً فإنك تتصرف بطريقة لا عقلية . وليس هناك من يستطيع أن يختار بحرية بين بدائل مختلفة سوى الكائن « العقلى » ، فإذا كان أحد هذه البدائل يؤدى به إلى الدمار الذى لا سبيل إلى مقاومته ، فإنه لا يستطيع أن يختاره بحرية ، لأن القول بأن تصرفا ما هو تصرف حر ، بالمعنى الذى يستعمل به ماركس هذا الاصطلاح ، هو بمثابة إنكار أنه تصرف يناقض العقل . فالبورجوازية بوصفها طبقة ، مصيرها فعلا إلى زوال ، ولكن أفراداً منها قد يتبعون العقل وينقذون أنفسهم (ويستطيع ماركس أن يقول : إنه فعل ذلك هو نفسه) بأن يهجروها قبل أن تنهار نهائياً . فهم يستطيعون أن يحصلوا على حريتهم باكتشاف الحالة الحقيقية لميزان القوى والتصرف تبعاً لذلك . وهكذا تعنى الحرية معرفة الضرورة التاريخية . على أن استخدام ماركس لألفاظ مثل « صواب » و « حر » و « عقلى » ، عندما لا ينزلق على غير شعور منه إلى اللغة العادية ، مدين بطابعه الغريب إلى أنه استعمال مستمد من آرائه الميتافيزيقية ، ومن ثم فهو يختلف اختلافا فنياً عن استعمالها فى الحديث الدارج الذى يُقصد به إلى حد بعيد تسجيل ونقل شىء لا يعنيه كثيراً ، وهو التجربة الشخصية للأفراد ، أى حالاتهم العقلية أو البدنية كما تكشف عنها الحواس أو كما تنكشف فى الوعى الذاتى .

هذه هى الخطوط العريضة لنظرية التاريخ والمجتمع التى يتكون منها الأساس الميتافيزيقى للشيوعية . وهى مذهب واسع شامل ، يستمد بناءه من هيجل ، ومبدأه الديناميكى من «سان سيمون» واعتقاده بتفوق المادة من «فيورباخ» ونظرته الخاصة بالبروليتاريا من التقليد الشيوعىّ الفرنسى . ومع ذلك فهو مذهب مبتكر كل الابتكار ؛ إذ أن تجميع العناصر فى هذه الحالة لا يؤدى إلى « مواسطة » Syncretism ، بل يكوّن نظاماً جريئاً واضحاً متماسكا يتسم بتلك السمة من التنظيم الضخم الواسع المدى التى تعد مفخرة لكل صور الفكر الهيجيلى الكبرى ونقيصته المميتة فى نفس الوقت . ولكنه نظام خلا من تهور هيجل ونظرته المنطوية على الازدراء لنتائج البحث العلمى فى عصره ؛ بل هى على النقيض من ذلك تحاول السير فى الاتجاه الذى كشفت عنه العلوم التجريبية وتمثل نتائجها العامة . وإن لم يكن

سلوك ماركس العملى منطبقاً دائماً على هذا المثل الأعلى النظرى ، كما أن سلوك أتباعه كان أقل انطباقاً عليه من ذلك ، وإذا كان ذلك المثل الأعلى لم يتعرض بالفعل إلى التشويه ؛ فإن الحقائق كانت أحياناً تخضع لتغيير من نوع غريب أثناء عملية مواءمتها داخل النمط الجدلى المعقد. إنها ليست نظرية تجريبية بحتة بحال من الأحوال، حيث إنها لا تقتصر على وصف الظواهر ووضع الفروض الخاصة بتكوينها ؛ فمذهب الحركة فى الأضداد الجدلية ليس فرضاً قابلا لأن يكون محتملا إلى حد يزيد أو ينقص بوساطة الأدلة المستمدة من الوقائع ، ولكنه معتقد ميتافيزيقى تعرف صحته بوساطة نوع خاص من « النظرة » التاريخية اللاتجريبية ، وإنكار ذلك يكون ، تبعاً لماركس ، بمثابة العودة إلى مادية « سوقية » لا تعترف بواقعية أى ارتباطات إلا ما كان يقوم على صحتها دليل من الحواس الجسدية .

وليس لهذه النظرية مثيل فى الدقة والوضوح فيما تعرض به أسئلتها ، وفى صرامة المنهج الذى تتبعه فى البحث عن الحلول ، ولا فى ذلك المزيج من العناية والتفصيل والقدرة على التعميم الشامل على نطاق واسع . وحتى لو ثبت أن ما انتهت إليه من نتائج مميزة غير سليم ، فإن أهميتها ستظل فى أنها خلقت اتجاها جديداً بالكلية فى تناول المسائل الاجتماعية والتاريخية ، ومن ثم فقد فتحت آفاقاً جديدة للمعرفة البشرية ، ستظل قائمة لا تشوبها شائبة . فالدراسة العلمية للعلاقات الاقتصادية وتأثيرها على النواحى الأخرى فى حياة الجماعات والأفراد قد بدأت عندما بدىء بتطبيق قواعد «ماركس» فى التفسير . فلقد كان للمفكرين السابقين — من أمثال « فيكو » و « هيجل » و « سان سيمون » — مناهج عامة ، ولكن نتائجها المباشرة ، كما تضمنتها تلك البرامج الضخمة التى فصلها « كونت » أو « سبنسر » ، كانت موغلة فى تجردها وإبهامها ، فحق عليها أن تختفى فى زوايا النسيان . إن الأب الحقيقى للتاريخ الاقتصادى ، ولعلم الاجتماع الحديث فى الواقع ، فى حدود ما يستطيع أى شخص واحد أن يدعى هذا اللقب لنفسه ، هو كارل ماركس . وإذا كان تحويل ما كان يعد فيما مضى من المتناقضات إلى أوليات مسلم بها دليلا على النبوغ ، فإن ماركس كان نابغة . وقد نسى الناس بالضرورة ما حققه فى ذلك المجال ، حيث أن ما أسفر عنه ما حققه من آثار صارت جزءاً مستديماً من الصورة الخلفية للفكر المتمدين .

الفصل السابع

— ١٨٤٨ —

« الحرية ، الإخاء ، المساواة — بينما ما تعنيه هذه الجمهورية فى الواقع هو : مشاة ، فرسان ، مدفعية . . . . »

كارل ماركس

فى « لويس بونابرت فى ١٨ (برومير) »(١)

طرد ماركس من باريس فى أوائل عام ١٨٤٥ ، طردته حكومة « جيزو » نتيجة لطلب تقدمت به روسيا لقفل الصحف الاشتراكية التى كانت تنشر تعليقات تمس شخصية الملك الحاكم فى بروسيا . وكان يقصد بأمر الطرد فى الأصل أن يطبق على الجماعة كلها بما فيهم « هاين » و « باكونين » و « روج » وعدد آخر من المنفيين الأجانب ، ممن هم دون هؤلاء . ولما كان « روج » مواطنا سكسونيا فقد ترك دون أن يمسه أحد . أما « هاين » فإن الحكومة الفرنسية نفسها لم تجرؤ على تنفيذ الأمر بالنسبة له ، فقد كان يتمتع فى ذلك الوقت بشهرة واسعة ونفوذ كبير فى أوروبا كلها ، وأما « باكونين » و « ماركس » فقد طردا بالفعل رغم الاحتجاجات الشديدة فى الصحف الراديكالية . وذهب « باكونين » إلى سويسرا ، بينما ذهب ماركس وزوجته وطفلته التى تبلغ من العمر سنة واحدة إلى بروكسل ، حيث لحق به « انجلز » بعد فترة ؛ وكان قد عاد من انجلترا لهذا الغرض . وقد سارع ماركس فى بروكسل إلى الاتصال بمنظمات العمال الشيوعيين الألمان التى كانت تضم أعضاء من « عصبة العادلين » المنحلة وهى جمعية دولية للبروليتاريين الثوريين ذات برنامج غامض ولكنه عنيف متأثر بـ « وايتلنج » ؛ وكان لها فروع فى عدة مدن أوروبية ، كذلك اتصل ماركس بالاشتراكيين والراديكاليين البلجيكيين ، وقام بمراسلة أعضاء هيئات مماثلة فى بلاد أخرى ، وأنشأ جهازا منظما لتبادل المعلومات السياسية ،

(١) Brumaire شهر من شهور الثورة الفرنسية يبتدئ من ٢٢ أكتوبر .

بيد أن نشاطه الرئيسي كان بين العمال الألمان فى بروكسل نفسها . وقد حاول أن يفسر لهم ، عن طريق المحاضرات والمقالات التى جعل ينشرها فى صحيفة « برسلار زايتونج » ، دورهم الصحيح فى الثورة المقبلة التى كان يعتقد ، شأنه فى ذلك شأن معظم الراديكاليين الأوروبيين ، أنها وشيكة الوقوع .

فبمجرد أن انتهى ماركس إلى أن إقامة الشيوعية لا يمكن أن تتم إلا عن طريق ثورة مسلحة تقوم بها البروليتاريا ، تحول كل كيانه إلى محاولة تنظيم البروليتاريا وإعدادها لمهمتها . وأصبح تاريخه الشخصى ، الذى يمكن اعتباره حتى هذه النقطة سلسلة من الأحداث الفردية ، جزءاً لا يتجزأ من التاريخ العام للاشتراكية فى أوروبا ، وإن كان الحديث عن أحد هذين التاريخين يعنى بالضرورة التحدث عن الآخر . وأية محاولة تبذل لتمييز الدور الذى قام به ماركس فى توجيه الحركة من الحركة نفسها لابد مؤدية إلى غموض التاريخين . وقد كانت مهمة إعداد العمال للثورة بالنسبة له مهمة عمليه ، عملا « روتينيا » يجب أن يقوم به المرء على خير وجه مستطاع من الكفاية والثبات ، وليس وسيلة مباشرة للتعبير الشخصى عن الذات . ومن ثم فقد كانت الظروف الخارجية لحياته مملة كظروف أى خبير آخر كرس نفسه لمهمته ؛ مملة كظروف «داروين» «وباستير» ، وتناقض تماماً الحياة القلقة الانفعالية التى كان يحياها الثوريون الآخرون فى عهده . وكانت العقود الوسطى من القرن التاسع عشر فترة تتميز بشدة الحساسية . فإن ما بدأ على أنه التجارب المنعزلة لأفراد غير عاديين ، مثل « بيرون » و « شللى » و « روسو » و « شاتو بريان » و « شيللر » و « جان بول » ، أصبح شيئاً فشيئاً ، وبخطوات غير محسوسة ، الاتجاه العام للمجتمع الأوروبى . ولأول مرة صار جيل بأكمله مسحورا بالتجارب الشخصية لرجال ونساء ، على عكس العالم الخارجى الذى يتكون من تفاعل حياة جماعات أو مجتمعات بأكلها . وقد اكتسب هذا الاتجاه تعبيرا عاما فى حياة عظماء الثوريين الديموقراطيين ومذاهبهم ، وفى الإعجاب الحاد والتقديس اللذين كان أتباعهم يكنونهما لهم ؛ فلم يكن إعجاب الناس « بمازينى » و « غاريبالدى » و « باكونين » و « لاسال » منبعثاً من أنهم أبطال يقاتلون فى سبيل الحرية فحسب ، بل مما اتسموا به من صفات رومانسية شاعرية كأفراد . فكان الناس

ينظرون إلى أعمالهم على أنها تعبير عن تجربة داخلية عميقة ، تجربة أضفى عمقها على كلماتهم وإيماآتهم سمة شخصية مؤثرة تختلف تمام الاختلاف عن البطولة الجادة اللاشخصية التي اتسم بها رجال سنة ١٧٨٩ ، وهى صفة يتكون منها الطابع المميز ، ذلك الجوهر الهيجيلى الفريد لذلك العصر . وقد يكون « كارل ماركس » منتميا بروحه إلى جيل سابق أو إلى جيل لاحق ؛ ولكنه من غير شك لم يكن ينتمى لعصره هو ؛ فقد كانت تنقصه البصيرة السيكلوجية ، ولم يؤد به فقره وعمله الشاق إلى ازدياد تأثره العاطفى ؛ وقد كان من نتيجة هذا العجز الكامل عن رؤية تجارب الأشخاص الذين يقعون خارج نطاقه المباشر وطبائعهم ، أن جعل اتصاله بالعالم الخارجى يبدو فظا بصورة فريدة ؛ وكان قبل ذلك قد مر بفترة عاطفية وهو طالب فى برلين ؛ ولكنها فترة انتهت ولم يعد لها أثر ، ومن ثم فقد اعتبر المعاناة العاطفية والمعنوية والأزمات الروحية مجرد انغماس ذاتى بورجوازى لا يليق بالإنسان فى وقت الحرب : فلم يكن يشعر ، شأنه فى ذلك شأن لينين من بعده ، بأى شعور سوى الازدراء نحو أولئك الذين كانوا يشغلون أنفسهم بحالاتهم الروحية إبان المعركة ، بينما العدو يكسب الموقع تلو الموقع .

وشرع ماركس يعمل على خلق منظمة ثورية دولية ، وقد تلقى استجابة حارة من لندن من جمعية تسمى « الاتحاد التربوى للعمال الألمان » على رأسها جماعة صغيرة من الصناع المنفيين الذين كان اتجاههم الثورى مما لاشك فيه ؛ فكان أوائل حلفائه السياسيين الذين يمكن الاعتماد عليهم هم جمّاع الحروف « سكابر » ، وصانع الساعات « مول » ، والإسكاف « باور » . وكانوا قد ربطوا جمعيتهم باتحاد يعرف « بالعصبة الشيوعية » الذى كان قد خلف « عصبة العادلين » المنحلة . وكان ماركس قد قابلهم أثناء رحلة قام بها إلى انجلترا مع انجلز فوجدهم رجالا من النوع الذى يريده تماماً ، أولى عزيمة وقدرة وحيوية . وقد نظروا إليه وقتها بكثير من الريبة بوصفه صحفياً ومفكراً ؛ وظلت علاقتهم به عدة سنوات محتفظة بطابع لا شخصى وصلتهم به صلة عمل . فلقد كانت « العصبة الشيوعية » اتحاداً من أجل غايات عملية مباشرة ، وقد حبذ ماركس ذلك وارتضاه . ثم جعلت هذه العصبة تنمو بسرعة تحت إشرافه ، وبدأت تضم جماعات من العمال الراديكاليين معظمهم متناثرون فى المناطق الصناعية

بألمانيا ، مع بعض ضباط الجيش وأصحاب المهن. وقد كتب «إنجلز» تقارير ملتهبة عن زيادة عددهم وحماستهم الثورية فى المقاطعة التى كانت مسقط رأسه . ولأول مرة وجد «ماركس» نفسه فى المركز الذى طالما تمناه ، المنظم والزعيم لحزب ثورى نشط . وقد شكا «باكونين» الذى جاء بدوره إلى «بروكسل» وكان على عـــلاقة طيبة بالراديكاليين الأجانب وبأعضاء الطبقة الأرستقراطية على السواء ، من أن ماركس كان يفضل صحبة الصناع والعمال على صحبة الناس المثقفين ، وأنه يفسد رجالا طيبين بسطاء بما يحشو به أذهانهم من نظريات مجردة ومذاهب اقتصادية غامضة لم يتفقهوها، وكان أثرها الوحيد عليهم أن جعلتهم مغرورين بصورة لا تحتمل . ولم ير «باكونين» فائدة فى إلقاء محاضرات على جماعات صغيرة محدودة من الصناع الألمان الذين لم يتعلموا تعلما كافياً وفى محاولة تنظيمهم ، أشخاص لا يفهمون إلا القليل جداً مما يشرح لهم بهذا التدقيق والإحكام ، مخلوقات سيئة التغذية لا يمكن أن يتصور أحد أنهم يستطيعون التأثير فى نتيجة أى صراع حاسم . وقد كان هجوم «ماركس» على «برودون» سبباً فى ازدياد شقة الخلاف بينهما ، إذ أن «برودون» كان صديقاً وثيق الصلة «بباكونين» وتلميذاً له فى المسائل الهيجيلية ؛ ومن ثم فقد كان الهجوم موجها بنفس الشدة إلى عادة «باكونين» من الانغماس فى البلاغة الفياضة المبهمة بدلا من التحليل السياسى المفصل .

وقد غيرت أحداث عام ١٨٤٨ وجهتى نظريهما معاً فيما يتعلق بأسلوب الثورة المقبلة ، ولكن التغيير جاء فى اتجاهين مضادين . فتحول باكونين فى السنوات التالية إلى الجمعيات السرية الإرهابية ، بينما عمل ماركس على تأسيس حزب ثورى رسمى سافر يسير على أساليب سياسية معترف بها ، وشرع يعمل على تدمير نزعة الاعتماد على الألفاظ المنمقة والإبهام ، المتفشية بين الألمان . ولا يمكن القول بأنه أخفق فى ذلك تماماً كما يتجلى ذلك فى السلوك المنظم الكفء الذى بدأ من أعضاء منظمته فى ألمانيا خلال العامين الثوريين وما وليهما .

وكان مركز «عصبة الشيوعيين» بلندن قد أظهر ثقته بماركس فى سنة ١٨٤٧ فعهد إليه بكتابة وثيقة تتضمن تحديداً لمعتقدات العصبة وأهدافها. وقد رحب ماركس بهذه الفرصة ترحيباً حاراً ووجد فيها مجالا لكى يضع خلاصة واضحة للمذهب الجديد

الذى كان قد أخذ شكله النهائى فى ذهنه فى الفترة الأخيرة . وسلمهم الوثيقة المطلوبة فى أوائل عام ١٨٤٨ ، ونشرت قبل اندلاع ثورة باريس ببضعة أسابيع تحت عنوان « بيان الحزب الشيوعى » .

وكان «انجلز» قد كتب مسودة البيان الأولى على هيئة أسئلة وأجوبة ، ولكن « ماركس » لم يجد فيها القوة المطلوبة فأعاد كتابتها من أولها إلى آخرها . وجاءت النتيجة، كما يقول انجلز، فكانت مؤلفاً جديداً ليس فيه شئ مما كتبه انجلز تقريباً ؛ غير أن انجلز كان دائماً شديد التواضع إلى أبعد حد فى كل ما يتعلق بأعمالها المشتركة، ومن ثم فإنه من المستحيل عملا أن نعرف مقدار نصيبه فى تأليف هذا البيان . وجاء هذا البيان عملا يكاد يصل إلى حد العبقرية . فما من حركة أو قضية حديثة أخرى يمكنها أن تزعم أنها أنتجت شيئاً يقارن به سواء فى أسلوبه أو قوته ، فهو وثيقة بلغت من القوة حداً هائلا ؛ وجاءت كأنها صرح عظيم من التعميمات التاريخية الجريئة التى تستلفت النظر ، وتنطوى على تنديد شديد بالنظام القائم ونذير له باسم قوى المستقبل فى ثأرها لنفسها ، وقد كتب معظم هذا البيان نثراً كأنه أنشودة ثورية عظمى بقى تأثيرها لا يقاوم حتى الآن ، وإن كان أعظم وأشد فى ذلك الوقت . وقد بدأ البيان بعبارة تهديد تنم عن لهجته ومقاصده جاء فيها : « يحوم اليوم فوق أوروبا شبح — هو شبح الشيوعية . وقد اتحدت قوى أوروبا كلها للتخلص منه : البابا والقيصر ومترنيخ وجيزو والراديكاليون الفرنسيون والشرطة الألمان . . . إن جميع دول أوروبا تعترف بها قوة حقيقية » . ثم يستطرد البيان فى سلسلة متتابعة من الموضوعات المترابطة ، تنضج شيئاً فشيئاً وتزداد زخرفاً ، وينتهى فى آخره بدعوته الرائعة المشهورة التى يوجهها إلى عمال العالم .

وأول هذه الموضوعات ورد فى الجملة التى بدأ بها القسم الأول : « إن تاريخ كل المجتمعات السابقة هو تاريخ الصراع بين الطبقات » . فالجنس البشرى كان ينقسم فى جميع العهود التى يعيها التاريخ المكتوب إلى مستغِلّين ومستغَلين ، سادة وعبيد ، نبلاء وعامة ؛ وفى عصرنا ، إلى بروليتاريا ورأسماليين . فلقد قلب النمو الهائل فى الاكتشاف والاختراع النظام الاقتصادى فى المجتمع البشرى الحديث رأساً على عقب ؛ حلت الصناعات المحلية محل المهن ، ثم تحولت الصناعات

المحلية بدورها إلى مشروعات صناعية كبرى . وكل مرحلة من مراحل هذا التوسع تصاحبها أوضاع سياسية وحضارية خاصة بها . ويعكس كيان الدولة الحديثة سيطرة البورجوازية — بل إن هذه الدولة إن هى فى الواقع إلا لجنة لإدارة شئون الطبقة البورجوازية فى مجموعها . وقد قامت البورجوازية بدور ثورى هام فى عصرها ؛ إذ أنها قضت على النظام الإقطاعى وبذلك دمرت العلاقات القديمة التى تقوم على النظام الأبوى ، وربطت الإنسان « بسادته الطبيعيين » فلم تترك مجالا لغير نوع واحد من العلاقات بينهما — رباط المال ، أى المصلحة الذاتية السافرة ، وبذلك نزلت الكرامة الشخصية إلى سلعة تباع وتشرى ؛ وخلقت حرية التجارة بدلا من الحريات القديمة التى حصل عليها الناس بالعهود « والفرامانات » ؛ وأحلت محل الاستغلال المقنع بأقنعة دينية وسياسية ، استغلالا مباشرا ساخراً لا يستحى ؛ وحولت مهنا كانت تعدفيما مضى شريفة باعتبارها وجها من وجوه خدمة المجتمع إلى مجرد عمل مأجور ؛ فهى ، بأهدافها الحيازية ، قد حقرت كل صور الحياة . وتم ذلك عن طريق اكتشاف مصادر طبيعية هائلة جديدة ؛ ولم يستطع إطار الإقطاع أن يضم النمو الجديد فتحطم شذراً . والآن أعادت العملية نفسها . فالأزمات الاقتصادية المتوالية التى ترجع إلى زيادة الإنتاج أعراض لحقيقة واقعة هى أن الرأسمالية لم تعد تستطيع بدورها أن تتحكم فى مصادرها ، إن النظام الاجتماعى عندما يضطر إلى تدمير ما ينتجه ويمنع إمكانياته من التوسع بسرعة أكبر وعلى نطاق أوسع مما ينبغى ، فإن ذلك يعد علامة مؤكدة على إفلاسه ونهايته القريبة . وقد خلق النظام البورجوازى البروليتاريا لتكون وريثته ومبيدته فى نفس الوقت . لقد نجح فى القضاء على قوة كل النظم المنافسة على اختلاف صورها ، على الارستقراطية وعلى صغار الصناع وعلى الزعماء ، ولكنه لن يستطيع تدمير البروليتاريا لأنها ضرورية لكيانه نفسه وجزء حيوى منه ، ولأنها تتكون من ذلك الجيش العرمرم من المحرومين الذين ينظمهم ويدربهم فى استغلاله لهم . وكلما أصبحت الرأسمالية أكثر دولية — وهى لابد أن تصير كذلك فى توسعها — كلما صار النطاق الذى يُنظم فيه العمال أوسع وأكثر دولية بدوره ، وسوف يؤدى اتحاد العمال وتضامنهم إلى قلبها مع الوقت . فإن دولية الرأسمالية يتولد عنها حتما دولية العمال بوصفها

مكملة لها بالضرورة . إن العملية الجدلية لا تلين ولا توجد قوة يمكن أن توقفها أو تسيطر عليها . ومن هنا كان مما لا جدوى منه محاولة إعادة أنشودة العصور الوسطى القديمة ، أو بناء خطط حالمة على أساس حنين العودة إلى الماضى الذى يتوق إليه بحرارة مذهبيو الزراع والصناع وصغار التجار . إن الماضى قد ولى ، والطبقات التى تنتمى إليه قد لحقت بها الهزيمة نهائيا منذ أمد طويل على يد قوى التاريخ ؛ إن عداءهم نحو البورجوازية ، الذى كثيرا ما أطلق عليه خطأ « اشتراكية » ، اتجاه رجعى ، ومحاولة لا طائل من ورائها لقلب سير التطور البشرى . وأملهم الوحيد فى الانتصار على العدو يكمن فى نبذها لكيانهم المستقل ، والاندماج فى البروليتاريا التى يقضى نموها على البورجوازية من الداخل ، لأن تزايد الأزمات والتعطل يجبر البورجوازية على استنفاد قوتها فى تغذية خدمها بدلا من أن تتغذى هى بهم ، وهى وظيفتها الطبيعية فى الأصل .

ثم ينتقل البيان من الهجوم إلى الدفاع ؛ إن أعداء الإشتراكية يعلنون أن إلغاء الملكية الخاصة سيدمر الحرية ، ويقوض أسس الدين والأخلاق والحضارة . وهذا أمر معترف به . بيد أن القيم التى سيقضى عليها بهذه الطريقة هى القيم المرتبطة بالنظام القديم وحده — الحرية البورجوازية ، والحضارة البورجوازية ، وقيم لا تعدو صلاحيتها الظاهرة لكل زمان ومكان أن تكون وهماً مرده الوحيد ما تؤديه هذه القيم كسلاح فى الصراع الطبقى . فالحرية الشخصية الحقيقية هى القدرة على التصرف تصرفاً مستقلا ، وهو ماحرم منه الصانع والتاجر الصغير على يد الرأسمالية منذ أمد طويل . أما فيما يتعلق بالحضارة فيقول البيان : « إن الحضارة — الحضارة التى يتباكى القوم على فقدانها — هى بالنسبة للغالبية الساحقة مجرد تدريب على أن يعملوا كآلات » . وبإلغاء الصراع الطبقى إلغاء تاماً ستختفى بالضرورة هذه المثل الوهمية ، وسيعقبها صورة جديدة أوسع نطاقاً من صورة الحياة ، تقوم على مجتمع لا طبقى . والبكاء على فقدان هذه المثل إنما هو بمثابة البكاء على فراق مرض مزمن ألفه المرء .

ولابد أن تختلف الثورة باختلاف الظروف ، بيد أن أولى إجراءاتها فى كل مكان يجب أن تكون تأميم الأرض والائتمان والنقل ، وإلغاء حقوق الميراث ،

وزيادة الضرائب ومضاعفة الإنتاج ، وتدمير الحواجز بين المدن والريف ، وتعميم العمل الإجبارى والتعليم المجانى للجميع . وتنصب بقية البيان على عرض صور مختلفة من الاشتراكية الكاذبة ودحضها — محاولات الأعداء على اختلافهم — البورجوازية والأرستقراطية والكنيسة لاجتذاب البروليتاريا إلى صفوفهم تحت ستار وحدة المصالح . ويدخل ضمن هؤلاء « البورجوازية الصغيرة » المنهارة والتى جعل كتابها ، وقد مهروا فى كشف فوضى الإنتاج الرأسمالى والفقر والانحطاط الناجمين عن استعمال الآلات والتفاوت البشع فى الثروات ، يتقدمون بعلاجات فات وقتها لجاءت حلولا حالمة ، وهو ما يمكن أن يقال حتى عن « الاشتراكيين الألمان الحقيقيين » الذين ترجموا التفاهات الفرنسية إلى لغة الهيجيلية فجاء ، نتاجهم مجموعة لا معنى لها من العبارات الفارغة ، لا يمكن أن تخدع العالم طويلا . وأما أتباع « برودون » أو « فورييه » أو « أوين » فإنهم يضعون الخطط لإنقاذ البورجوازية كما لو كانت البروليتاريا غير موجودة ، أو كما لو كان من المستطاع رفع البروليتاريا إلى مصاف الرأسمالية فلا يبقى إلا من يستغلون دون أن يكون هناك من يستغلون . وكل هذه المجموعة المتباينة التى لانهاية لها من الجهود اليائسة إنما تمثل محنة البورجوازية وقد عجزت عن أن تواجه نهايتها الوشيكة أو هى لا تريد أن تواجهها فركزت جهودها فيما لاطائل تحته لكى تحافظ على بقائها فى ثوب اشتراكية انتهازية غامضة . أما فيما يتعلق بالشيوعيين ، فهم ليسو حزبا ولا شيعة ، ولكنهم المقدمة ، ذات الوعى الذاتى ، للبروليتاريا نفسها ، لا تحدوهم مجرد أهداف نظرية ، بل يسعون لتحقيق مصيرهم التاريخى . بل هم لا يخفون أهدافهم ، فهم يعلنون جهراً بأن هذه الأهداف لن تتحقق إلا عندما يقضى بقوة السلاح على النظام الاجتماعى كله ، ويستولون هم على كل القوة السياسية والاقتصادية . ويختتم البيان بالكلمات المشهورة : « إن العمال ليس لديهم ما يفقدونه سوى أغلالهم ، وأمامهم العالم ليكسبوه : أيها العمال فى جميع البلاد . . اتحدوا » .

وليس هناك من تلخيص يستطيع أن ينقل صورة حقيقية واضحة عما ورد فى صفحات البيان الافتتاحية والختامية ، فهذا البيان بوصفه أداة للدعاية الهدامة ، لا مثيل له فى أى مكان ؛ وتأثيره على الأجيال المتعاقبة لا يوازيه تأثير خارج

تاريخ الأديان ؛ ولو أن مؤلفه لم يكتب شيئاً آخر لكفاه ، ذلك لكي يضمن لنفسه شهرة خالدة . بيد أن أثره المباشر قد وضح أول ما وضح فيما كان له من وقع على مصير المؤلف نفسه . فإن الحكومة البلجيكية التي كانت حتى ذلك الوقت تعامل المنفيين السياسيين بقدر كبير من التسامح لم تستطع أن تتجاهل هذا البيان العظيم ، فنفت صاحبه على الفور هو وعائلته خارج البلاد . وفي اليوم التالي اندلعت في باريس الثورة التي طال انتظارها . ودعا « فلوكون » ، أحد أعضاء الحكومة الفرنسية الجديدة من الراديكاليين ، « ماركس » بخطاب مشبع بروح الثناء إلى العودة إلى المدينة الثورية ، فسافر إليها مباشرة وبلغها في اليوم التالي .

ووجد ماركس المدينة تموج بحماسة مندفعة غمرت الجميع . فلقد سقطت الحواجز مرة أخرى ، وبدا أنها سقطت هذه المرة إلى غير رجعة . ففر الملك بعد أن أعلن أن قوى معنوية هي التي أرغمته على الخروج ، وتألفت حكومة جديدة تضم ممثلين لجميع أصدقاء الإنسانية والتقدم ، فعين العالم الطبيعي « آراجو » والشاعر « لامارتين » وزراء ، ومثل العمال « لويس بلان » و « ألبرت » . وكتب « لامارتين » بيانا بليغا كان يُقرأ ويقتبس ويمتدح في كل مكان . وامتلأت الشوارع بجماعات من الديموقراطيين من جميع النحل والجنسيات تغني وتهتف ، دون أن تبدي المعارضة أية مقاومة ، ونشرت الكنيسة بيانا أكدت فيه أن المسيحية لا تناصب الحرية الفردية العداء ، بل هي على العكس من ذلك حليفتها الطبيعية والمدافعة عنها ؛ وإن مملكتها ليست على هذه الأرض ، ومن ثم فإن ما اتهمت به من تأييد للرجعية لا ينبعث من مبادئها ولا من وضعها التاريخي في المجتمع الأوروبي ، ويمكن تغييره تغييراً شاملا دون استعمال العنف ضد جوهر تعاليمها . وقوبلت هذه البيانات بحماسة وتصديق . وتبارى المنفيون الألمان مع البولنديين والإيطاليين في تنبؤهم بانهيار الرجعية في كل مكان، وبالظهور الوشيك لعالم أخلاقي جديد على أنقاضها . وجاءت الأنباء بأن « نابلي » ثارت، ومن بعدها « ميلانو » « وروما » « والبندقية » ، ومدن إيطالية أخرى . وامتشقت « برلين » و « فينا » و « بوداست » أسلحتها . لقد اشتعلت أوروبا أخيراً وبلغ الحماس ذروته بين الألمان المقيمين في باريس ، وتكونت فرقة ألمانية محاربة تحت قيادة الشاعر « جورج هيرويج » وجندي بروسي سابق من

الشيوعيين اسمه « ويليخ » لمساعدة الجمهوريين المتمردين ، كان المفروض أن تبدأ عملها على الفور . وشجعت الحكومة الفرنسية المشروع ، ولعلها لم تكن إلا راغبة فى التخلص من فريق المهيجين الأجانب المقيمين فى أراضيها دفعة واحدة. واستهوت هذه الخطة «إنجلز»، ولعله كان من المؤكد أن يتطوع لولا أن ماركس ثبط عزيمته لأنه كان يراقب ما يجرى بقسط كبير من العداء وعدم ثقة لأنه لم يتبين فيه أية علامة تدل على وقوع تمرد عام على نطاق واسع بين الجماهير الألمانية . لقد خلعت الحكومات الأوتوقراطية فى بعض الأماكن وأرغم الأمراء على التعهد بمنح رعاياهم دساتير ،وعلى تعيين حكومات تحررية معتدلة بيد أن الجيش الروسى كان فى أغلبه مواليا للملك ، بينما كان الديموقراطيون متفرقين سيئى القيادة وغير قادرين على الاتفاق فيما بينهم على المسائل الحيوية ، وفشل المؤتمر الشعبي المنتخب ، الذى انعقد فى «فرانكفورت» لتقرير مستقبل الحكم فى ألمانيا ، منذ بدايته ، وبدا لماركس أن ظهور فرقة غير مدربة من رجال الفكر المهاجرين فوق الأراضى الألمانية فجأة مضيعة للطاقة الثورية لا يرجى من ورائه جدوى ، ويحتمل أن ينتهى إلى نهاية مضحكة مؤسفة ، يعقبها حالة من الخجل وخيبة الأمل تشل الجهود . ومن ثم عارض ماركس فى تكوين الفرقة ، ولم يعرها أى اهتمام بعد أن غادرت باريس لى حيث تلق هزيمة لا مندوحة منها على يد الجيش الملكى ، وذهب إلى «كولونيا» ليرى ما يستطيع أن يعمله عن طريق الدعاية فى موطنه الأصلى فى أرض الراين . وهناك كان عاملا كبيراً فى إقناع جماعة من رجال الصناعة التحرريين ومن العاطفين على الشيوعية بإنشاء صحيفة جديدة تحمل اسم « راينيخ زايتونج » لتخلف الصحيفة التى كانت تحمل نفس الاسم وأغلقت قبل ذلك بخمس سنوات ، وبأن يعينوه محرراً لها . وكانت «كولونيا» فى ذلك الوقت مسرحاً لتوازن فى القوى غير مستقر بين الديموقراطيين المحليين ، الذين كانوا يسيطرون على الحرس الوطنى المحلى ، وبين حامية تتلق أوامرها من برلين . وأرسل ماركس مندوبيه ، باسم « العصبة الشيوعية » لإثارة الهياج بين الجماهير الصناعية الألمانية ، مستخدما تقارير هؤلاء المندوبين مادة لمقالاته الرئيسية . ولم تكن هناك فى ذلك الوقت رقابة فى أرض الراين،فانتشرت عباراته النارية بين جمهور يتزايد باستمرار . لقد كانت الصحيفة الجديدة تصلها معلومات وفيرة دقيقة ، وأصبحت وحدها ، من بين صحافة الجناح اليسارى الصحيفة

التي لها سياسة واضحة خاصة بها . فزاد تداولها بسرعة،وبدأت تقرأ على نطاق واسع في مقاطعات ألمانية أخرى .

وكان ماركس قدجاء إلى أرض الراين مسلحا بخطة سياسية واقتصادية كاملة للعمل بمقتضاها ، تقوم على الأساس النظرى المتين الذى كان قد بناه بعناية خلال السنوات السابقة . وقد دعا الآن إلى تحالف مشروط بين العمال والبورجوازية الراديكالية لتحقيق هدف مباشر هو خلع الحكومات الرجعية ؛ وقد أبان فى هذا الصدد أنه بينما حرر الفرنسيون أنفسهم من يد الإقطاع فى سنة ١٧٨٩ واستطاعوا بذلك أن يخطوا الخطوة التالية إلى الأمام فى سنة ١٨٤٨ ، فإن الألمان لم يحققوا ثورتهم إلا فى ميدان الفكر وحده ؛ فهم كمفكرين قد تقدموا على الفرنسيين كثيراً فى راديكالية عواطفهم ؛ ولكنهم من الناحية السياسية مازالوا يعيشون فى القرن الثامن عشر وهم بوصفهم أكثر الأمم الغربية تخلفا لايزال أمامهم مرحلتان عليهم أن يجتازوهما قبل أن يصلوا إلى مرحلة التصنيع النامى ، ثم يستطيعون بعد ذلك السير إلى جانب الديموقراطيات المجاورة على قدم المساواة . فالحركة الجدلية فى التاريخ لاتسمح بقفزات ، وقد خان التوفيق ممثلى البروليتاريا حين تجاهلوا مطالب البورجوازية ، التى كانت تعمل على نصرة القضية العامة وهى تعمل على تحقيق تحررها ؛ والتى كانت تفضل جماهير الطبقة العاملة ، من الجهلاء المشتتين ، فى التنظيم الاقتصادى والسياسى ، وتفوقهم فى القدرة على الحكم . ومن هنا كانت الخطوة السليمة للعمال فى رأيه أن يعقدوا تحالفا مع زملائهم من الضحايا فى الطبقتين الوسطى والوسطى الدنيا ، فإذا تحقق لهم النصر عملوا على السيطرة على حلفائهم الجدد (الذين يكونون فى ذلك الوقت قد بدأوا يرغبون بلا ريب فى إنهاء التحالف) وأن يعوقوا عملهم ، إذا لزم الأمر ، باستخدام الضغط المنبعث من قوتهم العددية والاقتصادية وحدها . وعارض ماركس ديموقراطيي كولونيا ، « آنكه » و « خوتشالك » ، اللذين دعوا إلى الامتناع بتاتا عن مثل هذه الانتهازية السافرة ، بل وإلى الامتناع عن كل صور العمل السياسى التى قد تؤدى إلى أضعاف القضية البروليتارية أو تعرض بقاءها للخطر . وقد بدا ذلك لماركس رأيا منطوياً على غباء ألمانى نموذجى ودليلا على القصور عن رؤية الميزان الحقيقى للقوى . وطالب بتدخل مباشر وبإرسال مندوبين إلى فرانكفورت ، باعتبار أن ذلك

وحده هو السبيل العملى الفعال . فالتباعد السياسى فى رأيه هو ذروة الغباء التكتيكى ، لأن نتيجته المحتملة هى أن يصبح العمال فى عزلة وتحت رحمة الطبقة المنتصرة . أما فى السياسة الخارجية فقد كان ماركس يدعو علنا إلى الوحدة الألمانية ويجهر بعدائه لروسيا . فلقد ظلت روسيا سنوات عديدة تشغل بالنسبة للديمقراطية والتقدم نفس المركز الذى تشغله الدول الفاشية اليوم ، وتثير رد الفعل العاطفى نفسه الذى تثيره هذه الدول الآن . لذلك كان الديموقراطيون من جميع النحل يكرهونها ويخشونها باعتبارها نصير الرجعية الأكبر ، دائماً على استعداد لسحق جميع المحاولات التى تهدف إلى تحقيق الحرية داخل حدودها وخارجها ، بل إنها لقادرة على أن تفعل ذلك .

وقد طالب ماركس وقتئذ ، كما طالب فى ١٨٤٢ ، بحرب فورية مع روسيا ؛ إذ ما كان يمكن لأية محاولة لتحقيق الثورة الديموقراطية فى ألمانيا ، أن تنجح بسبب التدخل الروسى الذى كان لابد أن يحدث حتما . فضلا عن أن هذه الحرب سوف تكون وسيلة لضم الإمارات الألمانية فى وحدة ديموقراطية واحدة مكان دولة وضعت كل نفوذها إلى جانب العنصر الملكى فى السياسة الأوروبية ؛ وقد تكون كذلك باباً لمساعدة تلك القوى الثورية المبعثرة داخل روسيا نفسها التى ما فتىء «باكونين» يشير إلى وجودها إشارات مبهمة باستمرار . لقد كان ماركس على استعداد للتضحية باعتبارات أخرى كثيرة فى سبيل أهداف الوحدة الألمانية — حيث إنه رأى فى تفرقها ، كما رأى هيجل وبسمارك ، السبب فى ضعفها وعدم كفايتها وتخلفها السياسى على السواء . وهو لم يكن «رومانتيكيا» ولا قوميا ، ولكنه كان يعتبر الشعوب الصغيرة بقايا لامعنى لوجودها تعرقل التقدم الاجتماعى والاقتصادى . ومن ثم كان أمينا لآرائه حين أيد علنا الغزو الألمانى الذى لامبرر له للمقاطعة الدانمركية «شلسويج — هولشتاين» ، وهو العمل الذى حظى بتأييد معظم زعماء الديموقراطيين الألمان ، مما أدى إلى إحراج حلفائهم من المتحررين والدستوريين فى البلاد الأخرى إحراجا شديدا .

ونددد ماركس بسلسلة الحكومات البروسية التحررية القصيرة الأجل التى كانت تسمح بسهولة ، بل وعن طيب خاطر كما بدا له ، بأن تنزلق السلطة من يدها

لتعود ثانية إلى الملك وحزبه ، بل لقد ثار ماركس عدة مرات غضباً من « الكلام الفارغ » و « اللغو البرلمانى » فى فرانكفورت ، ووصل غضبه إلى ثورة عارمة من الحنق لامثيل لها حتى فى كتاب « رأس المال » نفسه . ومع ذلك لم ييأس ، لافى ذلك الوقت ولا فى ما وليه ، من النتيجة النهائية للصراع . وإن كان مفهومه عن الأساليب الثورية ورأيه فى ذكاء الجماهير وزعمائها وفى مدى الاعتماد عليهم قد تغير تغيرا عنيفا : فقد أعلن أن غباءهم الذى لاعلاج له عقبة فى سبيل تقدمهم أكبر من عقبة الرأسمالية نفسها . على أن سياسته كما اتضح ذلك فيما بعد ، كانت غير عملية ، كسياسة الراديكاليين العنيدين الذين ندد بهم . وقد عزا الكارثة التى انتهت إليها الثورة فى تحليله للموقف فيما بعد إلى ضعف البورجوازية وعقم التحرريين البرلمانيين ثم ، أكثر من هذا وذاك ، عمى البصيرة السياسية عند الجماهير الساذجة التى ظلت على ولائها العنيد لعملاء أشد أعدائهم ، الذين خدعوهم وأطروهم وقادوهم إلى دمارهم بكل سهولة .

وإذا كان ماركس قد قضى بقية حياته فى بحث مشكلات « تكتيكية » بحتة وتقرير أفضل منهج يتبعه الزعماء الثوريون لمصلحة أتباعهم العاجزين عن الفهم الصحيح بقدر ماقضاه فى تحليل ظروف البروليتاريا الفعلية ، فقد كان مرد ذلك إلى حد كبير الدرس الذى تلقاه من الثورة الألمانية . فقد كتب فى سنة ١٨٤٩ ، بعد فشل تمرد ڤينا ودرسدن ، يذم التحرريين من جميع النحل ذما عنيفا متهما إياهم بالجبن والتخريب وبأنهم مازالوا واقعين تحت سيطرة الملك ورجاله يرتجفون هلعا من مجرد فكرة الحصول على انتصار قاطع ، وعلى استعداد لخيانة الثورة خوفاً من القوى الخطرة التى قد تطلقها الثورة من عقالها . وهكذا حُكم عليهم بالهزيمة حتى قبل أن يبدأوا ، وقد أعلن ماركس أنه حتى لو نجحت البورجوازية فى عقد اتفاق غادر مع العدو على حساب حلفائها من بين البرجوازيين الصغار والعمال ، فإنها على أحسن الحالات لن تكسب أكثر مما كسبه الأحرار الفرنسيون فى ظل « ملكية يولية » فى فرنسا . أما إذا ساءت الظروف فإن الاتفاق سينقضه الملك ، ويصير مقدمة لإرهاب ملكى جديد . ولم تجرؤ صحيفة أخرى فى ألمانيا على مهاجمة الحكومة إلى هذا الحد . وقد سحرت هذه التحليلات ، بما اتسمت به من

صراحة لاتقبل مساومة ، والنتائج الجريئة التي استخلصها ماركس منها ، سحرت قراءه رغم أنفهم ، رغم أن دلائل ذعر لاشك فيها كانت قد ظهرت بين حملة الأسهم .

وما أن جاء شهر يونية سنة ١٨٤٨ حتى كانت مرحلة البطولة فى ثورة باريس قد ولت ، وبدأت القوى المحافظة تجمع قواها ، وأرغم الأعضاء الراديكاليون فى الحكومة — « لويس بلان » و « ألبير » و « فلوكون » — على الاستقالة . وثار العمال ضد الجمهوريين من الجناح اليمينى الذين ظلوا فى الحكم وأقاموا المتاريس ، وبعد ثلاثة أيام من القتال اليدوى فى شوارع باريس فرقهم « الحرس الوطنى » والجنود الذين ظلوا على ولائهم للحكومة واستأصلوا شأفتهم . ويمكن أن نعتبر « تمرد يونيه » أول تمرد اشتراكى بحت فى أوروبا ، إذ كان موجها عن قصد ضد التحرريين بقدر ما كان موجها ضد أنصار « الشرعية » . ودعا أتباع « بلانكى » ، وكان فى السجن فى ذلك الوقت ، الشعب إلى الاستيلاء على السلطة وإقامة ديكتاتورية مسلحة ؛ إن « الشبح » الذى أشار إليه البيان الشيوعى قد أصبح جسدا أخيراً ؛ ولأول مرة كشفت الاشتراكية الثورية النقاب عن نفسها فى صورتها المروعة المرعبة التى يراها بها أعداؤها فى كل مكان .

واستجاب ماركس فورا : فرغم الاحتجاجات الصارخة من جانب أصحاب الجريدة ، الذين كانوا ينظرون بهلع شديد إلى كل صور العنف وإلى إراقة الدماء ، نشر ماركس مقالا رئيسيا ناريا مطولا جعل موضوعه « الجنازة » التى أقامتها الحكومة للجنود الذين قتلوا أثناء الشغب فى باريس وقال فيه :

« إن الإخاء بين الطبقتين المتعارضتين (اللتين تستغل إحداهما الأخرى) الذى كُتب فى فبراير بأحرف كبيرة على كل واجهات باريس وعلى جميع السجون والمعسكرات ... هذا الإخاء لم يدم إلا بقدر ما استطاعت مصالح البورجوازية أن تتآخى مع مصالح البروليتاريا . إن المتحذلقين الذين يتشدقون بالتقاليد الثورية القديمة فى سنة ١٧٩٣ ، والمنظمين الاشتراكيين الذين استجدوا من البورجوازية أن تمنح الشعب منًّا وإحسانا ، فسُمح لهم بأن يلقوا مواعظ طويلة . . . كانت الحاجة تدعوا إليها لتهدئة الأسد البروليتارى لينام ، والجمهوريون الذين أرادوا عودة النظام البورجوازى كاملا ماعدا رأسه المتوج ، وأنصار « الشرعية » الذين

لم تكن بهم رغبة فى خلع الحلل الملكية التى يلبسونها واكتفوا بتغيير شكلها — هؤلاء جميعا كانوا حلفاء الشعب فى ثورة فبراير ! ومع ذلك فإن ما كان الشعب يكرهه لم يكن « لويس فيليب » بل السيطرة المتوجة لطبقة من الطبقات ، رأس المال الجالس على عرشه ؛ بيد أن الشعب فى نخوته المألوفة ، تصور أنه قد قضى على عدوه ، بينما الشعب لم يفعل سوى أنه خلع عدو أعدائه ، العدو المشترك لهم جميعاً.

« إن الصدام الذى ينشأ تلقائياً من ظروف المجتمع البورجوازى يجب أن يظل معركة قائمة حتى نهايتها المريرة ؛ إنه صدام لاسبيل إلى القضاء عليه بالتوسل والضراعة . وخير صورة من صور الدولة هى تلك التى لا تخفى فيها الاتجاهات الاجتماعية المتعارضة... بل يتوفر لها تعبير حر ، وبذلك يمكن أن تحل . بيد أن هناك من سوف يسألنا : أليس عندكم دمعة حزن تذرفونها على ضحايا الهياج الشعبى ، أو بادرة أسى من أجلهم ، أو كلمة عطف عليهم ؟

« إن الدولة ستعنى بأرامل هؤلاء الرجال وبأبنائهم العناية الواجبة ، وستصدر مراسيم لتكريمهم ، وستهيئ لهم جنازات عامة مهيبة . وستعلن الصحافة الرسمية خلود ذكراهم ... ولكن الجماهير التى تتضور جوعا وتنعتها الصحافة بأشنع النعوت ، وقد هجرها الجميع حتى الأطباء ، ووصمها كل الناس « المحترمين » بالعار ، وغرقت زوجاتهم وأطفالهم فى شقاء أكثر مما كانوا فى أى وقت آخر ، وأبعد خير من بقى منهم حيا إلى المنفى — لاشك فى أن للصحافة الديموقراطية أن تطالب بحق تتويج رؤوسهم الكالحة المغبرة بأكاليل الغار » .

وكان من الطبيعى أن يثير هذا المقال الذعر فى قراء الجريدة ، ومن ثم فقد بدأت الجريدة فى خسارة مالية . وسرعان ما أمرت الحكومة البروسية ، بعد أن اقتنعت بأن ليس هناك ما تخشاه من الشعور العام ، بحل الجمعية الديموقراطية . وردت الجمعية على ذلك بأن أعلنت أن جميع الضرائب التى تفرضها الحكومة هى ضرائب غير قانونية . وعضد ماركس هذا القرار بكل ما أوتى من قوة ، ودعا الناس إلى مقاومة كل محاولة تبذل لتحصيل الضرائب . وتصرفت الحكومة هذه المرة بلا توان ، وأمرت بأغلاق صحيفة « نيورايننخ زايتونج » على الفور ، وكان آخر عدد منها قد صدر مطبوعا باللون الأحمر ، ويضم مقالا ناريا بقلم ماركس

وقصيدة رائعة بقلم « فرايليجراث » ، فكان الناس يشترونه كما يشترى هواة المجموعات ما يستهويهم . وقبض على ماركس متهما بالدعوة إلى الفتنة وحوكم أمام إحدى محاكم كولونيا . وانتهز الفرصة فحولها إلى مناسبة لإلقاء خطاب بليغ مطول حلل فيه بتفصيل دقيق الوضع السياسى والاجتماعى فى ألمانيا وفى الخارج . وكانت النتيجة غير متوقعة ؛ فقد قال رئيس هيئة المحلفين وهو يعلن براءة المتهم ، إنه يريد أن يشكره باسمه وباسم المحلفين على المحاضرة القيمة الجميلة التى استفادوا منها جميعا إلى حد كبير . ولما لم تستطع الحكومة البروسية ، التى كانت قد حرمته من رعويته البروسية قبل ذلك بأربع سنوات ، إلغاء الحكم بنفسها ، طردته من أرض الراين فى يوليه سنة ١٨٤٩ . فذهب إلى باريس حيث كان الموقف أكثر بلبلة مما كان من قبل بسبب الهياج الذى كان يقوم به البونابرتيون للدعوة لابن أخى نابليون الأول ، وبدا وقتئذ كأن شيئا هاما قد يحدث فى أية لحظة . وكان أعوان ماركس قد تبعثروا فى جميع الاتجاهات . فانضم إنجلز ، الذى كان يكره الجمود وأعلن أنه ليس لديه ما يخشى عليه ، إلى « فرقة باريس » تحت قيادة « ويليخ » ، وهو شيوعى عنيد وقائد كفء كان ماركس يحتقره ويصفه بأنه مغامر رومانسى ، وانجلز يعجب به لإخلاصه وهدوء أعصابه وشجاعته الشخصية . وهزمت فرقة المحاربين الأحرار فى بادن على يد القوات الملكية دون عناء ، وتقهقرت بانتظام إلى حدود الاتحاد السويسرى حيث تبدد شملها . وعبر معظم الناجين الحدود إلى سويسرا ، ومن بينهم إنجلز الذى احتفظ بأجمل الذكريات عن تجاربه فى هذه المناسبة ، وكان مما يسره فى أخريات حياته أن يقص تاريخ الحملة التى كان يصورها على أنها فترة مرحة سارة غير ذات أهمية كبيرة . أما ماركس ، الذى كانت قدرته على المتعة محدودة ، فقد وجد باريس مكانا كئيبا . إذ كانت الثورة قد فشلت فيها تماما ، وكانت دسائس أنصار « الشرعية » وأنصار «أورليان» و «البونابرتيين» تعمل على تدمير ما تبقى من البناء الديموقراطى ؛ وأما الاشتراكيون والراديكاليون الذين لم يهربوا فقد كانوا إما فى السجون أو معرضين لأن يكونوا فيها فى أية لحظة . ومن ثم فإن ظهور ماركس ، الذى كان قد أصبح شخصية تتمتع بشهرة أوروبية واسعة فى ذلك الوقت ، لم يلق أى ترحيب مطلقا من الحكومة . وسرعان ما خيّر بعد وصوله

بين أحد أمرين ، إما أن يغادر فرنسا أو أن ينسحب إلى مستنقعات « موربيهان » البعيدة فى بريتانيا . ومن بين الدول الحرة كانت بلجيكا مقفلة فى وجهه ، ولم يكن من المتوقع أن تسمح له سويسرا ، التى طردت « وايتلنج » ولم ترحب « بباكونين » ، بالبقاء فيها طويلا ، ولم يبق هناك سوى بلد أوروبى واحد لا يقيم العراقيل فى وجهه . وكان ماركس قد وصل باريس من أرض الراين فى يوليه ؛ وبعد ذلك بشهر جمع أصدقاؤه ، الذين ظهر بين أسمائهم اسم « لاسال » لأول مرة ، من التبرعات ما يكفى لدفع نفقات رحلته إلى انجلترا . ووصل لندن فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٤٩ ، وتبعته عائلته بعد ذلك بشهر ، ولحق به إنجلز ، بعد أن تلكأ فترة فى سويسرا ، ثم قام برحلة بحرية مشوقة من جنوا ، فى أوائل نوفمبر . فوجد ماركس مقتنعا بأن الثورة قد تندلع فى أية لحظة فجأة ، وألفاه مشغولا فى إعداد نشرة ضد الجمهورية الفرنسية الرجعية .



الفصل الثامن

المنفى فى لندن : المرحلة الأولى

« ليس هناك سوى ترياق واحد للمعاناة العقلية ،
ذلك هو الألم الجسمانى »
« كارل ماركس »

بلغ ماركس لندن فى سنة ١٨٤٩ مؤملا أن يبقى فيها بضعة أسابيع أو بضعة أشهر على الأكثر : غير أنه عاش فيها دون انقطاع حتى وفاته فى سنة ١٨٨٣ ..
لقد كانت عزلة انجلترا الفكرية والاجتماعية عن التيارات الرئيسية للحياة فى القارة كبيرة دائماً ، ولم تشذ السنوات الوسطى من القرن التاسع عشر عن ذلك فى شىء . فالقضايا التى هزت القارة الأوروبية كانت تستغرق سنين عديدة قبل أن تعبر القنال الإنجليزى ، وعندما تعبره تكون قد أخذت شكلا مختلفاً جديداً ، وتكون قد تغيرت واصطبغت بالصبغة الإنجليزية خلال عملية الانتقال . وكان الثوريون الأجانب يتركون وشأنهم بصفة عامة ، على شريطة أن يكون سلوكهم طيبا وألا يلجأوا فى أعمالهم إلى ما فيه استثارة . لذلك كان هؤلاء الثوريون يبقون فى عزلة كاملة لا يتصل بهم أحد : وكان مضيفوهم يعاملونهم معاملة مهذبة لا جفاء فيها مقرونة بشىء من عدم المبالاة بشئونهم ، وهو ما كان مدعاة لضيقهم ولتسليتهم فى وقت واحد . لقد كان الثوريون ورجال الأدب الذين أمضوا حياتهم فى فورة مستمرة من النشاط الفكرى والسياسى يجدون جو لندن باردا لا حيـــاة فيه . وكان يزيد من إحساسهم بالعزلة الكاملة وبالنفى الطريقة التى كان يعاملهم بها الإنجليز القلائل الذين اتصلوا بهم وما اتسمت به معاملتهم من تعطف وحذر ، بل أحياناً كثيرة ، من الشعور بالاستعلاء ؛ وإذا كان هذا الموقف المتسامح المتمدين المهذب قد خلق فراغاً يسمح لهم بأن يستعيدوا قواهم الجسدية والمعنوية بعد كابوس سنة ١٨٤٩ ، فإن هذا البعد عن الأحداث

الذى خلق هذا الإحساس بالهدوء ، وهذا الاستقرار الذى بدا أن « النظام » الرأسمالى يتسم به فى انجلترا ، وخلو الجو بالكلية من أى عارض من أعراض الثورة ، كانت جميعها تجنح إلى إشاعة إحساس بالجمود اليائس فى نفوسهم قضى على معنويات معظمهم ، وجعلهم يحسون بكثير من المرارة . أما حالة ماركس فقد كان الفقر المدقع والقذارة عاملين إضافيين زادا من ضيقه ، وهو الذى لم يكن أبداً دمث الخلق أو « رومانتيكياً » إلى درجة يعتد بها . وبينما أفاد من هذه السنوات من الهدوء الاضطرارى بوصفه مفكراً أو ثورياً ، فقد دفعه ذلك إلى الانكماش داخل دائرة ضيقة تتكون من أفراد عائلته ومن إنجلز وقلة من الأصدقاء الوثيق الصلة به ، مثل «ليبنخت» و « وولف » و « فرايليجراث » . اما باعتباره شخصية عامة فإن خشونته الطبيعية وتهجمه وغيرته ورغبته فى القضاء على جميع منافسيه قد زادت مع الوقت ، وصار نفوره من المجتمع الذى يعيش فيه أكثر حدة شيئاً فشيئاً واتصاله الشخصى بأفراد هذا المجتمع أكثر صعوبة ؛ فلقد كان كثير الشجار لا يميل إلى المصالحة . وطالما كان أمامه إنجلز يعتمد عليه لم يطلب أية مساعدة أخرى ؛ وفى أخريات حياته عندما كان الاحترام له والإعجاب به قد بلغا ذروتهما ، لم يستطع أى شخص آخر أن يتقرب منه أكثر مما ينبغى خشية أن يتعرض لزجر شديد أو إهانة . وكان مثل كثيرين من عظماء الرجال يحب المديح ، بل وأكثر من ذلك ، يحب الخضوع الكامل ، وقد حصل على قدر كبير منهما فى السنوات الأخيرة من حياته ، ومات متمتعاً بتقدير أكبر ، وراحة مادية أوفر مما تمتع به فى أية فترة سابقة من فترات حياته .

وكانت هذه هى السنوات التى كان الناس يحتفلون فيها بأبطال الوطنية من أمثال « كوسوث » و « غاريبالدى » ويهتفون لهم فى شوارع لندن ؛ فقد كانوا يُعتبرون شخصيات لها لونها الخاص ، ويتوقع الناس منهم تصرفات بطولية وعبارات نبيلة ، أكثر منهم أشخاصاً مريحين أو رجالا نابهين يستطيع المرء أن ينشىء معهم علاقات إنسانية . وكان معظم أتباعهم يُنظر إليهم على أنهم أشخاص غريبو الأطوار لا ضرر منهم ؛ وكان كثيرون منهم كذلك فى الواقع . وسرعان ما ألفى ماركس — الذى لم يكن يتمتع بجاذبية خاصة أو بشهرة كافية تسترعى مثل هذا الانتباه — نفسه

بلا نفوذ تماماً تقريباً، وليس له سوى حفنة قليلة من الأصدقاء فى بلد لم يكن يعرفه إلا معرفة سطحية جداً ؛ رغم أنه قد زاره مرة قبل ذلك بأقل من ثلاث سنوات، وقد ظل فى هذه العزلة كل حياته. وعاش فى هذا المجتمع الناجح المتعدد الألوان؛ مجتمع كان فى ذلك العهد فى ذروة نموه الفريد فى القوة الاقتصادية والسياسية، وهو معزول عنه بصورة غريبة لا ينظر إليه إلا على أنه موضوع من موضوعات الملاحظة العلمية. ذلك أن انهيار الراديكالية المسلحة فى الخارج لم يترك له خياراً فى الأمر، على الأقل مؤقتاً، إلا أن يعيش حياة الملاحظة والدراسة. وكانت النتيجة المهمة لذلك أنه لما كانت المادة التى يستخدمها إنجليزية إلى حد بعيد، حيث اقتصر فى عمله على مكتبة المتحف البريطانى، فقد اعتمد معظم اعتماده على مؤلفين انجليز وتجارب انجليزية فى إثبات نظرياته وتعمياته. وتنصب تلك الأجزاء من البحث الاجتماعى والتاريخى — التى يتكون منها أكثر فصـــول كتابه «رأس المال»، أصالة، إلى حد كبير جداً على فترات يمكن الحصول على معظم شواهدها من الصفحات التى تعالج الشئون المالية فى جريدة «الإيكونوميست»، ومن التواريخ الاقتصادية، ومن المادة الإحصائية التى توجد فى الكتب الزرقاء التى تصدرها الحكومة (وقد كان هو أول باحث استعملها استعمالا علمياً جدياً) ومن مصادر أخرى يمكن الحصول عليها دون مغادرة لندن. وقد تم هذا فى غمار حياة قضاها فى نشاط لا ينقطع من نشر الدعوة والتنظيم العملى، ولكنه كتبها فى أسلوب يتسم بالعزلة الكاملة كما لو كان الكاتب يعيش على بعد أميال عديدة من مسرح مناقشاته، وهذا هو ما أدى أحياناً إلى تكوين فكرة غير صحيحة بالمرة عن ماركس، مؤداها أنه صار خلال السنين التى قضاها فى المنفى عالماً منفصلا متباعداً ترك حياة العمل وراءه فى سن الثلاثين، وانغمس فى أبحاث نظرية بحتة.

وكانت اللحظة التى وصل فيها ماركس إلى انجلترا لحظة غير ملائمة بالمرة لأى أمل فى الثورة. فالحركة الجماهيرية التى نظر إليها اشتركيو القارة على أنها نموذج للعمل البروليتارى المنظم بين أفضل الأمم الاوروبية تصنيعاً، ومن ثم أكثرها تقدماً اجتماعياً — وهى حركة العرائضيين — كانت لحقت بها فى الفترة الأخيرة هزيمة ساحقة. والواقع أن الملاحظين الاجانب، بما فيهم إنجلز، كانوا قد بالغوا

فى تقدير قوتها إلى حد كبير جداً . فقد كانت هذه الحركة تتألف من مجموعات غير متماسكة من الأشخاص والمصالح غير المتجانسة ، تضم محافظين رومانسيين وراديكاليين متقدمين متأثرين بالنماذج الاوروبية ، ومصلحين إنجيليين وراديكاليين فلسفيين ، وصناع وفلاحين فقدوا ما يملكون ، وبعض الخياليين الحالمين ، يجمعهم نفورهم المشترك من الفقر المتزايد ،والتدهور الاجتماعى الذى لحق بالطبقة الوسطى الدنيا والذى تميز به كل تقدم فى الثورة الصناعية ؛ وكثيرون منهم كانوا ينفرون من فكرة أى عنف ، وينتمون إلى الفئة التى أشار إليها البيان الشيوعى بكل ازدراء فوصفهم بأنهم « إقتصاديون وأريحيون وإنسانيون ينادون بتحسين حال الطبقة العاملة ، ومنظمون للإحسان وأعضاء جمعيات الرفق بالحيوان ، ومتهوسون من دعاة الفضيلة ، ومصلحون من كل نوع يتصوره المرء » .

وفوق ذلك كان تنظيم الحركة سيئاً ؛ فزعماؤها لم يتفقوا فيما بينهم ، ولا كانت لهم ،كأفراد أو كجماعات،معتقدات واضحة عن الأهداف التى توضع أمام أتباعهم ، ولا اتجاه موحد فيما يتعلق بوسائل تحقيق هذه الأهداف . وكان أكثر أعضاء الحركة ثباتاً هم نقابيو المستقبل الذين كانوا يهتمون أساساً بتحسين ظروف العمل وتحسين الأجور ، ولم تكن تهمهم المسائل الأوسع نطاقاً إلا فى حدود ما يتعلق بقضيتهم الخاصة . وإنه لموضع شك ما إذا كان مستطاعاً خلق حركة ثورية من هذا الخليط العجيب مهما كانت الظروف . وكما حدث فعلا ، لم تنته الحركة إلى شىء . وقد يكون السبب الأصلى فى صد التيار هو ما نجم عن مشروع « قانون الإصلاح » الكبير من تفريج ظاهرى ، أو قد يكون ذلك راجعاً إلى قوة حركة الانشقاق على الكنيسة . وأياكانت الاحوال فما أن جاءت سنة ١٨٥٠ حتى كانت الأزمة الكبرى التى بدأت سنة ١٨٤٧ قد انتهت وأعقبها أول انتعاش اقتصادى شعر به الناس فى التاريخ الأوروبى ، وأدى إلى زيادة هائلة فى سرعة نمو الصناعة والتجارة وأطفأ آخر جذوة فى حركة العرائضيين . وقد ظل هناك مع ذلك منظمون ومهيجون يقاتلون فى سبيل رفع مظالم العمال ، ولكن السنوات التى سادها السخط ، سنوات شهداء « تولبودل » و « بيترلو » ، التى تركت وراءها سجلا مريراً من الإرهاب الغبى والدمار الاجتماعى الواسع النطاق الذى سجلته نشرات

« هودجسكين » و « براى » المؤثرة التى تقشعر لها الأبدان،وسخرية « وليم كوبت » الشديدة اللاذعة ،كانت تولى فى غير جلبة لتخلى الطريق أمام عصر أكثر اعتدالا ، عصر «جون ستيوارت ميل » و « الوضعيين الانجليز » وما يتسمون به من مشاعر طيبة نحوالاشتراكية، « والاشتراكية المسيحية» التى سادت العقد السابع، والنقابية التى اتسمت خاصة « باللاسياسية » التى نادى بها رجال حذرون وانتهازيون حريصون من أمثال «كريمر » و « لوكرافت » الذين كانوا ينظرون بعين الريبة إلى أصحاب المذاهب الأجانب الذين جاءوا يعلمونهم ما يجب أن يفعلوه .

وكان طبيعيا أن يبدأ ماركس فى إنشاء علاقات مع المنفيين الألمان ، وكانت لندن وقتئذ تضم جماعات من المهاجرين الألمان من أعضاء اللجان الثورية المنحلة ، وشعراء ورجال فكر من المنفيين ، وصناعا ألمانا من أصحاب الراديكالية المبهمة أقاموا فى لندن منذ مدة طويلة قبل الثورة ، وشيوعيين عاملين نفوا مؤخرا من فرنسا وسويسرا كانوا يحاولون إعادة إنشاء « العصبة الشيوعية » وتجديدالعلاقات مع الراديكاليين الإنجليز الذين يعطفون علىالحركة . واتبع ماركس أسلوبه المألوف، واقتصر فى صحبته على الألمان ؛ وكان يؤمن إيمانا راسخا بأن الثورة لم تنته ، بل لقد ظل مقتنعاً بذلك حتى حدث الانقلاب الذى رفع «لويس نابليون» إلىعرش فرنسا. على أنه فى هذه الأثناء قضى ما كان يعتبره مجرد فترة هدوء مؤقت خلال المعركة فى نواحى النشاط المألوفة لدى النفى السياسى ؛ يحضر اجتماعات اللاجئين ويتشاجر بلا نهاية مع أولئك الذين جلبوا على أنفسهم ريبته . وكان « هيرزن » المهذب المتأنق يقيم فى لندن فى ذلك الوقت ، وقد أحس بنفور شديد تجاه ماركس فكتب فى مذكراته وصفا خبيثاًرائعا للمركز الذى كان يحتله ماركس وأتباعه بين المهاجرين السياسيين الآخرين وقتئذ وبعد ذلك . وكان مشهورا عن الألمانيين أنهم بصفة عامة لا يستطيعون التعاون مع المنفيين الآخرين من الإيطاليين والروس والبولنديين والمنخاريين الذين أثاروا حنق الألمان وازدراءهم لعدمالتزامهم أى منهج،ولاندفاعهم الشديد فى إنشاء العلاقات الشخصية الوثيقة . ووجد المنفيون الآخرون بدورهم الألمان قوما مزعجين بجمودهم المنفّر وسلوكهم الخشن وخيلائهم الذى لا حد له ، ثم فوق هذا وذاك ، بشقاقهم العنيف البغيض الذى لا يكاد ينقطع والذى

كانت تفاصيل الحياة الخاصة تعتبر فيه مادة صالحة لتنشر على الملأ وفى الصحافة العامة بصورة وحشية .

إن كوارث سنة ١٨٤٨ لم تزعزع معتقدات ماركس النظرية ، ولكنها أرغمته على إعادة النظر جديا فى برنامجه السياسى . وقد تأثر فى سنة ١٨٤٧ — ١٨٤٨ إلى حد كبير جدا بدعاية « وايتلنج » و « بلانكى » بحيث بدأ يعتقد ، ضد ميله الهيجلى الطبيعى ، أنه لا يمكن القيام بثورة ناجحة إلا عن طريق انقلاب تقوم به جماعة صغيرة من أولى العزم من الثوريين المدربين الذين يستولون على السلطة ثم يظلون يحتفظون بها ، مكونين من أنفسهم اللجنة التنفيذية للجماهير التى يعملون باسمها . على أن تقوم هذه الجماعة بوظيفة رأس الحربة للهجوم البروليتارى . فجماهير الطبقة العاملة الكثيرة العدد المبعثرة لا يمكن أن ينتظر منها ، بعد سنوات من العبودية والظلام ، أن تكون قد نضجت بدرجة تكفى لحكم نفسها بنفسها أو للسيطرة على القوى التى استولت على مركزها وتصفيتها . ومن ثم يجب تكوين حزب يقوم بوظيفة « الطليعة » السياسية والفكرية والتشريعية للشعب ، تتمتع بثقته بسبب برئها من الغرض الشخصى وتدريبها المتفوق وبعد نظرها العملى فيما يتعلق بالحاجات المباشرة للموقف؛ طليعة تستطيع أن تقود الشعب فى خطواته غير الثابتة خلال الفترة الأولى من حريته الجديدة . وأطلق ماركس على هذه الفترة الضرورية حالة « الثورة الدائمة » التى تسودها ديكتاتورية طبقة تمارسها البروليتاريا على سائر عناصر المجتمع ، « بوصفها خطوة ضرورية وسطا تمهد لإلغاء جميع الفوارق الطبقية وجميع علاقات الإنتاج القائمة التى تعتمد عليها هذه الفوارق ، والقضاء على جميع العلاقات الاجتماعية التى تقابل علاقات الإنتاج المذكورة، وقلب جميع الآراء المستمدة من هذه العلاقات الاجتماعية قلباً تاماً » . ولكن على الرغم من أن الغاية واضحة هنا إلا أن الوسيلة تركت مبهمة إلى حد ما . فإن « الثورة الدائمة » سوف تتم فى رأيه بوساطة ديكتاتورية البروليتاريا ، ولكن كيف يتحقق تنفيذ هذه المرحلة ؟ وما هو الشكل الذى تكون عليه ؟ لا شك فى أن ماركس كان قد وصل فى سنة ١٨٤٨ إلى التفكير فى الموضوع على أساس أنها « طليعة » تعين نفسها بنفسها ، لا جماعة تعمل فى السر أو ترأسها شخصية ديكتاتورية كما قال « باكونين » ولكن ، كما تصورها « بابيف » .

فى سنة ١٧٩٦ ، جماعة صغيرة من الأفراد المؤمنين الذين لا يقف فى وجههم شىء ، يمارسون سلطة ديكتاتورية ويعلمون البروليتاريا حتى تصل إلى مستوى تستطيع عنده أن تفهم مهمتها الحقيقية . وقد كانت دعوته للتحالف المؤقت مع زعماء البورجوازية الراديكالية فى كولونيا سنة ١٨٤٨ — ١٨٤٩ وسيلة لتحقيق هذه المرحلة. فالبورجوازية الصغيرة ، وهى تجاهد ضد ضغط الطبقات التى تعلوها مباشرة ، هى الحليفة الطبيعية للعمال فى هذه المرحلة . فهى لما كانت غير قادرة على الحكم معتمدة على قوتها وحدها ، فإنها ستضطر إلى الاعتماد أكثر فأكثر على تأييد العمال ، حتى تأتى اللحظة التى يستولى فيها العمال ، وقد صاروا سادة الموقف فى مجال الاقتصاد ، على الأجهزة الرسمية للسلطة السياسية ، إما بواسطة انقلاب عنيف أو بواسطة الضغط التدريجى ، وقد صار هذا المبدأ مألوفاً للعالم اليوم ، لأن لينين اتبعه وطبقه بحذافيره بإخلاص هو وتروتسكى فى روسيا سنة ١٩١٧ . بيد أن ماركس نفسه كان قد نبذ هذا المبدأ ، على الأقل عملياً وفى نواحى حيوية منه ، تحت تأثير أحداث سنة ١٨٤٨ . فقد صرف النظر كلية عن فكرة « الطليعة » التى بدت له غير قادرة على تنفيذ أى شىء فى مواجهة جيش منظم معاد وبروليتاريا متراخية غير مدربة . فإن زعماء العمال لم يكن ينقصهم الشجاعة أو الإدراك العملى ، ومع ذلك فقد كان من الواضح الجلى أنه يستحيل عليهم الاحتفاظ بالسلطة فى سنة ١٨٤٨ أمام القوة المتحدة للملكيين والجيش والطبقة المتوسطة العليا . وهكذا إذا لم تدفع «البروليتاريا» إلى الشعور بدورها التاريخى سيظل زعماؤها بلا حول ولا قوة . وهم قد يستطيعون إثارة تمرد مسلح ، ولكنهم لن يكون لهم أمل فى الاحتفاظ بثمراته دون تأييد واع مدرك من غالبية الطبقة العاملة . ولهذا فإن الدرس الحيوى الذى تمخضت عنه أحداث سنة ١٨٤٨ ، كما ارتآه ماركس ، هو أن الواجب الأول للزعيم الثورى هو أن ينشر بين الجماهير الوعى بمصيرهم ومهمتهم . ولا مندوحة عن أن تكون هذه العملية طويلة وشاقة ؛ بيد أنها إذا لم تتم فلن يتحقق شىء على الإطلاق سوى بعثرة الطاقة الثورية هباء فى فورات متفرقة يقودها مغامرون وأشخاص مندفعون ، وهى لا بد منتهية — ما دامت لا تقوم على أساس حقيقى من الإرادة الشعبية — إلى الهزيمة ، بعد فترة قصيرة من الانتصار ، على يد قوى الرجعية التى تكون قد لمت شعثها ، وما يتبع ذلك من اضطهاد وحشى يشل

البروليتاريا سنوات طويلة . وعلى هذا الأساس هاجم ماركس الثورة التي انتهت بحكم « الكوميون » في باريس سنة ١٨٧١ ليلة وقوعها ، وإن كان قد عاد فيما بعد فكتب عنها تأبيناً بليغاً مؤثراً مدفوعا إلى ذلك إلى حد كبير بدوافع تكتيكية .

والنقطة الثانية التي غير فيها ماركس رأيه تماما هي إمكانية التعاون مع البورجوازية . فهو من الناحية النظرية كان لايزال يؤمن أن جدلية التاريخ تحتم قيام نظام البورجوازية الصغيرة كمقدمة للشيوعية الكاملة ، بيد أن قوة هذه الطبقة في ألمانيا وانجلترا وعزمها الواضح على حماية نفسها ضد حليفتها «البروليتاريا» أقنعته بأن الاتفاق معها سيعود الغرم فيه على العمال بوصفهم الجانب الأضعف ، هذا إلى أن خطة الحكم من وراء الستار لم يكن من الممكن تحقيقها حتى ذلك الوقت . ولقد كانت هذه النقطة فيما مضى هي أهم نقط الخلاف بينه وبين شيوعيي كولونيا الذين عارضوا في التحالف مع التحرريين باعتبار أن ذلك يعد انتهازية تنتهي بكارثة . وقد عاد ماركس الآن إلى وجهة نظرهم . وإن كانت عودته لها لأسباب أخرى ، لا لأن الانتهازية في ذاتها تؤدي إلى انحطاط أخلاق أو لأنها بالضرورة تهزم نفسها بنفسها ، كما قالوا ، ولكن لأنها في هذه الحالة بالذات لايمكن أن تنجح لأنها ستخلط القضايا لدى حزب لم ينظم التنظيم الكافي بعد ؛ ومن ثم تؤدي إلى الضعف الداخلي والهزيمة . ومن هنا جاء إصراره في السنوات التالية على المحافظة على نقاء الحرب ،وعلى تخلصه من أحابيل الاتفاقات أيا كانت . وقد جاءت سياسة التوسع التدريجي والاستيلاء على القوة السياسية ببطء عن طريق الأنظمة البرلمانية المعترف بها ، مصحوبة بضغط منظم على نطاق دولي على أصحاب الأعمال عن طريق النقابات والمنظمات المماثلة كوسيلة للحصول على ظروف اقتصادية أحسن للعمال — وهي السياسة التي تتميز بها أساليب الأحزاب الاشتراكية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين — جاءت هذه السياسة نتاجاً طبيعياً لتحليل ماركس للأسباب التي أدت إلى كارثة سنة ١٨٤٨ الثورية .

بيد أن ماركس لم يمس هدفه الأساسي بأي تغيير أو تحوير ؛ ألا وهو : العمل على خلق ظروف تتحقق فيها ديكتاتورية «البروليتاريا» أي «الثورة الدائمة»؛ البورجوازية وجميع أنظمتها مقضي عليها بالزوال حتما . وقد تستغرق العملية وقتا

أطول مما قدرلها أصلا ؛ فإذا حدث هذا وجب أن تتعلم البروليتاريا الصبر والأناة ووجب على الزعماء ألا يطلقوا صيحتهم لدعوة البروليتاريا إلى العمل إلا إذا كان الموقف نفسه قد نضج وأصبح صالحا لتدخلهم . ويجب على البروليتاريا فى هذه الأثناء أن تكرس نفسها لبذر البذور وتنظيم قواها وتدريبها بحيث تكون مستعدة فى اللحظة الحاسمة . وقد هيأ لنا التاريخ تعليقاً غريبا جداً على هذا الرأى ؛ فصانعو الثورة الشيوعية فى روسيا قد نجحوا على الأقل فى تجنب نتائج سنة ١٨٤٨ و سنة ١٨٧١ بأن تصرفوا على أساس الرأى الأول الذى نبذه ماركس فضربوا ضربتهم ؛ بينما الجماهير الشعبية لم تكن قد نضجت للاضطلاع بهذه المهمة ، أما الاشتراكيون الديمقراطيون الألمان والنمساويون المتمسكون الذين أخلصوا لمذهب « الأستاذ » الذى بشّر به أخيراً ، وساروا بحذر وعناية وأنفقوا طاقتهم فى تعليم الجماهير رسالتها ، هزموا هزيمة ساحقة على يد الطبقة الرجعية التى أعادت تنظيم نفسها والتى كان يجب أن تزول قوتها نهائياً منذ أمد طويل نتيجة لتطور التاريخ من جهة والتخريب الخفى المستمر من جانب البروليتاريا من جهة ثانية .

وفى خلال ذلك لم يظهر ما يبشر بوقوع ثورة فى أى مكان ، وانقلب التفاؤل الذى لم يكن له أساس من العقل إلى حالة من الكآبة العميقة . وقد كتب «هيرزن» فى مذكراته يقول : « إن المرء لا يستطيع أن يذكر هذه الأيام دون أن يحز فى نفسه ألم شديد . . . ففرنسا كانت تسير فى سرعة الكواكب الساقطة نحو انقلاب حتمى . وألمانيا كانت قد سقطت منهوكة القوى عند أقدام القيصر « نيقولا » وقد أسقطتها هنغاريا المخدوعة،واستمرالثوريون يقومون بأعمال لاقيمة لها . إن أكثر الناس جداً ليقعون أحياناً فريسة لسحر الشكل المجرد وينجحون فى إقناع أنفسهم بأنهم فى الواقع يؤدون عملا إذا عقدوا اجتماعات وأمامهم أكوام من الوثائق والمشروعات، وعقدوا مؤتمرات تسجل فيها الوقائع وتتخذ فيها القرارات وتطبع على أثرها البيانات وهكذا . إذ أن أجهزة الثورة قمينة بأن تفقد نفسها فى مثل هذا السلوك كما تفعل البيروقراطية الحكومية تماما ؛ إن انجلترا تكتظ بمئات الاتحادات من هذا النوع ؛ اجتماعات مهيبة تتم ويحضرها دوقات المملكة ونبلاؤها ورجال الدين والوزراء ؛ ويجمع أمناء الصندوق الأموال ، ويكتب

الصحفيون مقالات ؛ كلهم مشغولون فى عمل هو لاشىء على الإطلاق . وتقوم هذه الاجتماعات الخيرية أو الدينية بوظيفتين ، فهى مصدر من مصادر التسلية ، ثم إن فيها ترضية للضمائر القلقة لأولئك المسيحيين ، الدنيويين إلى حد ما ، ... لقد كان الأمر كله يجمع بين المتناقضات ، ولا يعدو أن يكون مؤامرة علنية أو مكيدة تدبر خلف أبواب مفتوحة على مصاريعها » .

وفى هذا الجو المعتم المليء بالدسائس، الذى يسوده الشك وتبادل التهم، الذى لابد أن يخيم على السنوات الأولى من حياة أية جماعة كبيرة من المنفيين السياسيين الذين لا تربطهم ببعضهم قضية مشتركة ، وإنما تقرب بينهم الظروف وحدها ، أمضى ماركس السنتين الأوليين من حياته فى لندن . وقد رفض بإصرار أن تكون له أية علاقة « بهرتزن » أو « مازينى » وأمثالها ، ولكنه مع ذلك لم يقعد خاملا . فعكف على تحرير مجلة « نيورا ينخ زايتونج » ، ونظم لجاناً لمساعدة اللاجئين ، ونشر هجوماً لقى نجاحاً كبيراً ضد الأساليب التى تبعها بوليس كولونيا فى محاكمات شركائه ، تتبع التزويرات الضخمة والشهادات الملفقة التى دبرها عملاء البوليس فكشف أسرارها . وإذا كانت مقالاته لم تساعد على تبرئة شركائه فقد جعلت المحاكمات التى من هذا النوع أكثر صعوبة فى المستقبل ؛ وكذلك شن ماركس هجوما على « ويليخ » داخل « العصبة الشيوعية » ؛ فقد كان يؤمن بأن أية منظمة تنشر أنصاف الحقائق هى أكثر خطورة من منظمة لا تفعل شيئاً على الإطلاق، وأنه من الخير أن تندثر مثل هذه المنظمة ، ومن ثم فقد جاهد لكى يحل هذه العصبة بكل الوسائل وفى غير تردد . فلما نجح فى القضاء بهذه الطريقة على شركائه السابقين ، وكان لا يشعر نحو بقية المهاجرين بشىء سوى الازدراء ويعتبرهم مجموعة من الأشخاص الذين يتحدثون هراء وإن لم يكونوا مؤذيين ، جعل من نفسه ومن إنجلز مركزاً مستقلا للدعاية ، واتحاداً شخصياً تجتمع حوله بالتدريج البقايا المحطمة المبعثرة للشيوعية الألمانية حتى تصبح قوة مرة أخرى . وقد نجحت هذه الخطة كل نجاح .

وكانت أهم كتاباته فى تلك الآونة تتعلق بالأحداث الأخيرة فى فرنسا ؛ كان أسلوبه غامضاً مبهماً عندما يعالج قضايا مجردة ، ولكنه كان براقاً عندما يعالج الوقائع ؛ فمقالاته عن « الصراع الطبقى فى فرنسا » ومقالاته التى أعيد طبعها تحت عنوان

« يوم لويس بونابارت : الثامن عشر من بروميير » تعد نماذج للكتيبات النفاذة القاسية . ويعالج هذان الكتيبان الموضوع نفسه تقريباً ، فيعطيان وصفاضخما أريباً للثورة والجمهورية الثانية ،ويتضمنان تحليلا تفصيليا للعوامل السياسية والاقتصادية وتفاعلها على ضوء موقف الطبقات التى تمثل هذه العوامل حاجاتها . وقد قسم ماركس زعماء ممثلى الأحزاب المختلفة فى سلسلة متتابعة من الصور الساخرة الحادة تبعاً للطبقات التى يعتمد كل منهم على تأييدها ، وصور تطورات الموقف السياسى، من تحررية مبهمة إلى جمهورية محافظة إلى صراع طبقى علنى ، ثم فى النهاية إلى ديكتاتورية ساخرة ؛ كل ذلك فى وصف ساخر لأحداث عام ١٧٨٩ : لقد كانت كل مرحلة فى ذلك الوقت أكثر عنفاً وثورية من سابقتها ؛ وأما فى سنة ١٨٤٨ فقد حدث عكس ذلك تماما ؛ فنى يونية خانت البورجوازية الصغيرة حليفتها البروليتاريا ، وبعد ذلك وقعت البورجوازية الصغيرة بدورها فريسة لخيانة الطبقة الوسطى ؛ وفى النهاية تفوق أصحاب الأراضى ورجال المال وسلموا الطبقة الوسطى إلى الجيش ولويس نابليون . وكان هذا جميعه مما لا يمكن لأى فرد من السياسيين أن يحول دون وقوعه ، حيث إنه كان النتيجة الحتمية لمرحلة النمو التاريخى التى بلغها المجتمع الفرنسى فى ذلك العهد .

وكانت ألوان النشاط الآخر لماركس فى هذه الفترة تتضمن محاضرات عامة فى الاقتصاد السياسى يلقيها فى « الاتحاد التربوى للعمال الألمان » ، وتتضمن أيضاً كمية هائلة من المراسلات مع الثوريين الألمان المبعثرين فى كل مكان ، وخاصة مع إنجلز ، الذى عاد إلى وفاقه مع والديه على كره منه ، إذ لم يكن له مصدر رزق اخر ، وذهب إلى مانشستر لكى يعمل فى مصنع أبيه لغزل القطن . وقد استغل إنجلز هذا الاستقرار المادى المحدود الذى أحرزه بهذه الطريقة فى مساندة ماركس ، مادياً وفكرياً ، بقية حياته . وكان مركز ماركس المالى ميئساً لسنوات عديدة ؛ فلم يكن له مصدر دخل منتظم بينما عائلته فى ازدياد ، وسمعته تحول دون أن تستخدمه أية هيئة محترمة . ولطالما أشار الكتاب إلى الفقر المدقع الذى تعرض له ماركس وأسرته طوال السنوات العشرين الماضية،وما صحبه من هوان يعجز القلم عن وصفه : فنى مبدأ الأمر ظلت العائلة تنتقل من مسكن حقير إلى آخر ؛ من « شلسى » إلى

« ميدان ليسستر » ثم إلى أزقة « سوهو » الموبوءة ؛ وكثيراً ما كانت العائلة تعيش بلا مال ، وتظل على الطوى حتى يأتيها قرض يفرج كربتها مؤقتاً أو يصلها من إنجلز ورقة من فئة الجنيه تخفف وطأة حاجتها مؤقتاً ؛ بل كانت أحياناً ترهن ملابسها كلها، وتضطر إلى الجلوس ساعات طوالاً بلا ضوء أو طعام لا يقطعها سوى زيارات الدائنين المطالبين بمالهم ، فكان يقابلهم عند الباب أحد أطفال العائلة وليس على لسانه سوى إجابة واحدة دائماً : « السيد ماركس ليس هنا » .

وهناك وصف حي للظروف التي عاش فيها ماركس خلال السنوات السبع الأولى من منفاه ، ورد في تقرير لأحد الجواسيس البروسيين كان قد استطاع بطريقة ما أن ينشئ علاقات طيبة مع عائلته ، ويدخل منزله الوضيع أيام كان يقيم في شارع «دين» جاء فيه . « . . . إنه (ماركس) يعيش في حي من أسوأ أحياء لندن وأرخصها ، ويسكن في حجرتين . ولا توجد بسكنه قطعة واحد من الأثاث الجيد في أي من الحجرتين ، فكل شئ فيها محطم مهلهل ممزق،وكل شئ فيها تعلوه طبقات كثيفة من الغبار . . . الكتب والمخطوطات والجرائد ملقاة إلى جانب لعب الأطفال ؛ ثم قطع متناثرة من حقيبة زوجته التي تستخدمها في الحياكة وفناجين وملاعق وسكاكين وشوك قذرة ومصابيح ومحبرة وأقداح و « بيبة » وبقايا طباق محترق جميعها في كومة واحدة،تجمعت فوق منضدة واحدة . فإذا دلفت إلى الغرفة جعل الدخان ورائحة الطباق عينيك تدمعان حتى البكاء ، ويبدو لك في مبدأ الأمر أنك تتلمس طريقك داخل كهف مظلم ؛ إلى أن تألف الأمر ، وتستطيع أن تتبين بعض الأشياء فيما يشبه الضباب . والجلوس في بيته عملية خطرة . فهنا مقعد ليس له سوى ثلاثة أرجل ، وهناك مقعد آخر يبدو سليما يلعب عليه الأطفال متظاهرين بأنهم يطهون طعاماً . وهذا هو المقعد الذي يقدمونه للضيف ، دون أن يرفعوا من فوقه الطهو الذي يعده الأطفال ، فإذا جلست عليه عرضت ملابسك للخطر.على أن جميع هذه الأشياء لاتبدو أنها تسبب أي ضيق لماركس أو زوجته ، فأنت تستقبل بكل ترحاب ومودة ، ويعرض عليك الطباق أو أي شئ آخر قد يكون موجوداً . وسرعان ما تبدأ مناقشة جميلة تعوض المرء عن كل هذه المتاعب المنزلية وتجعلها شيئاً محتملا . . . » (1) .

(١) اورد هذه النبذة « ب : نيكولا يفسكي » و « منشن — هلفن » في « كارل ماركس ـ الرجل والمقاتل» .

رجل عبقرى مضطر إلى أن يعيش فى حجرة فى أعلى المنزل ، وأن يختبئ كلما جاء الدائنون ملحين مطالبين ، أو يرقد فى فراشه لأن ملابسه مرهونة : إنه لموضوع من تلك الموضوعات التقليدية التى درج الناس على أن يتخذوا منها مادة للهزل العاطفى المرح . ولم يكن ماركس « بوهيمياً » ، لذلك تركت ظروفه السيئة فى نفسه آثاراً محزنة . لقد كان حساساً معتزاً بنفسه، يطالب دنياه بمطالب عظيمة ؛ ومن ثم فإن صنوف الإذلال الحقيرة ، والإهانات التى عرضته لها ظروفه ، وخيبة أمله فى الحصول على المركز المسيطر الذى كان يعتقد أنه كفء له ، وكبت حيويته الطبيعية الهائلة ، كل ذلك جعله ينطوى على نفسه فى نوبات من الحقد والغضب الجامح . وكثيراً ماوجدت مشاعره المريرة متنفساً لها فى كتاباته وفى حملات الانتقام الوحشية الطويلة التى كان يوجهها لبعض الناس . إذ كان يرى المؤامرات والدسائس والاضطهاد فى كل مكان ؛ وكلما علا صوت ضحاياه يعلنون براءتهم كلما كان أكثر اقتناعاً بخيانتهم وجرمهم .

أما أسلوب حياته العادى فقد كان يتكون من زيارات يومية لغرفة المطالعة فى المتحف البريطانى ، حيث كان يظل بها عادة من التاسعة صباحاً إلى السابعة مساء ، عندما يغلق المتحف أبوابه ، ويعقب ذلك ساعات طوال من العمل فى المساء ، يصحبها تدخين لاينقطع ، كان فى الأصل ترفيها ثم انقلب إلى مسكن لا غنى عنه ؛ وقد أثر ذلك كله فى صحته تأثيراً مستديماً ، وجعله عرضة لنوبات كثيرة من مرض الكبد، يصحبها أحياناً بثور والتهابات فى العين تحول بينه وبين الاستمرار فى العمل وتزعجه وترهقه ، كما كانت تعرقل مورد رزقه الذى لم يكن مضموناً فى يوم من الأيام . وفى سنة ١٨٥٨ كتب ماركس يقول: « لقد ابتليت كما ابتلى أيوب ، وإن لم أكن متديناً أخشى الله مثله . وكل مايقوله هؤلاء السادة (الأطباء) يعنى شيئاً واحداً ، هو أن المرء يجب أن يكون صاحب دخل متيسر ، لا مسكيناً فقيراً مثلى فإننى أكثر فقراً من فأر الكنيسة ! » . ولم يكن إنجلز - الذى يبدو أن دخله لم يتجاوز فى ذلك الوقت مائه جنية فى العام ، وكان غليه أن يحافظ على مظهر محترم كممثل لوالده - ليستطيع فى مبدأ الأمر أن يساعد ماركس بانتظام رغم كل ما أبداه نحوه من كرم . وكان بعض الأصدقاء فى كولونيا ، أو بعض الإشتراكيين الألمان

الكرماء مثل « ليبنخت » و « فرايليجراث » ، يجمعون بعض المبالغ من أجله من وقت إلى آخر مما ساعده ، إلى جانب ما كان يتقاضاه من أجر عن كتابته فى الصحف بين الفينة والفينة وما كان يرثه من مبالغ ضئيلة من أقاربه بين الحين والحين ، أن يستمر على حافة الكفاف . ومن ثم فليست هناك صعوبة فى فهم حقده على الفقر، وما يجرّه على صاحبه من عبودية ومذلة ؛ حقدا كان أشد فى أثره حتى من حقده على الذل والخنوع . وإن وصفه ، الذى يظهر هنا وهناك فى مؤلفاته ، للحياة فى الأحياء الصناعية القذرة ، وفى قرى التعدين وفى المزارع الكبرى ، ووصفه لموقف الرأى العام المتمدين من الحياة فيها ، ليتسم بمزيج من الحنق العنيف والمرارة الجامدة التى لا انفعال فيها ، يشتد أواره بصفة خاصة عندما يتجه وصفه إلى التفصيل وتكون لهجته هادئة بصورة غير طبيعية ، فيشيع الذعر فى النفوس ، ويبعث على الغضب والخجل الذى لا يحتمل ، حتى لدى القراء الذين لا تؤثر فيهم بلاغة « كارلايل » النارية أو توسلات « جون ستيوارت ميل » الإنسانية المترفعة أو تلك الفصاحة الجارفة التى يتميز بها « وليم موريس » و « الإشتراكيون المسيحيون » . ومات خلال هذه السنوات ثلاثة من أبنائه ، ولداه « جيدو » و « ادجار » وابنته « فرنسيسكا » نتيجة للظروف التى كانوا يعيشون فيها إلى حد كبير . وعندما ماتت ابنته « فرنسيسكا » لم يكن لديه ما يشترى به كفناً لها ، ولم ينقذه من حرجه إلا كرم أحد اللاجئين الفرنسيين ، وقد وصفت زوجة ماركس الحادث بتفصيل مؤلم فى خطاب لها أرسلته إلى زميل من زملاء المنفى . وكثيراً ماسقطت زوجة ماركس نفسها فريسة للمرض ، فتقوم على رعاية الأطفال خادمتهم المخلصة « هيلين ديموث » التى ظلت معهم حتى النهاية .

وقد كتب ماركس فى إحدى هذى المناسبات إلى إنجلز ، يقول : « لم أكن أستطيع ، وما أنا بمستطيع الآن ، أن أستدعى الطبيب لأنى لا أملك ثمن الدواء . لقد كان غداؤنا فى الأيام الثمانية أو العشرة الماضية قاصرا على الخبز والبطاطس ، واليوم أشك فى أنى سأستطيع الحصول حتى عليهما » .

وكان ماركس بطبيعته كتوما ، وكانت عادة رثاء النفس لديه أقل منها لدى أى شخص آخر فى الوجود ؛ بل إنه كان أحياناً يتناول فى خطاباته لإنجلز سوء حظه

بتهكم مرير ، لعله يخفى عن القارئ العابر حقيقة الظروف البشعة التى كثيرا ما كان يجد نفسه فيها . ولكن عندما مات ابنه « ادجار » ، الذى كان يتعلق به تعلقا شديدا ، وهو بعد فى السادسة من عمره ، وكان ذلك فى سنة ١٨٥٦ ، نفذ السهم إلى قلبه رغم كل تحفظه الحديدى فكتب إلى صديقه يقول : « لقد قاسيت جميع ألوان الشقاء ، ولكنى لم أعرف معنى التعاسة الحقيق إلا الآن . . . وفى غمار كل ما تعرضت له من بلاء فى هذه الأيام ، كان التفكير فيك وفى صداقتك ، والأمل فى أنه يمكن أن يكون هناك شئ حسن نستطيع أن نحققه فى هذه الدنيا ، هو ما يشد أزرى ، ويحول بينى وبين الانهيار » .

يقول بيكون : « إن الناس المهمين لديهم صلات متعددة بالطبيعة والدنيا ، ولديهم الكثير مما يثير اهتمامهم فى الحياة ، حتى إنه ليسهل عليهم التغلب على أية كارثة ، وأنا لست من أولئك الأشخاص المهمين ؛ إن موت طفلى قد أثر فى حتى أننى ما زلت أحس وطأة الكارثة كما أحسست بها أول يوم ، وكذلك زوجتى ، فقد انهارت تماما » .

وكان النوع الوحيد من المتعة الذى تسمح به العائلة لنفسها هو الخروج للتريّض فى مروج « هامستيد » خلال شهور الصيف ، فكانوا يخرجون صباح الأحد من المنزل فى شارع « دين » بصحبة « هيلين ديموث » المخلصة وصديق أو صديقين يحملون سلة للأكل وبعض الصحف يشترونها فى طريقهم ويسيرون حتى « هامستيد » . وهناك يجلسون تحت الأشجار حيث يلعب الأطفال أو يقطفون الزهور بينما يتحدث الكبار أو يقرءون . وكلما امتد بهم الأصيل ازدادوا مرحا ولا سيما إذا كان معهم إنجلز الطروب . كانوا يتفكهون ويغنون ويتسابقون جريا ويلقى ماركس شيئا من الشعر ، الذى كان محببا إلى نفسه ، ويحمل الأطفال على ظهره ، ويعمل على تسلية الجميع ، ثم يختتم يومه بأن يركب حمارا ويسير به فى وقار جيئة وذهابا أمام الجماعة ؛ وهو منظر كان دائما أبدا مصدر بهجة لهم . وعندما يجن الليل يعودون سيرا على الأقدام وهم يغنون فى معظم الأحيان أناشيد حماسية ، ألمانية أو إنجليزية ، فى طريقهم إلى المنزل فى « سوهو » . على أن هذه المناسبات البهيجة كانت قليلة ونادرة ، فلم تترك أثرا كبيرا فى إضاءة ما أطلق عليه ماركس نفسه فى أحد خطاباته إلى إنجلز « ليل المنفى الطويل » .

وخفف من حـــدة هذه الحالة شيئا ما ، دعوة جاءت فجأة من جريدة « نيويورك ديلى تريبيون » ليكتب لها بانتظام مقالات عن الشئون الأوروبية . وقد جاءه العرض من « شارلس أوجستس دانا » رئيس تحرير هذه الجريدة للشئون الخارجية الذى كان قد قابل ماركس عن طريق « فرايليجراث » فى كولونيا سنة ١٨٤٩ وتركت فيه فطنة ماركس السياسية أثراً عميقا . وكانت « النيويورك ديلى تريبيون » صحيفة راديكالية أسسها جماعة من أتباع « فوريية » من الأمريكيين، وكان توزيعها فى هذه الفترة يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ نسخة، ولعله كان أكبر توزيع لصحيفة فى العالم وقتئذ ؛ وكانت سياستها تقدمية على نطاق واسع ؛ فنى الداخل كانت سياستها مناهضة للرق ، وتجنح إلى جانب حرية التجارة ، بينما فى الشئون الخارجية كانت تهاجم مبدأ الحكم المطلق ، ومن ثم وجدت نفسها تقف موقف المعارضة بالنسبة لجميع حكومات أوروبا تقريبا . وقبل ماركس — الذى كان يرفض فى عناد كثيراً من عروض التعاون مع الصحف الأوروبية التى كان يعتقد أن لها ميولا رجعية — هذا العرض متلهفاً . وتم الاتفاق على أن يتقاضى المراسل الجديد جنيها استرلينيا واحداً عن كل مقال يكتبه ، وقد ظل يكتب لها مقالات أسبوعية مدى عشرة أعوام متنقلا بين عدد كبير من الموضوعات التى ما زالت تحتفظ ببعض الأهمية حتى الآن . وكان أول ما طلبه منه « دانا » أن يكتب سلسلة من المقالات عن استراتيجية كل من الجيشين المقاتلين فى الحرب الأهلية فى ألمانيا والنمسا ، وأسلوبهما فى القتال مع تعليقات عامة على وسائل الحرب الحديثة . ولما كان ماركس يجهل تماماً هذا الموضوع الأخير وكانت إنجليزيته فى ذلك الوقت ضعيفة جداً ، فقد وجد هذا الطلب صعب التحقيق ؛ بيد أن رفض أى شىء ينطوى على دخل منتظم ، ولو كان ضئيلا ، كان أمراً لا يمكن التفكير فيه . والتجأ ماركس فى حيرته إلى إنجلز فعرض إنجلز مساعدته ، كما حدث فى مناسبات أخرى عديدة فيما بعد ، فكان يكتب المقالات ويوقعها باسم ماركس . ومنذ ذلك الوقت ظل يلجأ إلى إنجلز ، فكلما كان الموضوع مما لا يعرفه أو لا يوافقه أو حال بينه وبين العمل فيه غياب أو مرض ، كان إنجلز يقوم بهذه المهمة بكفاية ، وما أسرع ما أصبح مراسل « التريبيون » يحظى بشعبية كبيرة فى أمريكا بوصفه صحفياً واسع الإلمام متعدد المواهب له جمهوره الخاص به .

وأعيد طبع مقالات إنجلز عن الثورة الألمانية على أنها كتيب دبجه قلم ماركس تحت اسم « الثورة والثورة المضادة فى ألمانيا » . وقد أكدت هذه المقالات فى نهايتها أن الثورة توشك أن تندلع فى المستقبل القريب وبعنف أشد . وقد اعترف الصديقان فيما بعد بأنهما كانا متفائلين أكثر مما ينبغى . ووضع ماركس ذلك التعميم المشهور من أنه لن يؤدى إلى ثورة ناجحة سوى أزمة اقتصادية واسعة النطاق ، وهكذا ترعرعت ثورة سنة ١٨٤٨ فى الانهيار الاقتصادى الذى حدث سنة ١٨٤٧ وجاء رخاء سنة ١٨٥١ فقضى على كل أمل فى اشتعال سياسى وشيك .

ومنذ ذلك الوقت ركز الاثنان ، ماركس وإنجلز ، اهتمامهما فى اكتشاف أعراض الأزمات الاقتصادية الكبرى . فكان إنجلز من مكتبه فى مانشستر يملأ خطاباته بمعلومات عن حالة الأسواق العالمية : بنك انجلترا يتعرض لخسارة فى الذهب ؛ إفلاس بنك « هامبورج » ، محصول سيء فى فرنسا أو أمريكا : كانت كلها أحداثاً تلقى منهما ترحيبا بوصفها دلائل على أن الأزمة الكبرى ليست بعيدة . وفى سنة ١٨٥٧ وقعت أخيراً أزمة كبرى على النطاق المطلوب . ولكن لم يعقبها أى نمو ثورى ، إلا فى إيطاليا الزراعية . وبعد ذلك أصبحت الإشارة إلى الأزمات الحتمية أقل ورودا فى عباراتهما ، وزادت المناقشة فى موضوع تنظيم حزب ثورى . نعم ، فلقد تركت خيبة الأمل أثرها فى نفسيهما .

وبينما اهتم إنجلز بالموضوعات العسكرية التى يريدها الجمهور الأمريكى ، نشر ماركس سلسلة متتابعة من المقالات عن السياسة الإنجليزية ، فى الداخل وفى الخارج ؛ عن السياسة الخارجية وعن حركة « العرائضيين » وعن طابع الوزارات الإنجليزية المختلفة ، التى أصبح خبيرا فى تلخيصها فى جمل قليلة تتسم بخبثها على حساب جريدة « التايمز » عادة ، وهى الجريدة التى ظلت « البعبع » الذى يخشاه دائما . وكتب كثيرا عن الحكم الإنجليزى فى الهند وإيرلندة ، فقال : « إن الهند كان لا بد على أية حال أن تتعرض لغزو دولة أقوى منها » .

« إن المسألة ليست ما إذا كان للإنجليز أى حق فى غزو الهند ، ولكن المسألة هى : هل كنا نفضل أن يغزوها الأتراك أو الفرس أو الروس . . . ؟

إنه لمن المستحيل طبعاً أن نرغم البورجوازية على أن ترغب فى تحرير الجماهير الهندية أو فى تحسين حالتها الاجتماعية ، وهو الأمر الذى لا يقتصر على تنمية قوى الإنتاج فحسب ، بل على انتقال ملكيتها إلى الشعب أيضا . بيد أن ما تستطيع البورجوازية الإنجليزية أن تفعله هو خلق الظروف المادية الملائمة لتحقيق هذه الحاجة المزدوجة » .

وكتب مرة أخرى فى سنة ١٨٥٣ يقول : « أيا كان مانجده من كآبة فى منظر هذه العشرات من ألوف الناس النشطين المسالمين الوقورين فى مجموعاتهم الاجتماعية وقد انقطعت فجأة صلاتهم بمدنيتهم القديمة وبمصادر عيشتهم التقليدية ، فإنه ينبغى ألا ننسى أن هذه الجماعات القروية البسيطة ... كانت دائماً تهيء الأساس الذى يقوم عليه الحكم الشرقى المستبد الذى يقيد الذكاء البشرى فى حدود ضيقة ، ويجعل منه أداة تقليدية طيعة للخرافات ، ويحول دون نموه ، ويحرمه .... من كل قدرة على التجاوب التاريخى ؛ وإن ننس فلن ننسى أنانية أولئك البرابرة الذين يعيشون فوق جزء ضئيل من سطح الكرة الأرضية ، ويرقبون ، فى غير تأثر ، الامبراطوريات العظيمة تنهار ، وألوان القسوة التى لا يتصورها العقل ترتكب ، وسكان مدن بأكملها يذبحون — يراقبون كل هذه الأمور كما لو كانت أحداثاً طبيعية ، وهكذا أصبحوا بدورهم ضحايا عاجزين أمام كل فاتح وجه اهتمامه إليهم ... وصحيح أن انجلترا ، إذ تسببت فى ثورة اجتماعية فى الهند ، كانت مدفوعة إلى ذلك بأحقر الدوافع وأنها وجهت هذه الثورة بغباء وجمود ؛ ولكن هذا ليس هو الموضوع الأساسى . فالمسألة الحقيقية هى : هل تستطيع الإنسانية أن تحقق غرضها دون إحداث ثورة اجتماعية كاملة فى آسيا ؟ وإذا كان الجواب بالنفى ، فإن انجلترا كانت ـ رغم كل جرائمها ـ أداة غير واعية يستخدمها التاريخ فى تحقيق هذه الثورة » .

وقال عن إيرلندة « إن قضية العمال فى انجلترا مرتبطة ارتباطا وثيقا بتحرير إيرلنده ، ارتباطاً لا فكاك منه ، لأن رخص الأجور فيها هو تهديد مستمر لاتحادات العمال الإنجليزية ؛ ويجب القضاء على خضوع إيرلندة الاقتصادى ، شأنها فى ذلك شأن الحالات المماثلة التى تتجلى فى رقيق الأرض فى روسيا ، والرق فى الولايات المتحدة ، قبل أن يصبح فى مكنة سادة إيرلندة الإنجليز ، بما فيهم طبقة

العمال الإنجليز (الذين يعاملون الإيرلنديين كما يعامل « فقراء البيض » فى الولايات الأمريكية الجنوبية الزنوج) أن يحرروا أنفسهم ويخلقوا مجتمعاً حرا » . وفى كلتا الحالتين لم يقدر ماركس قوة القومية الناهضة حق قدرها ؛ إذ أن كرهه لكل أنواع الانفصال ، بل وجميع الأنظمة التى تقوم على أساس عاطفى وتقليدى بحت ، قد أعماه عن حقيقة أثرها . وقـــد كتب إنجلز ، تحدوه نفس الروح ، عن التشيكوسلوفاكيين فقال : « إن الروح القومية لدى السلافيين الغربيين ظاهرة كاذبة مصطنعة لا تستطيع أن تقاوم تقدم الحضارة الجرمانية . ومثل هذا الامتصاص هو المصير الحتمى لكل المدنيات المحلية الصغيرة تحت تأثير قوة الجاذبية التاريخية التى تجعل الأصغر يذوب فى الأكبر ، وهو اتجاه ينبغى على كل الأحزاب التقدمية أن تشجعه بنشاط » . وقدكان كل من ماركس وإنجلز يعتقد أن الروح القومية ، وكذلك الروح الدينية والعسكرية ، ليست سوى مجموعة من المفارقات ، فهى فى نفس الوقت نتاج هش للنظام الرأسمالى ودرعه الواقى ، وهى تمثل قوى لا عقلية تعارض الثورة ، وسوف تختفى أوتوماتيكيا باختفاء أساسها المادى . وكانت سياسة ماركس نحوها تقوم على تقرير كل حالة بذاتها ؛ هل هى تعمل إلى جانب قضية البروليتاريا أم ضدها ؟ وعلى هذا الأساس وحده ، يحدد هل يؤيدها أم يهاجمها ؟ وهكذا أيدها فى الهند وفى إيرلنده لأنها كانت سلاحا ضد الإمبريالية ، كما هاجم القومية الديموقراطية التى نادى بها « مازينى » و « كوسوت » ، إذ بدا له أنها لا تزيد على أن تعمل ، فى بلاد مثل إيطاليا وهنغاريا وبولنده ، على إحلال نظام محلى من الاستغلال الاقتصادى محل نظام أجنبى ، ومن ثم فهى تعرقل الثورة الاجتماعية . ومن بين رجال السياسة الإنجليز هاجم « رسل » بوصفه راديكاليا كاذباً ، يخون قضيته فى كل خطوة ؛ بيد أن الهدف الرئيسى لهجماته كان بلا شك « بالمرستون » الذى اتهمه بأنه من أنصار روسيا المقنعين ، وتهكم على تأييده العاطفى للقوميات الصغيرة فى أوروبا . ومع ذلك فقد كان ماركس من الخبيرين بالمهارات السياسية فى كل صورها ، واعترف بقسط من الإعجاب بالحيوية والحذق اللذين ينفذ بهما هذا السياسى الساخر المرح خططه السافلة .

وكانت هجماته على « بالمرستون » سبباً فى اتصاله بشخصية غريبة كل الغرابة .

فقد كان « دافيد يوركوهارت » فى شبابه فى السلك السياسى وكان فى أثينا ، حيث صار من محبي الهيلينية المتحمسين ، ثم نقل إلى القسطنطينية حيث تعلق تعلقا عنيفا صاحبه طوال حياته بالإسلام والأتراك ، إذ أعجبه فى الأتراك نقاء تكوينهم . كذلك تعلق بكنيسة روما ، التى ظل على علاقات طيبة جداً معها على الرغم من أنه ولد ومات « كلفينيا » ؛ وإلى جانب هذا كان يكره بعنف — لا يقل عن ذلك فى شدته — حزب الأحرار البريطانى وحرية التجارة وكنيسة انجلترا والتصنيع ، وخاصة الإمبراطورية الروسية ؛ التى كان يعزو إلى نفوذها الموغل فى شروره كل سوءات أوروبا . وقد ظل هذا الشخص الغريب الأطوار ، الذى يعد نموذجا لبقايا عصر أكثر رحابة ، عضوا مستقلا فى البرلمان عدة سنوات ، وأصدر صحيفة وكتب العديد من الكتيبات كرسها كلها تقريباً لغرض واحد هو التعريض «ببالمرستون» متهماً إياه بأنه عميل من عملاء القيصر ، كرس حياته لتقويض النظام الأخلاقى فى أوروبا الغربية لمصلحة سيده . حتى موقف «بالمرستون» خلال «حرب القرم» لم يفلح فى تغيير رأيه ؛ فقد فسره على أنه خدعة ماهرة لإخفاء طبيعة نشاطه الحقيق ؛ ومن هنا كانت محاولته لتخريب الحملة كلها ، مما يظهر بوضوح أنه قصد منها ألا يلحق إلا أقل ضرر ممكن بروســـيا . وكان ماركس ، الذى انتهى إلى نفس الرأى بطريقة أو بأخرى ، مقتنعا عن إخلاص بأن بالمرستون مخادع . وتقابل الرجلان وعقدا تحالفا ؛ فنشر « يوركوهارت » كتيبات ضد بالمرستون بقلم ماركس ، بينما صار ماركس من أنصار « يوركوهارت » الرسميين ، واشترك فى تحرير صحيفته ، وساعده فى حملاته الانتخابية . ونشرت مقالاته فيما بعد على هيئة كتيبات كان أغربها « بالمرستون ، ماذا فعل ؟ » و « التاريخ الدبلوماسى السرى فى القرن الثامن عشر » ، وكلاهما خصص لإزاحة الستار عن دور روسيا الخفى فى جميع الكوارث الرئيسية التى حلت بأوروبا . وكان كل من الرجلين يعتقد أنه يستعمل الآخر فى تحقيق أغراضه : فماركس كان يعتقد أن « يوركوهارت » رجل غير مؤذ يسيطر عليه جنون الهدف الواحد ويمكن استغلاله ؛ بينما «يوركوهارت» من ناحيته كان يعجب بقدرات ماركس بوصفه داعية ، وهنأه فى مناسبة من المناسبات على أنه يتمتع بذكاء جدير برجل تركى . واستمرت هذه العلاقة الغريبة

بينهما فى وئام ، وإن اعتراها الفتور بين وقت وآخر ، عدة سنوات . ثم لم يلبث التحالف بينهما أن انحل شيئاً فشيئاً على أثر موت «بالمرستون» والقيصر «نيقولا» . ولكن ماركس كان قد ظفر من هذه العلاقة بقدر كبير من التسلية إلى جانب ما استطاع استخلاصه من المساعدات المالية ، وسرعان ماصار ماركس مغرما براعيه الغريب ، بل لقد كانت صلته به فريدة إذا قورنت بصلاته ببقية حلفائه السياسيين فقد استمرت طيبة حتى موت « يوركوهارت » .

ولم يكن بين زعماء النقابات الاقلة تعطف على ماركس ؛ فأقدرهم كانوا إما من يتبعون وجهة نظر لاتختلف عن وجهة نظر « أوين » . الذى حاول أن يثبت بوساطة المثل الرائع الذى حققه أن مذهب صراع الطبقات مذهب فاسد لا أساس له ، وإما من الزعماء العاليين المحليين فكانوا فى شغل شاغل بالعمل من أجل الحاجات المباشرة لهذه أو تلك من الحرف أو الصناعات ، لايعيرون التفاتا إلى القضايا الكبرى ، على استعداد للترحيب بجميع الراديكاليين على قدم المساواة فى اتحاد كان يسمى « الديموقراطيون المتآخون » وكان اسمه وحده كفيلا بأن يثير نفور ماركس . وكان الرجل الإنجليزى الوحيد الذى وقف على كثب منه فى هذه الأيام هو «إرنست جونز» أحد العرائضيين الثوريين الذى كان يحاول دون جدوى إحياء تلك الحركة الميتة . وقد ولد « جونز » وربى فى ألمانيا ، وهو يشبه ، أكثر من أى شخص آخر فى انجلترا ، ذلك الطراز من اشتراكيّ القارة الذى ألِفه ماركس ، وكانت آراؤه ، وخاصة فى السنوات الأخيرة ، تشبه آراء « الاشتراكيين الحقيقيين » «هيس» و«جرون» إلى درجة لم تكن لترضى ماركس كل الرضى ، ولكن ماركس كان وقتئذ فى حاجة إلى حلفاء ، وكان مجال الاختيار أمامه محدودا ، فقبل «جونز» على أنه أفضل من فى انجلترا وأكثرهم تقدما . وعمل « جونز » ، الذى تكون لديه إعجاب كبير وعاطفة طيبة نحو ماركس وعائلته ، على مده بقسط وافر من المعلومات عن الظروف فى انجلترا ؛ فقد كان « جونز » هو الذى لفت نظر ماركس إلى « تسوير » الأراضى الذى كان لايزال مستمرا فى اسكوتلنده حيث طردت مئات عديدة من صغار الفلاحين والزراع لإنشاء حدائق ومراعى للغزلان . وكانت النتيجة مقالة حادة عنيفة كل العنف نشرها فى صحيفة « نيويورك تريبيون » عن مسائل خاصة تتصل بدوقة « سذرلاند » التى كانت قد أعربت عن عطفها

على قضية الزنوج العبيد فى أمريكا . وجاء المقال فكان صورة مصغرة للمقالات المطولة التى سبق أن نشرها فى « رأس المال » ، وقطعة رائعة من الأسلوب البليغ العنيف فى مرارته ، على منوال روائع « فولتير » و « مارا » ، ونموذجا لقطع عديدة تالية من الهجمات الاشتراكية . ولم يكن الهجوم فيه شخصيا بقدر ما كان موجها إلى النظام الذى يسمح فى ظله لامرأة عجوز ذات نزوات ، ليست أكثر خبلا ولا أشد قسوة وشرا من غالبية المجتمع الذى يحيط بها مباشرة ، بأن يكون لها من سلطتها المطلقة ما يعينها على أن تعرض مجموعة كاملة من الرجال والنساء المخلصين النشطين للمذلة ، وأن تشردهم وتنزل بهم الخراب وتحيلهم إلى معدمين مجردين من كل شىء فى أرض هى من حقهم شرعا ، حيث أن كل شىء صنعته يد الإنسان فيها كان من صنع أيديهم وأيدى آبائهم ، بينما تقف منها طبقتها والرأى العام موقف التأييد الكامل .

ولم يكن رضاء الجمهور الأمريكى عن مثل هذه النماذج من التحليل الاجتماعى والجدل بأقل من رضائه عن مقالات ماركس الجافة التهكمية عن الشئون الخارجية . فقد كانت هذه المقالات مليئة بالمعلومات الصحيحة، وفيها حذق ولهجتها تبدو بعيدة عن الدوافع الشخصية . ولم يكن فيها شىء من التكهن بالمستقبل أو أية محاولة لاستعراض شامل للشئون المعاصرة كوحدة ؛ فهى بوصفها تعليقاً على الأحداث كانت أقل صراحة من الخطابات التى بعث بها كاتبها إلى إنجلز فى تلك الفترة ، وأقل استثارة للاهتمام منها ، ولكنها كانت مع ذلك متقدمة على عصرها بوصفها مجهودا صحفيا . وكانت طريقة ماركس أن يقدم لقرائه صورة مختصرة للأحداث أو الأشخاص ، مؤكداً أهمية المصالح الخافية وما قد ينجم عنها فى غالب الأمر من نشاط شرير أكثر مما يؤكد من أهمية الدوافع الصريحة التى يكشف عنها الأشخاص أنفسهم أو القيمة الاجتماعية لإجراء من الإجراءات ، أو سياسة من السياسات . وقد أضفى هذا على صحافته نكهة القرن العشرين ، وأثبت بصورة أوضح من كتاباته النظرية الفارق العميق بين اتجاهه الحاد الذى يتسم بالريبة والحياد الأخلاقى واتفاقه مع المذهب الطبيعى ، وبين اتجاه الغالبية العظمى من المؤرخين والنقاد الاجتماعيين فى عصره الذين يغلب عليهم الطابع الإنسانى والمثالية بدرجة قد تزيد أو تنقص . وفى نفس الوقت كان يقوم بجمع المادة

للبحث الاقتصادى الذى يريد به أن يكون سلاحا ضد المثالية المبهمة لجماعات الراديكاليين الذين لاتربطهم رابطة متينة ؛ وهى المثالية التى أدت ، فى رأيه ، إلى بلبلة الفكر والعقل ، وشلت جهود القلة من زعماء العمال ممن تسلست أفكارهم وبعد نظرهم . وقد كرس ماركس نفسه لمهمة وضع مذهب صارم فى دقته يحل محلها مذهب لايحتمل التأويل نظريا ، ومحـــدد تحديداً دقيقا فى التنفيذ ، بحيث يصبح التزامه عاملا وضمانا فى نفس الوقت لقيام هيئة متحدة ، ونشيطة قبل كل شىء ، من الثوريين الاجتماعيين ، يستمدون قوتهم من اتحادهم ، ويستمدون اتحادهم من اشتراكهم فى معتقدات عملية متناسقة .

وكان ماركس قد ضمن أسس مذهبه فى كتاباته السابقة ، وخاصة فى « البيان الشيوعى » ، وقد حدد ماركس فى خطاب كتبه فى عام ١٨٥٢ ما كان يعتبره جديدا فيه ، فقال : « إن الشىء الجديد الذى فعلته أننى أثبت (١) أن وجود الطبقات ، مرتبط فقط بمراحل تاريخية بذاتها خلال نمو الإنتاج ؛ (٢) أن صراع الطبقات يؤدى بالضرورة إلى ديكتاتورية البروليتاريا (٣) أن هذه الديكتاتورية نفسها ليست سوى إنتقال إلى إلغاء جميع الطبقات ، أى إلى مجتمع لاطبقى » . وعلى هذه الأسس بنيت الحركة الجديدة .

وكان نجاح ماركس من بعض النواحى ، أسرع مما كان يمكن أن يأمله : فظهور حزب جديد من العمال الاشتراكيين فى ألمانيا ونموه السريع على أنقاض أحداث سنة ١٨٤٨ قد خلق له مجالا جديدا للنشاط العملى قضى فيه النصف الثانى من حياته . والواقع أن هذا الحزب لم يتكون عن طريقه ، وإن كانت آراؤه ، وخاصة إيمانه بالبرنامج السياسى الذى أحكم وضعه ، مصدر الوحى لزعماء هذا الحزب وكان ماركس يستشار فى كل خطوة ؛ كان كل شخص يعرف أنه هو ، وهو وحده ، مصدر الوحى للحركة وخالق أسسها ، وكانت تحال إليه بصورة تلقائية جميع المسائل النظرية والعملية . لقد كان ماركس موضع إعجاب وخوف وريبة ، بقدر ما كان مطاعا . ومع ذلك فإن العمال الألمان لم يتطلعوا إليه بوصفه ممثلهم الأول وبطلهم ؛ بل لقد كان الرجل الذى نظمهم فى حزب ، ومارس سيطرة مطلقة عليه يصغره بعدة سنوات ، ولد وربى فى ظروف مشابهة ، ولكنه

كان يختلف عنه فى المزاج ووجهة النظر ، بل هو على النقيض منه فيهما ، إلى حد لم يعترف أى منهما به صراحة فى ذلك الوقت .

فقد كان « فرديناند لاسال » ، الرجل الذى خلق الديمقراطية الاشتراكية الألمانية ، وقادها إبان سنواتها البطولية الأولى ، رجلا من أكثر الشخصيات العامة فى القرن التاسع عشر حمية وحماسا ، يهوديا من أهالى « سيليزيا » ، مولدا وخاما بمهنته ، وثوريا رومانسيا بمزاجه . كان « لاسال » رجلا ميزاته البارزة ذكاؤه وخيلاؤه ، وحيوية وثقة بالنفس لاحد لها ، ولما كانت سبل التقـــدم المألوفة مغلقة فى وجهه بسبب عنصره ودينه ، فقد ألقى بنفسه كلية ، وبانفعال هائل ، فى غمار الحركة الثورية حيث رفعته قدرته غير العادية وحماسته ، وخاصة عبقريته ، بوصفه مهيجاً وخطيبا شعبيا ، إلى الزعامة مسرعة . وقد ألقى عدة خطب نارية ضد الحكومة إبان الثورة الألمانية حوكم من أجلها وسجن . وفى خلال السنوات التالية ، فترة الجمود والمهانة ، عندما كان ماركس وانجلز فى المنفى وكان « ليبنخت » الوحيد من بين الزعماء الأصليين الذى بقى فى ألمانيا وظل مخلصا لقضية الاشتراكية ، أخذ « لاسال » على عاتقه مهمة خلق حزب بروليتارى جديد على أنقاض ١٨٤٨ أفضل تنظيما . ونظم الأمور بحيث يقوم هو بدور « زعيمه الأوحد ويكون له مصدر وحيه وديكتاتوره الفكرى والمعنوى والسياسى . وقد أتم هذه المهمة كلها بنجاح ممتاز ، لقد كانت معتقداته مستمدة من هيجل ومن ماركس بقدر متساو ؛ فأخذ من الأخير مبادىء الحتمية الاقتصادية وصراع الطبقات وحتمية الاستغلال فى النظام الرأسمالى . ولكنه نبذ فكرة إلغاء الدولة باسم المجتمع ، ورفض أن يسير وراء « برودون » وماركس فى رأيهما بأن الدولة مجرد أداة للضغط فى يد الطبقة الحاكمة ، وقبل فى الوقت نفسه نظرية « هيجل » التى تجعل من الدولة ، حتى فى وضعها الحالى تجسيما لأسمى وظيفة لمجموعة من الكائنات البشرية اجتمعوا معاً ليحيوا حياة مشتركة . وكان « لاسال » يؤمن بالتركيز إيمانا شديدا ، كما كان يؤمن — إلى حدما ، بالوحدة القومية الداخلية . وفى السنوات الأخيرة بدأ يعتقد فى إمكان قيام تحالف مناهض للبورجوازية ، من الملك والطبقة الارستقراطية والجيش والعمال ، يبلغ ذروته فى دولة جماعية مطلقة يرأسها ملك وتساس لمصلحة المنتجين الحقيقيين الوحيدين ، أى الطبقة العاملة .

ولم تكن علاقته بماركس وإنجلز ميسرة كل اليسر فى أى وقت من الأوقات ؛ فلقد أعلن أن ماركس أستاذه فى المسائل النظرية ، وعامله باحترام يشوبه التوتر . وأعلن فى كل مكان أنه رجل عبقرى ونظم نشر كتبه فى ألمانيا ، وحاول أن يخدمه بوسائل عديدة . واعترف ماركس كارها بقيمة حيوية « لاسال » وقدرته التنظيمية ولكنه كان ينفر منه شخصياً ويرتاب فيه ريبة شديدة سياسياً ؛ كان ينفر من تظاهره ومباهاته وخيلائه وأسلوبه المسرحي وتصريحه فى صوت مرتفع علنا بميوله وآرائه وأطماعه ؛ كما كان ينظر باشمئزاز ونفور حتى إلى الألمعية التى تتجلى فى إستعراضه المتسم « بالانطباعية » ، للوقائع الاجتماعية والسياسية ، فبدا له ذكيا وسطحياً وخداعاً بالمقارنة إلى الدراسة الشاملة الشاقة التى بذل فيها هو نفسه مجهوداً كبيراً . وكان ينفر من السيطرة التى يمارسها « لاسال » على العمال ويرتاب مما فيها من تقلب ونزوات، وينفر أكثر من أى شيء آخر ، من محاولات التقرب من العدو التى كان «لاسال» يقوم بها . وأخيراً تملكت ماركس الغيرة وتغلب عليه شعور بحقه فى السيطرة على حركة تدين له بكل سياستها العملية وأسسها الفكرية، ولكنها بدت له الآن وقد هجرته مفتونة بامرأة سياسية لعوب ، أو بمغامرة براقة المظهر خداعته تصرح جهراً بأنها انتهازية فى كل شئونها الخاصة وسياستها العامة ، لا تسير على خطة محددة ولا تتمسك بمبدأ أو تتجه نحو هدف واضح . ومع ذلك فقد كان بينها نوع من الألفة أو ، إذا لم يكن ألفة ، فهى تقدير متبادل . فإن « لاسال » ولد ونشأ فى ظل مؤثرات فكرية مماثلة لتلك التى تعرض لها ماركس ، وكانا يقاتلان نفس العدو ، كما كانا يتحدثان نفس اللغة فيما يتعلق بجميع القضايا الرئيسية ، الأمر الذى لم يجده ماركس فى « باكونين » أو « برودون » أو فى النقابيين الإنجليز أو الهيجليين الشبان السابقين الذين تحولوا عنه منذ أمد بعيد . هذا بالإضافة إلى أن « لاسال » كان رجل عمل وثورياً أصيلا ، لا يهاب شيئاً مطلقاً . وقد أدرك كل منهما أن الآخر يتمتع بقدر من الفطنة السياسية وبعد النظر والشجاعة العملية أكثر من أى عضو آخر من أعضاء حزبهما باستثناء إنجلز . وكانا يفهمان بعضهما البعض بطريقة غريزية ، فوجد كل منهما فى الاتصال بالآخر سهولة ومصدراً للسرور . وكان ماركس عندما يذهب إلى برلين ينزل بطبيعة الحال فى ضيافة « لاسال » ؛ وعندما ذهب « لاسال » إلى لندن أقام مع ماركس ، فأثار ثائرة

مضيفه الحساس الحريص على كبريائه — وكان فى ذلك الوقت قد وصل إلى أحط درجات الفاقه — بمجرد أنه كان شاهداً على إملاقه — وأكثر من ذلك — بأسلوبه المرح وإسرافه فى غير تكلف، إذ كان ينفق على سجائره وعلى زينته أكثر مما كان ماركس وعائلته ينفقون على طعامهم فى أسبوع بأكمله . وكانت هناك كذلك مشكلة صغيرة تتعلق بمبلغ من المال كان قد اقترضه منه ماركس . ويبدو أن « لاسال » الذى كان قليل الإحساس بما حوله ، شأن كل ذى طبيعة نشطة ملتهبة ، لم يكن يشعر بشىء من هذا كله على الإطلاق . ولم ينس ماركس ما تعرض له من هوان ، فساءت العلاقة بينهما فجأة منذ زيارة « لاسال » للندن .

وقد اتبع « لاسال » فى إنشاء الحزب الجديد أسلوباً كان لا يزال جديداً فى عهده لم يستعمله سوى « العرائضيون » الإنجليز بصورة متقطعة ، وإن كان قد أصبح مألوفاً فيما بعد إلى حد ما : فقد قام بسلسلة من الجولات السياسية ، التى سبقتها حملة إعلانية كبيرة ، فى المناطق الصناعية فى ألمانيا ، وطفق يلقى خطباً براقة نارية أثرت أكبر الأثر فى مستمعيه من البروليتاريين وأشعلت فيهم حماسة هائلة . ثم أخذ يؤلف منهم هنا وهناك قطاعات للحركة العمالية الجديدة ، التى نظمها على أساس حزب رسمى يقوم بطريقة قانونية ، وهكذا خرج علنا على الأسلوب القديم من تكوين خلايا ثورية صغيرة تجتمع وراء أبواب مغلقة وتقوم بدعايتها سراً . وقد كانت رحلته الأخيرة بين أتباعه أشبه بجولة المنتصر فى الأقاليم التى غزاها . وقد دعمت هذه الرحلة نفوذه ، الذى كان قد أصبح فريداً فى نوعه ، بين العمال الألمان من جميع الألوان والأعمار والمهن .

وكانت الأسس النظرية لبرنامجه مقتبسة إلى حد كبير من ماركس ، ولعلها أخذت كذلك إلى حد ما من الاقتصادى البروسى « رودبرتس ياجتزوف » ، بيد أن حزبه كان يتسم بعدة سمات لا ماركسية : فهو لم ينظم ليكون أساساً للثورة ؛ وكان حزباً انتهازياً على استعـــداد للتحالف مع الأحزاب الأخرى المناهضة للبورجوازية ؛ كما كان حزباً قومياً ومكيفاً ليطابق حاجات الألمان وظروفهم إلى حد كبير وكان من بين أهدافه الأولى العمل على تنمية خطة للتعاون العمالى، لا كبديل للعمل السياسى بل كعنصر أساسى من عناصره ، تقوم الدولة بتنظيمها أو تمويلها ؛

ومع ذلك فقد كانت خطة شبيهة « بتقابلية » « برودون » المضادة للعمل السياسى ، وبالنقابية الإنجليزية ذات الطابع السياسى البليد ، إلى درجة أثارت عداء ماركس الساخر . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد قام الحزب على دعامة التفوق الشخصى لفرد واحد . ومن ثم فقد كان هناك عنصر عاطفى فى الدكتاتورية المطلقة التى مارسها « لاسال » فى أخريات حياته أشـــبه بعادة البطولة التى كان ماركس ، وهو الذى يرتاب فى كل ما من شأنه سحر الجماهير فى السياسة ، يبغضها بغضاً غريزياً . وقد أدخل « لاسال » على الاشتراكية الألمانية النظرية التى تذهب إلى أنه قد تحدث ظروف يمكن فيها قيام تحالف حقيقى مع حكومة بروسيا المطلقة ضد البورجوازية الصناعية . وهذا هو النوع من الانتهازية الذى كان لابد أن يراه ماركس مدمراً أكثر من أى نقيصة أخرى ، إذ أن تجربة سنة ١٨٤٨ أثبتت بصفة نهائية ، إذا لم تكن قد أثبتت شيئاً آخر ، خطورة النتائج المميته التى تترتب على تحالف حزب ما زال صغيراً وضعيفاً نسبياً مع حزب أقدم عهداً وأكثر رسوخا يكن العداء أصلا لمطالب الحزب الآخر ، تحالف يحاول كل طرف فيه أن يستغل الطرف الآخر . ولا مندوحة فى هذه الحالة من أن ينتهى الأمر بانتصار الحزب الذى يملك أفضل الأسلحة . وقد اعتبر ماركس نفسه ، كما يتضح من خطاب بعث به إلى «اللجنة الشيوعية المركزية» فى سنة ١٨٥٠ ، قد أخطأ خطأ جسيما عندما اقترح إمكان التحالف مع البورجوازية الراديكالية أو حتى أن هذا التحالف ضرورى قبل النصر النهائى للبروليتاريا . ولـكن حتى هو لم يحلم أبداً بتحالف مع نبلاء الإقطاع لتوجيه لطمة إلى الفردية فى ذاتها ، لمجرد الوصول إلى نوع من سيطرة الدولة . وكان ينظر إلى مثل هذه الحركة على أنها مسخ لسياسته وآماله من ذلك الضرب الذى نادى به « باكونين » .

لقد كان ماركس وإنجلز فى صلبهما ديموقراطيين ألمانيين ثابتين على مبدئهما فيما يتعلق بموقفهما من الجماهير ، وكانا ينفران بصورة غريزية من بذور الفاشية الرومانسية التى أصبح من الممكن تبيُّنُها فى معتقدات «لاسال» وتصرفاته وأقواله ، وخاصة فى وطنيته المتحمسة وفى فكرته الرومانسية عن نفسه بوصفه الزعيم الذى كرس نفسه للقضية ، وكذلك فى إيمانه باقتصاد قومى يخضع للتخطيط وتسيطر عليه الارستقراطية العسكرية ، مؤقتا على الأقل ، وفى دعوته إلى تدخل ألمانيا المسلح

إلى جانب الامبراطور الفرنسى فى الحملة الإيطالية (الذى دافع عنه لاسال ضد ماركس وإنجلز على أساس أن الحرب وحدها هى التى تعمل لوقوع الثورة فى ألمانيا)، وفى عطفه الظاهر على مازينى والقوميين البولنديين، وأخيرا فى اعتقاده بأن جهاز الدولة البروسية القائم يمكن استخدامه فى مساعدة «البوجوازية الصغيرة» والبروليتاريا فى ألمانيا ضد الاعتداءات المتزايدة من جانب التجار ورجال الصناعة وأصحاب البنوك، الأمر الذى نرى صداه الغريب فى الاشتراكية الوطنية فى وقتنا الحاضر. بل إنه ذهب بالفعل إلى حد أنه بدأ يفاوض بسمارك على هذه الأسس، فكان كل منهما يعتقد أنه يستطيع أن يستغل الآخر ويتخذ منه مخلب قط فى تحقيق أغراضه عند ما يحين الوقت الملائم: كل منهما كان يقدر جرأة الآخر وذكاءه وتحرره من القيود الأخلاقية التافهة ويحترم هذه الصفات فيه؛ وقد تنافسا معا فى مدى انطلاق واقعيتهما السياسية، وفى ازدرائهما الصريح لأتباعهما التافهين، وكذلك فى إعجابهما بالقوة والنجاح فى ذاتهما. وكان بسمارك يحب الشخصيات اللامعة وكان يسعده فى السنوات التالية أن يشير إلى هذه المحادثات يقول إنه لا يعتقد أنه سوف يقابل شخصا يثير الاهتمام مثل «لاسال» مرة أخرى. وقد ظهر فيما بعد، باكتشاف تسجيلات بسمارك الشخصية عن هذه المفاوضات فى سنة ١٩٢٨، إلى أى مدى كان «لاسال» قد سار فى هذا الاتجاه فعلا. وقد انقطعت هذه المفاوضات بوفاة «لاسال» المبكرة فى مبارزة نجمت عن حادثة غرام عارض. ولو أنه عاش، ورأى بسمارك أن يستمر فى استغلال خيلائه الذى كاد يكون ضربا من جنون العظمة، لكان من المؤكد أن ينتهى الأمر بهزيمته وانهيار الحزب الجديد قبل الوقت الذى انهار فيه بالفعل بوقت طويل؛ والواقع أن «لاسال»، بوصفه صاحب نظرية فى سيطرة الدولة وبوصفه مهيجا شعبيا، ينبغى أن يوضع، لا بين مؤسسى الاشتراكية الأوروبية وحدها، بل كذلك بين مؤسسى مذهب الدكتاتورية الشخصية والفاشية، وهذا بلا شك هو ما كان يجتذب بسمارك.

وقد أحرز ماركس فى النضال الذى تلى ذلك بين الماركسيين وأنصار «لاسال» نصرا حاسما أنقذ نقاء مذهبه ووسيلته السياسية، ومن الغريب أن ذلك النصر لم يكن من أجل ألمانيا التى كانت هدفه أساسا، بل من أجل تطبيقه على بلاد أخرى

أكثر بدائية بكثير ، ولم تكن تخطر على باله ، روسيا والصين ، وإلى حد ما ، أسبانيا والمكسيك . ولم يثر نبأ موت « لاسال » فى سنة ١٨٦٤ أى رثاء لدى ماركس أو إنجلز فقد كان موته بالنسبة لكليهما نهاية سخيفة جديرة بحياة مسرحية عابثة . ولعل « لاسال » لو بقى على قيد الحياة لكان أثبت أنه عقبة ضخمة كؤود . ومع ذلك فإن الراحة لم تكن ، على الأقل بالنسبة إلى ماركس ، غير مصحوبة بشىء من الأسف العاطفى على اختفاء شخصية كان قد ألفها إلى حد كبير وكان يحس نحوها بشىء من العطف رغم كل نقائصها . فقد كان « لاسال » ألمانيا وهيجيليا متصلا اتصالا وثيقا بأحداث سنة ١٨٤٨ وبماضى ماركس الثورى ؛ كان رغم كل عيوبه الهائلة يبدو عملاقا بين الأقزام الذين يتحرك بينهم ، بين مخلوقات أشاع فيها حيويته بعض الوقت ولكنها سرعان ما سوف تسقط إعياء فى وهدة بلادتها القديمة حيث تبدو أصغر وأتفه وأحقر حتى عما كانت قبلا .

وقد كتب ماركس يقول عنه « أيا كان الأمر فإنه كان واحدا من الرعيل القديم ، وعدوا لأعدائنا . . . وإنه لمن العسير أن يصدق المرء أن مثل هذا الرجل الضجاج المثير المندفع قد مات وصمت إلى الأبد كما يصمت الفأر الميت . . . . إن الشيطان ليعلم أن المجموعة تصغر شيئا فشيئا وليس هناك من دماء جديدة تدفع الحياة فيها » .

ودفعت أنباء وفاة « لاسال » ماركس إلى نوبة من نوبات الكمد النفسى النادرة عنده ، حالة تكاد تكون يأسا وتختلف كل الاختلاف عن سحب الغضب والحقد التى يعيش فيها عادة . وفجأة غلبته على أمره نوبة من الشعور بالعزلة الكاملة وفقد أمله فى أن يستطيع بجهود فردى الوقوف فى وجه الرجعية الأوروبية المنتصرة ، وهو شعور ينتاب جميع المنفيين الثوريين إن عاجلا أو آجلا بتأثير هدوء الحياة فى انجلترا ورتابتها . والواقع أن الاحترام والإعجاب اللذين يظهران فى أحاديث بعضهم عن الحياة والأنظمة الانجليزية إنما هما اعتراف صريح بفشلهم الشخصى وفقدانهم الإيمان بقدرة الجنس البشرى على تحرير نفسه . فقد رأوا أنفسهم يسقطون فى وهدة من الهدوء الذى يتسم بالحذر ، بل ويكاد يكون « كلبيا » ، لقد كانوا هم أنفسهم يعرفون أنه اعتراف بالهزيمة وبحماقة حياة أمضوها فى قتال ، وبالانهيار

النهائى لعالم مثالى وضعوا فيه كل ما يملكون وكثيراً مما يملكه الآخرون . ولم تكن هذه الحالة ، التى عرفها « هيرتزن » و « مازينى » و « كوسوت » جيدا ، مألوفة لدى ماركس : فقد كان يؤمن حقيقة بأن سير التاريخ عملية حتمية وتقدمية ، وقد أبعد هذا الاعتقاد الراسخ احتمال أية خيبة فيما يتعلق بالقضايا الأساسية ؛ فهو لم يعتمد إطلاقا على العقل أو على مثالية الأفراد أو الجماهير بوصفها عوامل حاسمة فى التطور الاجتماعى . ولما لم يكن يتوقع شيئا فإنه لم يفقد شيئا فى الإفلاس الفكرى والأخلاقى الكبير الذى حدث فى العقدين السابع والثامن . وقد حاول طوال حياته أن يقضى على الزعماء والمهيجين الشعبيين ، الذين كانوا يعتقدون أن فى وسع الفرد أن يحول مصائر الشعوب ، أو أن يحد من نفوذهم . ومن ثم فإن هجماته الوحشية على « برودون » و « لاسال » ونضاله المتأخر مع « باكونين » ، لم تكن مجرد تحركات فى الصراع على التفوق الشخصى من جانب رجل أوتوقراطى طموح للقضاء على جميع منافسيه . صحيح أنه كان بطبيعته غيورا إلى حد يكاد يكون جنونا : ومع ذلك فإن مشاعره الشخصية كانت مختلطة بحنق حقيقى ضد الأخطاء الجسيمة فى تكوين الأحكام التى بدا له أن هؤلاء الرجال يرتكبونها أكثر مما ينبغى: كما كان يحس بنفور عنيف من نفوذ بعض الأفراد المتحكمين ، بوصفهم أفرادا ، رغم ما يبدو فى ذلك من سخرية إذا ذكر المرء إلى جانب ذلك نفوذه هو ، نفوذ كان لابد ، إن آجلا أو عاجلا ، أن يعمى بصيرة الزعيم وأتباعه عن مطالب الموقف موضوعيا بما ينشئه من علاقة مزيفة بين الزعيم وأتباعه .

ومع ذلك فإن الوضع الفريد للسلطة التى كان يتمتع بها هو نفسه فى حركة الاشتراكية الدولية إبان العقد الأخير من حياته قد أدى إلى إرساء قواعد مذهبه وكفل له أتباعا أكثر بكثير مما كانت مجرد العناية بمؤلفاته أودراسة التاريخ على هديها بمستطيعة أن تحققه فى هذا المجال . وقد كانت كتاباته إبان تلك السنوات مما تشيع قراءته فى النفس شعورا بالكآبة : فبغض النظر عن مجهوده الصحفى فى الجرائد الأمريكية والألمانية وبعض الكتابات الأدبية التى أرغمته الحاجة على ابتذال نفسه فيها ، نراه قد قصر مجهوده كله تقريبا فى كراسات جدلية أطولها « هرفوجت » التى كتبها فى سنة ١٨٦٠ بقصد تبرئة نفسه من تهمة دفع

أصدقائه إلى خطر لا داعى له إبان محاكمات « كولونيا » ، وليرد هجوم من وجه هذا الاتهام ، وهو عالم طبيعي وسياسى راديكالى سويسرى معروف ، اسمه « كارل ڤوجت » اتهمه بأنه كان عميلا مأجورا للامبراطور الفرنسي . وليس لهذه الكراسة من أهمية إلا فيما تلقيه من ضوء على الحالة المحزنة خلال عشر سنوات من خيبة الأمل مليئة بالمشاحنات والدسائس ، وهى السنوات التى جاءت فى أعقاب « العصر البطولى » . وفى سنة ١٨٥٩ نشر كتابه « نقد الاقتصاد السياسى » ، ولكن هذا المؤلف لم يحظ بانتشار : وقد شرحت النظريات الرئيسية التى تضمنها بصورة أوقع بعد ذلك بثمانى سنوات فى المجلد الأول من « رأس المال » .

وظلّ إيمانه بانتصار قضيته فى النهاية لا يتزعزع حتى خلال أحلك سنوات الرجعية . ففى حديث له فى مطلع العقد السادس ، عندما اقترح البعض — فى حفلة عشاء أقيمت لتكريم محررى «جريدة الشعب» وموظفيها — أن يشرب المحتفلون كأسا نخب « بروليتاريّى أوروبا » قال : «يبـــدو أن كل شيء فى أيامنا يحمل فى طياته نقيضه . فالآلة التى وُهبت القدرة المذهلة على تقليل عمل الإنسان وجعله أكثر إثمارا ، إذا بها تميته جوعا وترهقه بالعمل أكثر مما يطيق . وانتصارات الفن يبدو أنها لا تتم إلا على حساب فقدان الشخصية . وحتى ضوء العلم الخالص ، وكأنه لا يسطع إلا فى محيط مظلم من الجهل . . . إن هذا التنافر بين الصناعة الحديثة والعلم من ناحية ، وبين الشقاء الحديث والانحلال من ناحية أخرى ، هذا التنافر بين قوى الإنتاج والعلاقات الاجتماعية ؛ هو حقيقة ملموسة لا يستطيع إنسان أن يتجاهلها . وقد يولول البعض منتحبين ؛ وقد يتوق آخرون إلى التخلص من الفنون الحديثة لكى يتخلصوا من الصراعات الحديثة . . . أما نحن ، فإننا من جانبنا لا نخطىء فى تمييز الروح الفطنة التى ما برحت تميز هذه المتناقضات . . . إننا نرى فيها صديقنا القديم «روبين الرجل الطيب» الذى لا يخرج عن أن يكون ذلك الصرصار الحفار الذى يستطيع أن يحفر فى الأرض بسرعة فائقة . . . . إنه الثورة » . وهى نظرية لابد أنها بدت لغالبية مستمعيه نظرية ليس لها ما يدعمها : ومما لا شك فيه أن أحداث السنوات التالية لم يكن فيها ما يؤيد تنبؤاته .

وفى سنة ١٨٦٠ كانت سمعة ماركس ونفوذه قد أصبحا قاصرين على دائرة ضيقة ، فقد ذوى الاهتمام بالشيوعية منذ محاكمات « كولونيا » فى سنة ١٨٥١ ؛ وبدأ الإيمان بالتحررية والعلم والتقدم السلمى ينمو مرة أخرى مع النمو الفريد الظاهر فى الصناعة والتجارة . وبدأ ماركس نفسه يُعتبر شخصية من شخصيات الماضى ، بوصفه صاحب نظريات قدير وداعية ينتمى إلى جيل مضى ، يعيش الآن حياة النفى والإملاق ويحصل على ما يسد رمقه بالقيام ببعض الأعمال الصحفية العارضة فى ركن خامل من لندن . بيد أن ذلك كله لم يلبث أن تغير بعد خمس عشرة سنة . فعلى الرغم من أنه ظل مجهولا نسبيا فى انجلترا ، فقد كان شخصية تتمتع بشهرة وسمعة كبيرة فى الخارج ، يعتبره البعض المحرض على كل حركة ثورية فى أوروبا ، والديكتاتور المتعصب لحركة عالمية كرست نفسها لتقويض دعائم النظام الأخلاقى وسلام الجنس البشرى وسعادته ورخائه . وقد صوره هؤلاء على أنه العبقرية الشريرة بين الطبقة العاملة ، ينظم المؤامرات لتدمير السلام والأخلاق فى المجتمع المتمدين وهدمهما ، ويستغل فى ذلك أسوأ انفعالات الجماهير بطريقة منظمة ، يخلق الشكوى حيث لا توجد شكوى ، ويصب الزيت على نار التذمر ، فيوغر صدور المتمردين ضد مخدوميهم حتى يخلق من ذلك فوضى شاملة يخسر فيها الجميع ويصبح الكل فى صعيد واحد ، الغنى والفقير ، الصالح والطالح ، النشيط والكسول ، العادل والظالم . أما غير هؤلاء فقد رأوا فيه واضع الخطط الذى لا يعرف الكلل إليه سبيلا وأخلص من كرسوا جهودهم لرسم الطريق أمام الطبقات العاملة فى كل مكان ، والمرجع الذى لا يخطىء فى جميع المسائل النظرية ، وخالق حركة لا تقاوم تهدف إلى قلب الحكم السائد الذى يقوم على الظلم وعدم المساواة ، بالإقناع أو بالعنف على السواء . حتى بدا لهم نبيا عصريا لا يقهر ، غاضبا على قومه كما غضب موسى من قومه ، وقائد جميع المهينين المظلومين ومخلصهم؛ بينما وقف إلى جانبه إنجلز بطبيعته التى كانت أكثر جنوحا إلى الاعتدال وميلا إلى العرف المألوف ، إنه الكاهن الأكبر على وشك أن يقول كلماته لجماهير البروليتاريا الضالة التى لا تكاد تفهم ما يلقى إليها . وكان العامل الذى أدى إلى هذا التغيير أكثر من أى شىء آخر هو إنشاء « الدولية » فى سنة ١٨٦٤ التى غيرت طابع الاشتراكية الأوروبية وتاريخها تغييرا حاسما .

الفصل التاسع

« الدولية »

« إن الثورة الفرنسية إنما هى المقدمة لثورة أخرى أعظم منها وسوف تكون آخر ثورة »

ج بابيف

« بيان الأكفاء سنة ١٧٩٦ »

ظهرت « الدولية الأولى » إلى الوجود بطريقة عرضية بحتة . فعلى الرغم من الجهود التى بذلتها المنظمات واللجان المختلفة لتنسيق نشاط عمال البلاد المختلفة، لم تنشأ بينهم أية روابط حقيقية . ويرجع سبب ذلك إلى عدة عوامل . إذ لما كان الطابع العام لمثل هذه الهيئات طابعا يتسم بالتآمر ، فإن قلة صغيرة من العمال من ذوى الاتجاهات الراديكالية « التقدميين » هم الذين اجتذبتهم إليها ؛ هذا إلى جانب أنه كان يحدث عادة أن تقوم حرب أجنبية أو تتخذ الحكومات إجراءات قمع من شأنها أن تضع حدا للجان السرية قبل أن يتم تحقيق أى شىء ملموس . ويضاف إلى ذلك عدم التعارف وافتقاد العطف بين عمال الأمم المختلفة الذين يعملون فى ظروف مختلفة كل الاختلاف ؛ ثم أخيراً ، تزايد الرخاء الاقتصادى ، الذى جاء فى أعقاب سنوات الجوع والتمرد ، فقد أدى بطريقة آلية إلى دعم الفردية نتيجة لرفع المستوى العام للمعيشة ، وأثار الأطماع الشخصية لدى العمال الذين يمتازون بجرأتهم وباهتمامهم بالسياسة طمعا فى تحسين الأحوال المحلية وتحقيق أهداف مباشرة ، وصرفتهم عن مثل أعلى ، يحيط به الغموض ويستهدف تكوين حلف دولى ضد البورجوازية . وإن نمو الحركة العمالية الألمانية ، بزعامة « لاسال » ، لهو مثال نموذجى على مثل تلك الحركات الداخلية البحتة ، وهى حركات مركزة تركيزا صارما ، ولكنها كانت قاصرة على دولة واحدة ، يدفعها الأمل المتفائل فى إرغام العدو الرأسمالى شيئا فشيئا على التسليم بمطالب العمال تحت ضغط التفوق العددى المجرد ودون حاجة إلى الالتجاء إلى انقلاب

ثورى أو الاستيلاء على السلطة بالعنف . وقد شجع على هذا الاتجاه سياسة بسمارك المناهضة للبورجوازية والتى بدا أنها تميل بالميزان فى صالح العمال . أما فى فرنسا فإن هزيمة سنة ١٨٤٨ — ١٨٤٩ المروعة تركت البروليتاريا فى المدن محطمة، غير قادرة على العمل على نطاق واسع سنوات عديدة بعد ذلك ، تعالج جراحها التى أثخنتها عن طريق تكوين اتحادات محلية صغيرة تستمد وحيها من تعاليم « برودون» بدرجات متفاوتة .ولم تعمد حكومة نابليون الثالث إلى إحباط مسعاهم إحباطا تاما فى هذا المجال . فلقد كان الإمبراطور نفسه يتظاهر فى شبابه بصداقته للفلاحين والصناع وعمال المصانع ضد البيروقراطية الرأسمالية ، وحاول أن يصور ملكيته على أنها صورة جديدة من صور الحكم ، مزيج أصيل من الجمهورية والملكية وديموقراطية المحافظين ، نوع من « العهد الجديد » تخفف التحررية الاقتصادية فيه من وطأة الاستبداد السياسى ، بينما تعتمد الحكومة فى ظله ، رغم أنها حكومة تركيزية ومسئولة أمام الإمبراطور وحده ، على ثقة الشعب فى النهاية من الوجهة النظرية . وهكذا رسم هذا النظام على أنه نظام جديد عصرى يتميز بحساسية لانهائية نحو الحاجات الجديدة ،ويتجاوب مع كل بادرة من بوادر التغير الاجتماعى .

وكانت من بين قواعد سياسة نابليون المحكمة للتوفيق الاجتماعى المحافظة على التوازن الدقيق فى ميزان القوى بين الطبقات المختلفة عن طريق ضرب بعضها ببعض . ومن ثم فقد سمح للعمال بأن يكونوا من أنفسهم اتحادات تحت رقابة الشرطة الصارمة ، بغية مواجهة قوة الأرستقراطية المالية الخطرة وما يتصل بها من ولاء مريب نحو أسرة « أورليان » . وقبل العمال ، الذين لم يكن أمامهم بديل آخر ، تلك اليد الرسمية الممدودة إليهم بحذر وبدءوا فى تكوين اتحادات مهنية ، وهى عملية كانت السلطات تشجعها بعض الشىء وتعرقلها بعض الشىء .

وفى سنة ١٨٦٣ عندما افتتح « معرض الصناعة الحديثة » الكبير فى لندن مُنح العمال الفرنسيون تسهيلات لزيارته ، وانتخب منهم وفد حضر فى موعده إلى لندن ، نصفه من السياح ونصفه الآخر من الممثلين للبروليتاريا الفرنسية ، جاءوا فى المعرض ، نظرياً ، لكى يدرسوا آخر التطورات الصناعية . وبينما هم فى لندن نُظم لهم اجتماع بينهم وبين ممثلى اتحادات العمال الإنجليزية . وفى هذا الاجتماع

ولعله كان فى الأصل غامضاً فى أهدافه شأن الاجتماعات الأخرى التى من هذا النوع، أثيرت بطبيعة الحال مسائل مختلفة مثل المقارنة بين ساعات العمل والأجور، بين فرنسا وانجلترا، وضرورة منع أصحاب العمل من استيراد الأيدى الأجنبية الرخيصة من الخارج لتحطيم الإضرابات التى تنظمها الاتحادات المحلية. وقامت دعوة إلى عقد اجتماع لا يقتصر على مجرد المناقشة ومقارنة المذكرات، بل بقصد البدء فى تعاون اقتصادى وسياسى فعال، ومن الجائز كذلك أن يكون بقصد دعم قوة ديموقراطية دولية. وجاءت البادرة الأولى فى هذا الموضوع، لا من ناحية ماركس، بل من ناحية زعماء العمال الفرنسيين والإنجليز أنفسهم. ثم تبعهم أشخاص راديكاليون من نحل مختلفة، ديموقراطيون بولنديون، وإيطاليون من أتباع مازينى، وبعض أتباع برودون وبلانكى، ويعقوبيون حديثون من فرنسا وبلجيكا. بل إن كل شخص يرغب فى سقوط النظام القائم كان موضع الترحيب فى أول الأمر.

وعقد الاجتماع الأول فى قاعة « سان مارتن » ورأسه « إدوارد بيزلى »، وهو شخصية جذابة خيرة، وكان وقتئذ أستاذاً للتاريخ القديم فى جامعة لندن، وراديكاليا ويقينيا، ينتمى إلى جماعة وإن كانت صغيرة، إلا أنها كانت على جانب كبير من النباهة والشهرة، وكان من بين أفرادها « فردريك هاريسون » و « كدمتون ». وكانت هذه الجماعة متأثرة إلى حد كبير « بكونت » والاشتراكيين الفرنسيين الأول. وكان أعضاؤها ممن يمكن الاعتماد عليهم فى تأييد كل إجراء مستنير، فقد وقفوا سنوات طوال وحدهم من بين الرجال المثقفين فى زمنهم يدافعون عن قضية النقابية، فى فترة كانت فيها موضع هجوم فى مجلس العموم على أساس أنها أداة ابتكرت عمداً لإيقاع الشقاق بين الطبقات. وانتهى الاجتماع إلى تكوين اتحاد دولى للعمال مكرس، لا إلى إصلاح نظام العلاقات الاقتصادية السائد فى ذلك الوقت، بل لتدميره، وإحلال نظام آخر محله يستولى فيه العمال أنفسهم على وسائل الإنتاج، بما يضع حداً للاستغلال الاقتصادى الذى يتعرضون له ويؤدى إلى توزيع ثمرة عملهم على الشيوع. ويتضمن هذا الهدف إلغاء الملكية الخاصة فى جميع صورها نهائيا. وأدرك ماركس، الذى كان يعزف عن اجتماعات الديموقراطيين الأخرى فيما سبق، الطابع المتين الذى تتسم به المحاولة الأخيرة من محاولات التجمع التى كان يقوم على تنظيمها بالفعل

ممثلون حقيقيون للعمال ، ثم هي فوق ذلك تعلن أهدافا معينة محددة يظهر فيها بوضوح أثر نفوذه . وكان من النادر أن يشترك ماركس فى حركة لم يبدأها هو . فكانت هذه المحاولة هي الاستثناء لما جرى عليه . واختاره الصناع الألمان ممثلا لهم فى اللجنة التنفيذية ، وما أن حان موعد الاجتماع الثانى للتصويت على القانون الأساسى حتى كان قد سيطر على سير العمل فيها . وبعد أن فشل المندوبون الفرنسيون والإيطاليون ، الذين أوكلت إليهم مهمة وضع مشروع الدستور الأساسى ، فى إعداد أى شىء سوى العبارات الديموقراطية المألوفة الباهتة التى أكل عليها الدهر وشرب ، قام هو بوضع هذا الدستور وأضاف إليه كلمة افتتاحية أعدها لهذه المناسبة . وكان مشروع الدستور الذى وضعته اللجنة الدولية غامضا إنسانيا وإن كانت فيه مسحة تحررية ، ثم تولى ماركس إعداده فجاء وثيقة محبوكة منظمة تهيئ الطريق لقيام هيئة نظامية لا يتعهد أعضاؤها بمساعدة بعضهم البعض فى تحسين أحوالهم المشتركة فحسب ، بل وفى تخريب النظام الرأسمالى القائم وقلبه إذا تهيأت الفرصة المواتية لذلك عن طريق العمل السياسى العلنى ، وخاصة بانتخاب ممثلين فى البرلمانات الديموقراطية ، على نحو ما كان أتباع « لاسال » قد بدءوا يحاولون عمله فى البلاد الألمانية . وتقـــدم عندئذ باقتراح رسمى بإضافة تعبير عن احترام « الحق والواجب والحقيقة والعدالة والحرية » . وأدخلت هذه الكلمات الجديدة ولكن فى قالب « لا يمكن أن تكون معه مصدرا لأىّ ضرر » كما قال ماركس . وأقر الدستور الجديد ، وبدأ ماركس يعمل بسرعته المتعجلة المألوفة ، خارجا إلى أضواء النشاط الدولى بعد خمسة عشر سنة قضاها فى جو ، إن لم يكن من الخمول ، فقد كان مزيجا من الظلمة والنور .

ويُعد الخطاب الافتتاحى « للدولية » أعظم وثيقة فى الحركة الاشتراكية بعد « البيان الشيوعى » . وقد جاء فيما يزيد قليلا على اثنتى عشرة صفحة من (قطع الثمن) وبدأ بهذه العبارة : « ... إن تحرير الطبقة العاملة يجب أن يتحقق بوساطة الطبقة العاملة نفسها . . . وإن خضوع العامل اقتصاديا لمن يحتكر سبل العمل . . . هو أساس العبودية بكل صورها من الشقاء الاجتماعى ، إلى الانحطاط الذهنى وإلى عدم الاستقلال السياسى ؛ وإن تحرير الطبقة العاملة اقتصاديا ، هو

بناء على ذلك ، الهدف الكبير الذى يجب أن تعد جميع الحركات السياسية مجرد وسائل لتحقيقه ؛ وإن جميع الجهود التى استهدفت تحقيق هذا الهدف الكبير قد فشلت حتى الآن بسبب انعدام التضامن بين الأقسام المختلفة العديدة للنشاط العمالى فى كل بلد ، ولانعدام وجود رباط أخوى يوحِّد بين الطبقات العاملة فى مختلف البلاد ... من أجل هذه الوسائل اتخذ الموقعون ... الخطوات الضرورية لتأسيس (اتحاد دولى للعمال) » .

وقد تضمن هذا الخطاب كذلك استعراضا للظروف الاقتصادية والاجتماعية للطبقة العاملة منذ سنة ١٨٤٨ ، كما تضمن مقارنة بين رخاء الطبقات المالكة الذى يتزايد بسرعة وبين حالة العمال الكئيبة ، واعتبر عام ١٨٤٨ هزيمة ساحقة لطبقة العمال ، وإن لم تخل تماما من بعض الفائدة : فقد استيقظ الإحساس بالتضامن الدولى بين العمال نتيجه لها . كما أدت أحداث تلك السنة إلى جعل الدعوة إلى إصدار قانون بتحديد ساعات العمل اليومية دعوة موفقة بعض التوفيق ، وكان هذا أول انتصار محدد ضد سياسة حرية التعامل «Laissey Faire» المتطرفة . وكانت الحركة التعاونية قد أثبتت أن أكبر درجات الكفاية الصناعية لا تتعارض مع إلغاء الاستبداد الرأسمالى ، فحسب ، بل هى تزيد مع إلغائه . وهكذا يتبين من ذلك ، أن العمل المأجور ليس شيئاً لابد منه وإنما هو شيء عارض يمكن التخلص منه . ومن ثم بدأ العمال فى آخر الأمر يدركون أنهم لن يكسبوا شيئا من وراء الاستماع إلى ناصحيهم من الرأسماليين ، بل إنهم سوف يخسرون بسبب ذلك كل شيء ؛ أولئك الناصحين الذين كانوا يستغلون ميول العمال القومية والدينية واستغلال مصالحهم الشخصية أو المحلية والجهل السياسى المطبق الذى تتسم به الجماهير ، كلما عجز هؤلاء الناصحون عن استخدام القوة . وأيا كان الطرف الذى يكسب من وراء الحروب القومية أو الحروب بين الأسر المالكة فإن العمال الحاليين هم دائماً الخاسرون . ومع ذلك فإن قوة العمال كانت تجعل فى وسعهم ، عن طريق العمل المشترك ، أن يمنعوا ذلك الاستغلال فى السلام والحرب على السواء : كما ثبت فعلا من نجاحهم فى انجلترا فى التدخل ضد إرسال مساعدات إلى الولايات الجنوبية فى الحرب الأهلية الأمريكية . وليس للعمال من سلاح فى مواجهة قوة عدوهم الهائلة

التى تبدو فى الظاهر وكأنها لا تقاوم ، سوى شيء واحد — هو عددهم ، « غير أن كثرة عدد العمال لا قيمة لها فى الميزان إلا باتحادهم وتنظيمهم وقيادتهم الواعية نحو هدف واحد » ؛ ولقد كانت عبودية العمال أوضح ما تكون فى الميدان السياسى . فإن العزوف عن السياسة من أجل التنظيم الاقتصادى على نحو ما نادى به برودون وباكونين لهو قصر نظر إجرامى ؛ وهم لن يحصلوا على العدالة إلا إذا كان فى إمكانهم أن ينصروا العدالة ، حيثما رأوها تمتهن ، ولو بالقوة إذا تطلب الأمر . وحتى إذا لم يستطيعوا التدخل بالقوة المسلحة ، فإنهم يستطيعون على الأقل أن يحتجوا ويتظاهروا ويرهقوا حكوماتهم حتى تصبح أسمى معايير الأخلاق والعدالة، التى يحكم بها عادة على العلاقات بين الأفراد ، هى الناموس الذى يحدد العلاقات بين الأمم . على أن كل هذا لن يمكن تحقيقه بدون تغيير البناء الاقتصادى القائم فى المجتمع ، أى ذلك النظام الذى يعمل بالضرورة ، رغم بعض ما أدخل عليه من التحسينات الضئيلة ، على امتهان الطبقة العاملة واستعبادها . وليس هناك سوى طبقة واحدة من مصلحتها الحقيقية إيقاف هذا الامتهان وإزالة الأسباب التى تجعل حدوثه ممكنا : تلك هى الطبقة التى لا تملك شيئاً إذ هى لا يربطها أى رباط من مصلحة أو مشاعر بعالم الظلم والبؤس القديمة ؛ طبقة تعد من نتاج العصر الجديد بقدر ما تعد الآلة نفسها من نتاجه . وانتهى الخطاب الافتتاحى ، كما انتهى « البيان الشيوعى » بهذه العبارة « أيها العمال فى العالم اتحدوا ! » . أما مهام المنظمة الجديدة كما تضمنتها هذه الوثيقة فقد كانت : إنشاء علاقات وثيقة بين العمال فى مختلف البلاد وبين مختلف الحرف ؛ جمع الإحصائيات المتصلة بالموضوع ، إبلاغ العمال فى كل بلد ظروف العمال فى البلاد الأخرى وحاجاتهم وخططهم ، مناقشة المسائل المتعلقة بالمصالح المشتركة ، تنسيق العمل فى جميع البلاد فى وقت واحد عند حدوث أزمات دولية ، نشر تقارير منتظمة عن أعمال الاتحادات ؛ وما إلى ذلك . وتجتمع المنظمة فى مؤتمرات سنوية بدعوة من مجلس ينتخب على أساس ديموقراطى تمثل فيه جميع البلاد المشتركة . وقد ترك ماركس الدستور مرنا ما أمكن حتى يمكن أن ينضم إليه أكبر عدد ممكن من المنظمات العمالية مهما اختلفت أساليبها وتباين طابعها. وقد قرر فى أول الأمر أن يعمل بحذر واعتدال ، وأن يعمل على التوحيد وجمع الكلمة والتخلص من الخارجين بالتدريج كلما بلغ العمال حدا أكبر

من الاتفاق: ونفذ سياسته كما وضعها تماما . وكانت النتيجة كارثة ، على الرغم من أنه من العسير أن يرى المرء أية أساليب أخرى فى العمل كان ماركس يستطيع اتباعها مما يتفق ومبادئه .

لقد نمت « الدولية » بسرعة . وانضمت إليها الاتحادات العمالية تلو الاتحادات فى الدول الرئيسية فى أوروبا ، يرفرف عليهم أمل القيام بنضال موحد من أجل زيادة الأجور وخفض ساعات العمل والتمثيل السياسى : فقد كانت « الدولية » أكثر تنظيما بكثير من أى من الحركة العرائضية والعصبات الشيوعية السابقة؛ ويرجع ذلك جزئيا إلى ما تعلمه من درس فى الأساليب التكتيكية . وقُضى على النشاط المستقل من جانب الأفراد ، وحوربت العبارات الشعبية الرنانة وأدخل النظام الذى لا هوادة فيه على جميع ألوان النشاط ، وكان السبب الأساسى فى ذلك كله أن شخصية بالذات تولت قيادة الحركة وسيطرت عليها . ولعل الشخص الوحيد الذى تمكن أن يحاول منافسة ماركس فى السنوات الأولى هو « لاسال » ، وقد مات لاسال ، وإن كان سحر أسطورته قد حال بين العمال الألمان وبين تأييدهم الكامل للمركز الرئيسى فى لندن . ومع ذلك فقد ظل « ليبنخت » ، وهو رجل على قدر متوسط من النبوغ ، مخلصا لماركس إلى النهاية فجعل يدعو إلى المذهب الجديد بحماس ومهارة ؛ بيد أن استمرار سياسة بسمارك المناهضة للاشتراكية وقوة التقاليد القومية الموروثة عن لاسال قد قصرا نشاط العمال الألمان داخل حدود بلادهم حيث استبدت بهم مشاكل تنظيمهم الداخلى . أما باكونين ، ذلك المهيج الكبير ، فكان قد عاد مؤخرا إلى أوروبا الغربية بعد أن هرب بطريقة روائية من سيبيريا(١) ؛ ولكن بينما كان نفوذه الشخصى هائلا داخل « الدولية » وخارجها ، إلا أنه لم يكن له أتباع منظمون : إذ كان قد خرج شيئا فشيئا على « هيرزن » وعلى الحزب الزراعى التحررى بين المنفيين ، فلم يعرف أحد إلى أين يتجه ، بل ولا هو نفسه . وقد أصبح هو وأتباعه الآن أعضاء فى « الدولية »

(١) كان باكونين قد حكم عليه بالإعدام فى أربع دول ، ولكنها اتفقت جميعا على تسليمه إلى قيصر روسيا الذى نفاه إلى سيبيريا ، فهرب منها عبر المحيط الهادى إلى أمريكا ، ثم عاد منها إلى أوروبا . «المترجم»

مشتركين فى ذلك مع غالبية أتباع برودون الآخرين ؛ غير أنه لما كانت «الدولية» تدعو جهرا إلى العمل السياسى فإن انضمامهم إليها كان ينطوى على تحد لمبادئهم. وكان من أكثر الأعضاء حماسة فى ذلك الوقت ، النقابيون الفرنسيون والإنجليز الذين وقعوا مؤقتا تحت تأثير سحر التجربة الجديدة وما تحمله بين طياتها من آمال كبار بالرخاء والقوة ؛ ولم يكونوا من المهتمين بالنظريات ، بل لم تكن بهم رغبة لأن يهتموا بها ، فتركوا مثل هذه المسائل كلها للمجلس العام « للدولية » . وما دام هذا الجو قائما فقد ظل ماركس دون أن يكون له أى منافسين جدد داخل المنظمة ؛ فقد كان متفوقا تماما ، من الناحية الفكرية ومن ناحية التجربة الثورية وقوة الإرادة ، على ذلك الخليط الغريب من أصحاب الحرف وعمال المصانع والأيديولوجيين العابرين الذين كان يتكون منهم ، « الاتحاد الدولى الأول للعمال » (الدولية الأولى) . بالإضافة إلى شخص أو شخصين آخرين من المغامرين المريبين .

وكان ماركس قد بلغ الرابعة والستين من عمره فى ذلك الوقت ، ولكن كان يبدو فى مظهره وعاداته أكبر من سنه . وكان ثلاثة من أولاده الستة قد ماتوا بسبب الظروف المادية التى عاشت فيها العائلة فى مسكنهم بحى « سوهو » : وحتى بعد أن استطاعوا الانتقال إلى منزل أوسع فى « كنتيش تاون » فقد كانوا شبه معدمين . وبدأت الأزمة الاقتصادية الكبرى ، أشد أزمة عرفتها أوروبا إلى ذلك الوقت ، فى سنة ١٨٥٧ ؛ فرحب بها كل من ماركس وإنجلز ترحيبا شديدا باعتبار أنها ستكون عاملا على إثارة التذمر والتمرد ؛ ولكنها فى الوقت عينه حدّت من دخل إنجلز فكان ذلك صدمة لماركس نفسه فى وقت ما كان ليستطيع فيه أن يحتملها. وقد أنقذته جريدة « نيويورك تريبيون » وبعض المقالات التى كان يكتبها بين الحين والحين فى بعض جرائد ألمانيا الراديكالية من الموت جوعا بمعنى الكلمة ؛ ولكن الحد الذى كان يفصل بين العائلة وبين الفناء قد ظل رقيقا طوال عشرين عام ، حتى المورد الذى كان مصدره جريدة « نيويورك تريبيون » انقطع فى سنة ١٨٦٠ إذ وجـــد رئيس تحريرها « هوراس جريلى » ، وهو من أنصار الديموقراطية القومية المتحمسين ، أن الخلاف فى الرأى يزداد حدة بينه وبين مراسله الأوروبى الذى يصوغ آراءه فى ألفاظ حادة .

وأدت الأزمة الاقتصادية ، بالإضافة إلى آثار الحرب الأهلية ، إلى فصل كثير من مراسلى الجريدة الأوروبيين : وحاول « دانا » أن يحتفظ بماركس ، ولكن دون جدوى . وأخرج ماركس بالتدريج من منصبه فى أوائل عام ١٨٦٠ ؛ وانقطعت علاقته بالجريدة نهائيا بعد ذلك بعام . أما فيما يتعلق « بالدولية » فقد زادت من من أعبائه وأشاعت النور فى حياته ولكنها لم تزد من دخله . وقد حاول ، بعد أن استيأس من زيادة موارده ، الحصول على وظيفة « قاطع تذاكر » فى مكتب من مكاتب شركات السكك الحديدية ، ولكن ملابسه الرثة ومظهره المخيف كانا أبعد من أن يتركا أثرا طيبا فى نفس أى صاحب عمل مقتدر يطلب عملا مكتبيا ، وقد رفض طلبه فى النهاية بسبب رداءة خطه . وإنه لمن العسير أن يرى المرء كيف كان ماركس وعائلته يستطيعون البقاء إبان هـــذه السنوات البشعة لولا مساعدة إنجلز .

وأنشئت فروع « للدولية » فى إيطاليا وأسبانيا ؛ ثم ما أن حانت سنة ١٨٦٥ حتى كانت الحكومات قد بدأت تشعر بذعر متزايد ؛ وجرت على ألسنة الناس أحاديث عن الاعتقال والنفى والإعدام ، ثم قام « الإمبراطور الفرنسى » بمحاولة فاترة لإخماد الحركة الدولية . فكانت النتيجة الوحيدة لذلك اتساع شهرة الحركة الجديدة وزيادة هيبتها بين العمال . أما بالنسبة لماركس فقد كانت بمثابة حياة جديدة ونشاط جديد له بعد ظلام الخمسينات . واستغرقت أعمال « الدولية » أيامه ولياليه . واستطاع بمعاونة إنجلز الأمينة المعهودة أن يتولى هو شخصيا زمام الأمور فى المركز الرئيسى ، فلم يكتف بالقيام بدور المستشار المطلق ، بل قام كذلك بأعمال مكتب تحرير وتوزيع المراسلات . فكان كل شىء يمر بين يديه ويوجه الوجهة التى يراها . وتقدم الفرنسيون ، وجزء من السويسريين ، وكذلك البلجيكيون إلى حد ما، وأخيرا الإيطاليون الذين تشربوا بمبادئ برودون وباكونين المناهضة للسلطة المطلقة ، باحتجاجات مبهمة ، ولكنها لم تجد شيئا . وشدد ماركس الذى كان يتمتع بسيطرة كاملة على « المجلس » ، قبضته بعد ذلك أكثر من ذى قبل ؛ وقد أصر على التمسك تمسكا شاملا بكل نقطة فى البرنامج الأصلى . وبدا أن طاقته القديمة قد عادت إليه . وكتب إلى إنجلز خطابات تشيع فيها الحماسة ، بل والبهجة

إلى حد ما ؛ وحتى مؤلفاته النظرية أخذت تحمل طابع هـــذه الحيوية الجديدة ؛ وقد أدى نشاطه فى أحد الميادين كما يحدث كثيرا ، إلى إثارة نشاطه الراكد فى ميادين أخرى . وكان قد ظهر فى سنة ١٨٥٩ هيكل تخطيطى لنظريته الاقتصادية : ولكن مؤلفه الرئيسى ، الذى كثيرا ما انقطع عنه بسبب الفقر والمرض ، كان الآن قد قارب نهايته .

ولم يحضر ماركس كثيراً من اجتماعات مؤتمر « الدولية » : فقد كان يفضل توجيه أعماله من لندن حيث كان يحضر اجتماعات « المجلس العام » بانتظام ويوجه فيه إلى أنصاره تعليماته مفصلة . وكان كعادته يكاد يثق فى الألمان ويعتمد عليهم دون غيرهم : وقد وجد عونا مخلصا له فى شخص حائك ألمانى متقدم فى السن اسمه «إيكاريوس » كان يقيم فى انجلترا منذ مدة ، وهو رجل كان لا يثقل كاهله قدر كبير من الذكاء أو الخيال ، ولكنه كان مع ذلك دقيقاً ويمكن الاعتماد عليه . ومع الوقت تمرد « إيكاريوس » ، مثل معظم بطانة ماركس ، وانضم إلى الانفصاليين ؛ ولكنه ظل طوال ثمانى سنوات ، بوصفه سكرتيرا لمجلس « الدولية » ، ينفذ تعليمات ماركس حرفيا . وكانت المؤتمرات السنوية تعقد فى لندن وجنيف ولوزان وبروكسل وبازل ، وفيها تناقش المشاكل العامة ويتم التصويت على حلول محددة لها ؛ واتخذ المؤتمرون قرارات مشتركة فيما يتعلق بساعات العمل والأجور ، ونوقشت مسائل أخرى مثل أوضاع النساء والأطفال ومثل نوع الضغط الاقتصادى والسياسى الذى يلائم الظروف المختلفة أكثر من غيره فى كثير من الدول الأوروبية . وكان هم ماركس الأول الوصول إلى صياغة واضحة لسياسة دولية محددة على ضوء مطالب بذاتها تنسق مع بعضها البعض ، وإنشاء نظام مشدد يضمن عدم الخروج على هذه السياسة . ومن ثم فقد قاوم بنجاح كل عروض التحالف مع هيئات إنسانية بحتة مثل « عصبة السلام والحرية » التى أنشئت حديثاً تحت رعاية مازينى وباكونين وجون ستيوارت ميل . وكان لابد لهذه السياسة الديكتاتورية من أن تؤدى إن عاجلا أو آجلا إلى التذمر والتمرد ؛ وتبلور التمرد حول باكونين الذى بدأت فكرته عن تكوين اتحاد من هيئات محلية شبه مستقلة تكسب أنصارا فى القطاعات السويسرية والإيطالية من « الدولية » ، وفى فرنسا بدرجة أقل . وأخيرا

قرر أنصار هذه الفكرة أن يكونوا من أنفسهم هيئة تحت رئاسة باكونين باسم « الحلف الديموقراطي » يعمل تحت لواء « الدولية » ويكون له مع ذلك تنظيم داخلي خاص به يقوم على مقاومة المركزية وتأييد الاستقلال الذاتى داخل إطار الاتحاد . وكان هذا كفرا لا يستطيع تجاهله حتى من كان أكثر تسامحا من ماركس . « فالدولية » لم يكن يقصد منها أن تكون مجرد جمعية للمراسلات بين اتحاد مفكك من اللجان الراديكالية ، بل قصد منها أن تكون حزبا موحدا يعمل على تحقيق غاية واحدة فى جميع مراكزه المتفرقة . وكان ماركس يعتقد اعتقادا راسخا أن أية علاقة مع باكونين — أو أى روسى آخر — لابد أن تنتهى بخيانة الطبقة العاملة ، وهو رأى كان قد تكون لديه بعد فترة التقارب القصيرة بينه وبين الروسيين الراديكاليين الارستوقراط فى الأربعينيات وما أصابه من خيبة أمل من جرائها . أما باكونين فبينما كان يعلن مخلصا إعجابه بنبوغ ماركس الشخصى ، فإنه لم يخف أبدا نفوره الشخصى منه أو كراهيته لإيمان ماركس بالوسائل الديكتاتورية ، ذلك الإيمان الذى يبدو فى كل من نظرياته ومن تنظيمه العملى للحزب الثورى .

وقد قال باكونين فى ذلك «إننا ، نحن الفوضويين الثوريين ، نعادى كل صور الدولة وتنظيماتها . . . ونعتقد أنه لما كان حكم الدولة أيا كان نوعه يقع بطبيعة ذاته بعيداً عن جمهرة الناس ، فلابد حتما من أن نسعى إلى إخضاعه لعادات وأهداف غريبة عليه بالمرة . ومن ثم فقد جعلنا من أنفسنا أعداء ... لكل تنظيمات الدولة فى ذاتها ، ونعتقد أن الناس لا يمكن أن يكونوا سعداء وأحرار ، إلا عندما يخلقون حياتهم بأنفسهم وقد تم تنظيمهم من أسفل بوساطة اتحاداتهم المتمتعة بالحكم الذاتى والحرية الكاملة ودون إشراف من أى أوصياء .

« ونحن نؤمن بأن السلطة تفسد صاحبها بقدر ما تفسد أولئك الذين يرغمون على طاعتها . فتحت تأثيرها المدمر يصبح البعض طاغين طموحين طغاة يستغلون المجتمع لمصلحتهم الخاصة أو لمصلحة طبقتهم ، بينما يتحول الآخرون إلى عبيد أذلاء . إن المثقفين واليقينيين والمذهبيين ، وجميع أولئك الذين يضعون العلم قبل الحياة ، ... يدافعون عن فكرة الدولة وسلطتها بوصفها السبيل الوحيد الممكن لخلاص المجتمع — وهى فكرة منطقية تماما ، لأنهم يستخلصون من المقدمة الخاطئة

التى تقول بأن الفكر يأتى قبل الحياة ، وأن النظرية المجردة وحدها هى التى يمكن أن تكون نقطة البداية فى العمل الاجتماعى .. فيصلون من ذلك إلى النتيجة الحتمية وهى أنه لما كانت مثل هذه المعرفة النظرية لا يملكها فى الوقت الحاضر سوى قلة ضئيلة ، فإن هذه القلة يجب أن تتولى زمام الحياة الاجتماعية ، لا لكى يكونوا مصدر الإيحاء فحسب ؛ بل ليوجهوا كذلك جميع الحركات الشعبية ، وأنه إذا ما انتهت الثورة ، لابد على الفور من إنشاء تنظيم ، لا يتكون من اتحاد حر بين هيئات شعبية ... يعمل وفق حاجات الشعب وغرائزه ، بل تتجمع فيه السلطة الديكتاتورية المركزة فى أيدى تلك القلة الأكاديمية ، كما لو كانت هذه القلة تعبر حقيقة عن الإرادة العامة .... والفرق بين هذه الديكتاتورية الثورية الجديدة والدولة الحديثة إنما هو فرق فى الزخرف الخارجى وحده . فكلاهما فى جوهره طغيان من الأقلية على الأغلبية باسم الشعب — باسم غباء الكثرة والحكمة المتفوقة للقلة — ومن ثم فإنهما نظامان رجعيان يتساويان فى رجعيتهما ، ويؤديان إلى استيلاء القلة الحاكمة على الامتياز السياسى والاقتصادى وإلى استعباد الجماهير .. وإلى تدمير النظام الحاضر لإنشاء ديكتاتوريتهم الصارمة على أنقاضه » .

ولم تكن هجمات باكونين ضد ماركس ولاسال مما يمكن تجاهله ، خاصة وأنها كانت تتسم بمسحة من العداء للسامية الذى جعل صديقه « هيرزن » يؤنبه عليه أكثر من مرة . ومع ذلك فعندما رجاه « هيرزن » فى سنة ١٨٦٩ أن يترك « الدولية » ، كتب فى نوبة من نوبات الكرم المعروفة عنه يقول إنه لا يستطيع أن ينضم إلى خصوم رجل « خدم (قضية الاشتراكية) خمسة وعشرين عاما ببعد نظر ونشاط ونزاهة ، وتفوق فيها علينا جميعاً بلا جدال » .

ولم تكن كراهية ماركس لباكونين لتعميه عن الحاجة إلى التنازل عن قدر معين من الاستقلال الإقليمى لدوافع تمليها مقتضيات الضرورة المحضة . وهكذا نجح فى الحيلولة دون تنفيذ خطة إنشاء اتحادات عمالية دولية لأنه اعتقد أن ذلك لم يحن وقته بعد ، وأنه سيؤدى فوراً إلى انشقاق الاتحادات القائمة التى ترتكز على أساس قومى ، التى هى مصدر التأييد الأساسى « للدولية » على الأقل فى انجلترا . ومع ذلك فهو لم يقبل هذا التنازل حبا فى الوحدة التعاهدية فى ذاتها ، ولكن حتى لا يعرض للخطر ما تم تشييده حتى الآن ، مما لن يستطيع بدونه إنشاء

تلك الهيئة التي يشعر العمال في ظلها بأن من وراء مطالبهم قوة من العمال منظمة متحفزة لمقاومة الحكومات ، ولإرهابها والضغط عليها إذا تطلب الأمر كذلك ، حتى تتحقق العدالة لإخوانهم في كل مكان : لا أن يقتصر الأمر ، كما حدث في سنة ١٨٤٨ ، على مجرد عواطف متبادلة هنا وهناك ممن ليس لديهم ما يقدمونه سوى الأثر المعنوي أو ، على أحسن الحالات ، سوى بعض المساعدات بين وقت وآخر .

وبدا لماركس أنه لا غنى عن وجود هيئة مركزية لديها سلطة لا ينازعها فيها أحد ، نوع من هيئة أركان حرب عامة تكون مسئولة عن الاستراتيجية والتكتيك ، لكي يمكن خلق هذه الإمكانية الدائمة من التضامن النظري والعملي .

وقد بدا له أن باكونين يعمل عامدا ، بمحاولاته إضعاف روابط « الدولية » وتشجيع اختلاف الرأي في القطاعات المحلية ، على تدمير هذه الإمكانية . فإذا نجح فسوف يكون معنى ذلك فقد كل ما تم كسبه والعودة إلى المثالية الحالمة واختفاء النظرة اليقظة الجديدة ، وكذلك القضاء على إدراك العمال بأن مصدر قوتهم الوحيد هو في اتحادهم وبأن السبب في أنهم كانوا طعمة سهلة في أيدي أعدائهم في سنة ١٨٤٨ هو أنهم كانوا مشغولين في حركات متفرقة ، هي مجرد سورات عاطفية من العنف ، بدلا من ثورة واحدة مترابطة متعاونة نظمت بحيث تبدأ في لحظة تختار لملاءمتها التاريخية وبحيث تتجه من مصدر مشترك نحو هدف مشترك على أيدي رجال درسوا الموقف ودرسوا قوتهم وقوة عدوهم دراسة دقيقة . إن اتجاه باكونين يؤدي ، في رأي ماركس ، إلى تبديد النزعة الثورية وإلى إحياء البطولة الرومانسية النبيلة القديمة التي لا جدوى منها ، تلك البطولة الغنية بشهدائها وقديسيها والتي يمكن أن تسحق بسهولة على يد العدو الأكثر واقعية ، ثم يعقبها بالضرورة فترة من الضعف وخيبة الأمل يغلب أن ترجع بالحركة خطوات عديدة إلى الوراء . ولم يقلل ماركس من قدر طاقة باكونين الثورية وقدرته على إثارة أخيلة الناس : بل إن هذه الصفات هي التي جعلته يعتبره قوة مدمرة خطرة تنشر الفوضى أينما حلت ، ويرى أنه لو سمح له ولأعوانه بغزو صفوف المدافعين عن قضية العمال فإن قضيتهم لا تلبث أن تصبح قائمة فوق فوهة بركان . ومن هنا جاء قراره بعد سنوات من المناوشات المتقطعة بأن يشن حربا سافرة . وانتهى الهجوم بطرد باكونين وأتباعه من صفوف « الدولية » .

الفصل العاشر

الدكتور الارهابي الأحمر

« نحن كما نحن بفضله : ولولاه لظللنا غارقين
في حمأة من البلبلة »

« فردريك إنجلز سنة ١٨٨٣ »

نشر المجلد الأول من « رأس المال » آخر الأمر فى سنة ١٨٦٧ . وكان ظهور هذا المؤلف حدثا هاما فى تاريخ الاشتراكية الدولية وفى حياة ماركس نفسه . وقد كتب على صورة بحث شامل فى قوانين التنظيم الاقتصادى للمجتمع الحديث وطريقة تكوينه ، يهدف إلى وصف عمليات الإنتاج والتبادل والتوزيع كما تحدث بالفعل ، وتفسير حالتها الراهنة بوصفها مرحلة بذاتها من مراحل النمو أوجدتها حركة الصراع الطبقى ، أو فى عبارة ماركس نفسه ، « لاكتشاف قانون الحركة الاقتصادى فى المجتمع الحديث » عن طريق كشف القوانين الطبيعية التى تحكم تاريخ الطبقات . وجاءت النتيجة مزيجا غريبا من النظريات الاقتصادية ومن التاريخ وعلم الاجتماع والدعاية ، مزيجا لا ينطبق عليه أى نمط من الأنماط المألوفة . ولا شك فى أن ماركس كان يعتبر مؤلفه هذا فى جوهره بحثا فى علم الاقتصاد . فالاقتصاديون السابقون ، فى رأيه ، قد أساءوا فهم طبيعة القوانين الاقتصادية عندما قارنوها بقوانين علم الطبيعة والكيمياء وافترضوا أنه على الرغم من أن الظروف الاجتماعية قد تتغير فإن القوانين التى تحكمها تبقى ثابتة لا تتغير ؛ وكانت النتيجة أن جاءت نظمهم إما منطبقة على عوالم خيالية يسكنها أشخاص حُددت أنماطهم الاقتصادية على نسق المعاصرين للكاتب ذاته ، ومن ثم جاؤا عادة مزيجا من سمات لم تبرز بوضوح إلا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ؛ وإما أنها تصف مجتمعات اختفت منذ أمد بعيد ، إذا كانت قد وجدت أصلا . ومن ثم فقد رأى ماركس أن مهمته هى أن يبتكر نظاماً جديداً من المفهومات والتعريفات

تنطبق بصورة محددة على العالم المعاصر وتوضح بحيث تعكس التكوين المتغير للحياة الاقتصادية ، لا فى علاقتها بالماضى فحسب ، بل وفى علاقتها بالمستقبل كذلك . وقد حاول ماركس فى المجلد الأول فى وقت واحد أن يضع سردا منظما لنظريات أساسية معينة فى علم الاقتصاد،وأن يصور ، بصفة خاصة ، ظهور النظام الصناعى الجديد باعتباره نتيجة للعلاقة الجديدة بين أصحاب الأعمال والعمل التى خلقها تأثير التقدم الفنى على وسائل الإنتاج .

ومن ثم فقد تناول المجلد الأول عمليات الإنتاج ؛ أى العلاقة بين الآلة والعمل من ناحية ، والعلاقة بين المنتجين الفعليين (العمال وأولئك الذين يستخدمونهم ويوجهونهم) من ناحية أخرى . وأما المجلدات الباقية ، التى نشرها منفذ وصيته بعد وفاته ، فقد تناولت الأساليب المستعملة فى تسويق المنتجات المنتهية ، أى نظام التبادل والجهاز المالى الذى ينطوى عليه ، كما تناولت العلاقات بين المنتجين والمستهلكين التى تحدد سعر الفائدة والربح .

والفكرة العامة التى تتخلل المؤلَّف كله تشبه تلك التى وردت فى « البيان الشيوعى » وفى كتابات ماركس الاقتصادية السابقة (١) . فهى تتبع ظهور البروليتاريا الحديثة عن طريق ربطها بالنمو العام للوسائل الفنية فى الإنتاج . إذ عندما تصبح هذه الوسائل ، خلال تطورها التدريجى ، أكثر كلفة وأكثر تعقيداً من أن يستطيع كل فرد تكييفها لاستعماله الخاص ، يسيطر بعض الأفراد ، عن طريق تفوقهم فى المهارة والقوة والقدرة على التنظيم ، أو عن طريق حادث من حوادث المصادفة ، على الآلات والأدوات ؛ وهكذا يجدون أنفسهم فى مركز يسمح لهم باستئجار عمل الآخرين بأن يعرضوا عليهم مكافآت ، فى صورة أجور منتظمة ، تفوق ما يحصلون عليه كمنتجين مستقلين يحاولون دون جدى تحقيق نفس النتائج بوساطة الآلات القديمة العديمة النفع التى لا يملكون سواها ؛ وهكذا أضحى هؤلاء الرجال أنفسهم ، نتيجة بيعهم عملهم لآخرين ، سلعاً فى السوق الاقتصادى لعملهم سعر محدد يتقلب كما تتقلب أسعار السلع الأخرى تماماً .

---

(١) إذا أراد القارئ معرفة تفاصيل أوفى عن مذهب ماركس الاقتصادى مع خير نقد معروف عنه ، فهناك الفصل الذى كتبه الأستاذ هـ . ج . لاسكى عن « اقتصاديات الشيوعية » فى كتابه « الشيوعية » الذى ظهر فى هذه المجموعة .

والسلعة هي أى شئ يتضمن عملا بشرياً عليه طلب اجتماعى ، فهى بذلك ، كما عنى بإيضاحه ، مفهوم لا ينطبق إلا على مرحلة حديثة نسبياً من مراحل النمو الاجتماعى : وليس مفهوماً أبديا ، شأنه فى ذلك شأن أى قالب اقتصادى آخر . وذهب ماركس إلى أن القيمة التجارية للسلعة تتكون مباشرة من عدد ساعات العمل البشرى التى يقتضيها صنع نموذج متوسط من نوعها بيد منتج متوسط (وهى وجهة نظر مستمدة من مبـــدأ شبيه بذلك على حد ما قال به « ريكاردو » والاقتصاديون الـكلاسيكيون) . وقد ينتج عمل يوم واحد يقوم به عامل شيئاً ذا قيمة أكبر من قيمة الحد الأدنى من السلع التى يحتاج إليها هذا العامل لسد حاجاته المعيشية ؛ وهكذا ينتج شيئاً أثمن مما يستهلكه ؛ بل هو إذا لم يفعل ذلك فلن يكون لدى سيده أى سبب اقتصادى يدعوه إلى استخدامه . فإن قدرته ، بوصفها سلعة فى السوق ، يمكن الحصول عليها مقابل مبلغ « س » الذى يمثل الحد الأدنى الذى تتطلبه المحافظة على حياته فى حالة صحية تسمح له بأن يقوم بعمله بكفاية ؛ والبضائع التى ينتجها « ل » ؛ والفرق بين « س » و « ل » يمثل مدى ما أضفاه من زيادة على جملة ثروة المجتمع ، وهذا هو الفائض الذى يضعه صاحب العمل فى جيبه. وحتى بعد استنزال المكافأة المعقولة مقابل ما يقوم به صاحب العمل بوصفه منظما ومديراً لعمليات الإنتاج والتوزيع فسيظل هناك فائض ضرورى من دخل المجتمع يوزع ، فى رأى ماركس، لا على المجتمع كله فى مجموعة ، بل يقتسمه فى رأى ماركس — فى صورة إيجارات أو فوائد على الاستثمارات أو أرباح عمليات تجارية — أعضاء المجتمع الذين يطلق عليهم الرأسماليون أو البورجوازيون وحدهم ، وهم الذين يميزهم عن سائر أفراد المجتمع أنهم وحدهم يحصلون ، بوصفهم الملاك الوحيدين لوسائل الإنتاج ، على مثل هذه الزيادة التى لم يبذلوا فيها أى عمل ، ويكدسونها .

وسواء فُسر مفهوم ماركس فى القيمة على أنه يعنى سعر السوق الفعلى للسلع ، أو المعيار المتوسط الذى تدور حوله الأسعار ، أو الحد المثالى الذى تتجه نحوه الأسعار ، أو أنه السعر الذى يجب أن يكون فى أى مجتمع منظم على أسس عقلية ، أو أنه شئ أكثر ميتافيزيقية وهيجيلية بوصفه جوهراً لا يُدرك يضيفه العمل البشرى الخلاق على المادة الصماء ، أو هو ، كما يقول النقاد الذين لا يميلون إلى ماركس ، مزيج مشوش من هذا كله ؛ وسواء كانت فكرة الموجود الموحد الذى

يسمى العمل البشرى « غير المميز » (الذى تتكون منه القيمة الاقتصادية تبعاً لهذه النظرية) والذى لا يمكن مقارنة تعبيراته المختلفة إلا من ناحية الكم وحدها ، صحيحة أو غير صحيحة — فليس من اليسير الدفاع عن الطريقة التى استعمل بها ماركس أى المفهومين — سواء كان هذا أو ذاك فإن نظرية الاستغلال التى تعتمد عليهما تظل غير متأثرة نسبياً . والفكرة الأساسية التى اجتذبت العمال ، الذين لم يفهموا فى أغلب الأمر الدقائق المعقدة فى رأى ماركس عن العلاقة بين القيمة التبادلية والأسعار الفعلية ، هى أنه لا يوجد سوى طبقة اجتماعية واحدة ، هى طبقتهم ، تنتج ثروة أكثر ما تتمتع به ، وأن هذا الفائض يستولى عليه أشخاص آخرون لا لشئ إلا بفضل مركزهم الاستراتيجى بوصفهم المالكين الوحيدين لوسائل الإنتاج ، أى للموارد الطبيعية والآلات ووسائل النقل والائتمان المالى وما إليها ، لأنه بدون هذه الوسائل لايستطيع العمال أن ينتجوا ؛ بينما تمنح السيطرة عليها أولئك الذين بيدهم هذه السيطرة القدرة على إرغام بقية الجنس البشرى على التسليم بشروطهم تحت تهديد الموت جوعاً .

ويصور الكتاب الأنظمة السياسية والاجتماعية والدينية على أنها أسلحة فكرية ومعنوية القصد منها تنظيم العالم لصالح أصحاب الأعمال . فإن هؤلاء يستخدمون جيشاً من الأيديولوجيين : من خبراء الدعاية والمفسرين والمدافعين والذين يتولون مهمة الدفاع عن النظام الرأسمالى وينمقونه ويخلقون حوله جواً أدبياً وفنياً الغرض منه زيادة الثقة والتفاؤل لدى أولئك الذين يستفيدون فى كنفه وجعل هذا النظام يبدو مستساغاً فى نظر ضحاياه . بيد أنه إذا كان تقدم الأساليب الفنية ، كما اكتشف « سان سيمون » بحق ، قد منح ملاك الأرض ورجال الصناعة والمال — وكل نوع من أنواع الوسطاء — هذه القوة الفريدة لفترة ما ، فإن تقدمها الذى لا يمكن التحكم فيه سوف يدمرهم بنفس الحتمية .

وكان « فورييه » ، ومن بعده « برودون » ، قد هاجما فعلا العمليات التى يجنح بوساطتها كبار رجال البنوك والصناعة ، عن طريق مواردهم المتفوقه ، إلى استئصال صغار الصناع وأصحاب الحرف من السوق الاقتصادية ، وبذلك يخلقون كتلة من المتذمرين الذين فقدوا أوضاعهم الطبقية وأرغموا بصور آليه على الانضمام إلى صفوف البروليتاريا . على أن المنافسة التى لا وازع لها بين أفراد الرأسماليين

أنفسهم الذين يسعون إلى زيادة كمية القيمة الفائضة،ومايستتبعه ذلك بطبيعة الحال من خفض تكاليف الإنتاج وفتح أسواق جديدة ، ستؤدى إلى إدماج المؤسسات المتنافسة بعضها فى بعض بصورة تتزايد باستمرار ؛ أى إلى عملية لا تنقطع من التوحيد ، حتى لا يبقى هناك سوى أكبر المجموعات وأقواها ، وتضطر جميع المؤسسات الباقية إلى أن تصبح فى وضع من التبعية أو شبه التبعية ، فى السلم الصناعى التركيزى الجديد الذى ينمو ، وسيظل ينمو ، بسرعة متزايدة . فالتركيز هو نتاج مباشر لعملية « التعقيل »[١]، أى نتيجة لزيادة الكفاية فى الانتاج والنقل التى تتم عن طريق تجميع الموارد وتكوين الموثقات والتجمعات الاحتكارية الكبرى القادرة على التعاون القائم على التخطيط . أما العمال الذى كانوا مبعثرين من قبل فى مشروعات اقتصادية متعددة ، ويزيدهم قوة ذلك السيل المتدفق الذى لا ينقطع من أبناء وبنات صغار أصحاب المهن والصناعات الذين لحق بهم الخراب ، فإنهم يتجمعون ويتحدون بصورة آلية ، وبحكم نفس العوامل التى أدت إلى تجميع سادتهم ، جيش واع من البروليتاريا . وسرعان ما تنمو قوتهم السياسية والاقتصادية باطراد اتحادهم . والاتحادات العمالية التى نمت فعلا فى ظل نظام المصنع إنما تمثل سلاحاً فى يد البروليتاريا أقوى بكثير من أى سلاح وجد من قبل . إذ تجنح عملية التوسع الصناعى إلى تنظيم المجتمع أكثر فأكثر على هيئة هرم هائل الحجم يحتل قمته عدد أقل من الرأسماليين من ذوى القوى المتزايدة ، بينما تتكون قاعدته من كتل كبيرة متذمرة من العمال المستغلين ومن عبيد المستعمرات . وكلما زاد إحلال الآلة محل العمل البشرى انخفض بالضرورة معدل الربح ، حيث أن « فائض القيمة » لاتحدده سوى كمية العمل البشرى وحدها . ثم يزداد الصراع حدة واستماتة بين الرأسماليين المتنافسين ودولهم ، إذ أنهم هم الذين يسيطرون على دولهم فى الواقع ، بعد أن ارتبطوا بنظام من المنافسة التى لا كابح لها لا يستطيع البقاء فى ظله إلا من يتغلب على منافسيه ويدمرهم .

وهذه العمليات لا يمكن التحكم فيها داخل إطار الرأسمالية والمشروعات الخاصة التى لا ضابط لها ، حيث أن المصالح المكتسبة التى يقوم عليها المجتمع

---

(١) Rationalization

الرأسمالى لا بقاء لها إلا إذا اعتمدت على حرية المنافسة المطلقة . على أن ماركس لم يستطع أن يتنبأ بوضوح بنتائج المنافسة بين الامبرياليات المتنافسة ، وخاصة نمو القومية السياسية بوصفها قوة تؤثر فى صميم نمو الرأسمالية نفسه وتعمل على تغييره ، كما تهيء حجابا يحتمى وراءه ذلك الجزء من البورجوازية الذى ينحدر فى وهدة الفقر تدريجا فيعقد تحالفا مع الرجعية فى غمرة اليأس محاولا تجنب المصير الذى تنبأ له به ماركس من السقوط إلى صفوف البروليتاريا .

إن تقسيم ماركس لطبقات المجتمع إلى ارستقراطية إقطاعية عسكرية زائلة ، وإلى بورجوازية صناعية ، وبورجوازية صغيرة ، وبروليتاريا ، ثم تلك الحثالة العارضة التى تعيش على هامش المجتمع والتى أطلق عليها « Lumpen proletariat » تقسيم كان جديدا ومفيدا فى وقته ، من شأنه أن يؤدى تطبيقه على أوضاع القرن العشرين تطبيقاً آلياً إلى تبسيط المسائل أكثر مما ينبغى . فالأمر يتطلب أداة أكثر إحكاما ولو على الأقل فيما يتعلق بالسلوك المستقل للطبقات ، مثل البورجوازية الصغيرة التى لحق بها ما يشبه الخراب ، والطبقة الوسطى الدنيا من ذوى المرتبات المتصاعدة ، وكذلك ، وقبل أى شيء آخر ، مثل تلك المجموعة الهائلة من السكان الزراعيين ؛ وهى الطبقات التى اعتبرها ماركس طبقات رجعية بطبيعتها ولكنها اضطرت تحت ضغط إملاقها المتزايد إما إلى الهبوط إلى مستوى البروليتاريا وإما إلى عرض خدماتها كجند مرتزقة على البورجوازية الصناعية زعيمة هذه الطبقات . على أن تاريخ ما بعد الحرب فى أوروبا ، على الأقل فى أوروبا الغربية ، لابد أن تُشوه معالمه كثيرا قبل أن يصبح مطابقاً لهذه النظرية .

وتنبأ ماركس بأن الأزمات الدورية الناجمة عن الاقتصاد الذى يعوزه التخطيط وعن الصراع الصناعى الذى لا ضابط له ، لابد بالضرورة أن تزداد فى عددها وحدتها ، ولابد من قيام حروب على نطاق واسع لم يعرف له مثيل من قبل تدمر العالم المتمدين إلى أن يتحقق فى النهاية حل عنيف لمتناقضات النظام الهيجلى التى يعتمد استمرارها على صراع يتزايد أثره المدمر باستمرار بين الأجزاء التى يتكون منها . وسوف ينتهى أمر مجموعة الرأسماليين الذين يأخذ

سلطانهم السياسى فى التناقص باستمرار ، عندما يخلعهم العمال الذين يكون هؤلاء الرأسماليون أنفسهم قد دربوهم تدريبا ممتازا وجعلوا منهم هيئة متساندة منظمة . وباختفاء آخر الطبقات المالكة ينتهى نهائياً الصراع بين الطبقات الذى هو وحده السبب الكافى فى الندرة الاقتصادية والتشاحن الاقتصادى .

ويقول ماركس فى نبذة مشهورة وردت فى الفصل الثانى والعشرين من المجلد الأول من كتاب « رأس المال » : « بينما يتناقص عدد أقطاب الرأسمالية بصورة متزايدة تكون هناك بطبيعة الحال زيادة مماثلة فى مجموع الفقر والاستعباد والامتهان والاستغلال ، ولكن دور الطبقة العاملة يزداد قوة باطراد فى نفس الوقت — وهى الطبقة التى يزداد عددها باستمرار ، وتدربها وتوحدها وتنظمها نفس آلية الأسلوب الرأسمالى فى الإنتاج الذى ازدهرت معه وفى ظله . إلى أن يبلغ تركيز وسائل الإنتاج واذدياد عدد العمال نقطة يصبحان فيها غير متناسبين مع الإطار الرأسمالى الذى يوجدان داخله . وهنا ينفجر هذا الإطار ، فتدق الأجراس معلنة نهاية الملكية الخاصة ويُجرَّد الذين كانوا يجردون غيرهم » . أما الدولة ، وهى الاداة التى كانت تستعمل فى فرض سلطة الطبقة الحاكمة بطريقة مصطنعة ، فستختفى بعد أن تكون قد فقدت وظيفتها ؛ وأخيرا نصل إلى المجتمع المثالى ، الذى طلاه أصحاب المدن الفاضلة فى الماضى بألوان أكثر خيالا وأكثر بساطة مما ينبغى ، مجتمع لا سيد فيه ولا عبد ، لا غنى ولا فقير ؛ مجتمع تُنتج سلع العالم فيه وفقا للمطالب الاجتماعية ولا تعرقل فيه نزوات الأفراد انتاجها ، ويتم توزيعها ، لا بالتساوى — فهذه فكرة عرجاء أخذها العمال عن الأيديولوجيين التحرريين بمفهومهم النفعى عن العدالة بوضعها مساواة حسابية — بل على أساس عقلى ، أى على غير مساواة : لأنه ، كما تختلف حاجات الإنسان وقدراته ، فإن جزاءه ، إذا أراد أن يكون عادلا ، يجب أن يكون وفقا للقاعدة التى جاءت فى « البيان الشيوعى » « لكل حسب حاجته ، ومن كل حسب قدرته » . ويبدأ الناس ، وقد تحرروا أخيرا من طغيان الطبيعة وطغيان أنظمتهم التى أسئ تكييفها وأسئ الإشراف عليها فاستبدت بهم ، فى تنمية قدراتهم إلى أقصى حدودها . وهكذا تتحقق الحرية الحقيقية التى أشار إليها هيجل فى كثير من الغموض . وعندئذ فقط يبدأ التاريخ البشرى بمعناه الحقيقى .

وقد هيأ ظهور « رأس المال » آخر الأمر أساسا فكريا محددا للاشتراكية الدولية بدلا من تلك المجموعة المبعثرة من الآراء الغامضة المتعارضة . وقد كشف هذا المؤلف الضخم عن الاعتماد المتبادل بين كل من النظريات الاقتصادية التاريخية والنظريات السياسية التى بشر بها ماركس وإنجلز ، كل منها على الأخرى ، وأضحى هدفا يتركز حوله الهجوم والدفاع على السواء ، وأصبحت جميع صور الاشتراكية اللاحقة تعرف على ضوء موقفها من الوضع الذى يرسمه ، وتفهم وتقسم بالنسبة لأوجه الشبه بينها وبينه . ولم يلبث ، بعد فترة قصيرة من الركود أن بدأت شهرته تنمو حتى بلغت حدا غير عادى ، واكتسب قيمة رمزية أكثر من أى شيء آخر كتب منذ عصر الإيمان ، بل لقد أصبح هذا المؤلف موضع تقديس أعمى وموضع حقد أعمى من ملايين من الناس الذين لم يقرأوا منه حرفا واحدا ، أو هم قرءوه ولم يفهموا أسلوبه الملتوى المبهم . وقامت باسمه ثورات ؛ فلم تلبث الثورات المضادة أن حشدت جهودها لمصادرته باعتباره أقوى أسلحة العدو مضيا وأشدها خداعا . وقام نظام اجتماعى جديد يعتنق مبادئه ويرى فيه تعبيرا نهائيا لإيمانه الذى لا يتغير . وأدى إلى ظهور جيش من المفسرين وأصحاب الفتاوى الذين بذلوا جهودا لا تنقطع قرابة ثلاثة أرباع قرن دفنت الكتاب الأصلى تحت جبل من التعليقات التى بز أثرها أثر هذا السفر المقدس نفسه .

أما فى حياة ماركس نفسه فقد كان نشر الكتاب لحظة حاسمة . لقد قصد من كتابه أن يكون أعظم ما أسهم به فى تحرير البشرية ، فضحى من أجله بخمسة عشر عام من حياته وبكثير من طموحه ومطامعه . نعم ، فلقد كان الجهد الذى بذله فى تأليفه ضخما حقيقة . ومن أجله تحمل الفقر والمرض والاضطهاد الشخصى والعام ؛ عانى كل ذلك ، لا بسرور طبعاً ، ولكن بطريقة رواقية فيها من القوة والخشونة ووحدة الهدف ما أثر فى كل من تصل به وأخافه .

وعرض ماركس أن يهدى كتابه إلى « داروين » الذى كان يعجب به إعجابا فكريا يفوق إعجابه بأى شخص آخر من معاصريه ، ويرى أنه فعل من أجل العلوم الطبيعة ، بنظريته فى التطور والانتخاب الطبيعى ، ما كان يحاول هو ، أى ماركس ، أن يفعله من أجل التاريخ البشرى . ولكن داروين اعتذر بسرعة عن قبول هذا

الشرف بخطاب صيغت عباراته الحذرة فى حرص شديد قال فيه أنه لسوء الحظ يجهل العلوم الاقتصادية ولكنه يرجو للمؤلف أطيب التمنيات فى تحقيق ما وصفه بأنه هدفهما المشترك — ألا وهو تقدم المعرفة البشرية . وأهدى ماركس الكتاب أخيرا إلى ذكرى « ويلهلم وولف » ، وهو شيوعى من « سيليزيا » كان تابعا من أتباعه المخلصين منذ سنة ١٨٤٨ ثم مات مؤخرا فى مانشستر . وكان المجلد الذى نشر هو الجزء الأول من المؤلف الذى وضع تصميمه . أما بقية الكتاب فكانت لا تزال مجموعة مشوشة من المذكرات والإشارات والمسودات . وأرسل ماركس نسخا من هذا المجلد إلى شركائه القدماء ، إلى « فرايليجراث » الذى هنأه على أنه أنتج مرجعا مفيدا ، وإلى « فيورباخ » الذى قال أنه وجده « غنيا بحقائق لا تنكر تثير الاهتمام الشديد ولكنها فى نفس الوقت ذات طابع بشع » . أما « روج » فقد أطراه إطراء أكثر تخصيصا ؛ وحصل الكتاب على تقريظ واحد على الأقل فى انجلترا فى « ساترداى ريفيو » جاءت فيه ملاحظة غريبة بعض الشىء : « إن عرض الموضوع يتناول أكثر المسائل الاقتصادية جفافا بطريقة جذابة ذات طابع فريد » . أما فى ألمانيا فقد كان حظ الكتاب من العناية كبيرا ، حيث قام أصدقاء ماركس مثل « ليبنخت » ، و « كوجلمان » — وهو طبيب من هانوفر كان يعجب بماركس إعجابا شديدا — بدعاية نشطة له ، كما بذل « جوزيف ديتزجن » بصفة خاصة — وهو إسكافى ألمانى من « سان بطرسبرج » علم نفسه بنفسه وأصبح واحدا من أكثر تلامذة ماركس حماسة له — مجهودا كبيرا لتعريف الجماهير الألمانية بالكتاب .

ولم تضعف شهية ماركس العلمية منذ أيامه فى باريس . فقد كان يؤمن بالدراسة المحكمة ، وكان يدفع أتباعه العزوفين عن الدراسة إلى حجرة المطالعة بالمتحف البريطانى دفعا . ويصف « ليبنخت » فى مذكراته كيف كان يمكن رؤية « حثالة الشيوعية الدولية » يوما بعد يوم وهم جالسون فى خنوع على مقاعد قاعة المطالعة تحت بصر « الأستاذ » نفسه . والواقع أنه ما من حركة سياسية أو اجتماعية اهتمت مثل هذا الاهتمام بالبحث والاطلاع . وتبدو سعة اطلاع ماركس نفسه إلى حد ما فى المراجع التى جاءت فى مؤلفاته ، وهى مراجع غاصت فى أعماق بعض

المسائل المهملة من كتابات العصور القديمة والوسطى والحديثة . وتتناثر الهوامش بكثرة فى « رأس المال » ، هوامش مطولة تطعن وتدمر ، تذكر المرء بالطريقة الكلاسيكية التى استخدم بها « جيبون » هذا السلاح . وإذا كان معظم خصومه الذين وجه إليهم هذا السلاح هم أشخاص أصبحوا الآن فى زوايا النسيان ، فقد وجه طعناته كذلك بين الفينة والفينة إلى شخصيات معروفة ؛ فنجد « ماكولى » و « جلادستون » وواحدا أو اثنين من علماء الاقتصاد المعروفين فى ذلك الوقت هدفا لهجوم وحشى مركز ، كان فاتحة عهد جديد فى أساليب الطعن ، وبداية لمدرسة الكتابات الجدلية الاشتراكية التى غيرت الطابع العام للخصومة السياسية بالكلية . ولا يوجد فى الكتاب سوى النزر اليسير من الإطراء . وخير ما جاء فيه من مديح كان موجها إلى « مفتشى المصانع الإنجليز » ؛ فهو يقول عن تقاريرهم الجريئة التى لا تحيز فيها عن الأحوال البشعة التى شاهدوها وعن الوسائل التى كان يتبعها أصحاب المصانع للتهرب من تنفيذ القانون ، إنها ظاهرة مشرفة وفريدة فى تاريخ المجتمع البورجوازى . وقد أحدث ماركس ثورة فى أساليب البحث الاجتماعى بالمثل الذى ضربه فى استخدام « الكتب الزرقاء » والتقارير الحكومية : فالجزء الأكبر من تنديده المفصل بأساليب التصنيع الحديث يكاد يعتمد عليها وحدها .

وبعد موته وجد إنجلز — الذى نشر المجلدين الثانى والثالث من « رأس المال » — المخطوطات التى خلفها ماركس فى حالة مشوشة أكثر بكثير مما كان يتوقع . والواقع أن السنة التى ظهر فيها المجلد الأول لم تكن نقطة تحول فى حياة ماركس ، بل كانت نقطة انكسار فى حياته . فآراؤه لم تتغير كثيرا خلال السنوات الست عشرة الباقية من حياته ؛ فقد أضاف إلى ما كتب وأعاد النظر فى بعضه وصحح بعضه وكتب نشرات وخطابات ، ولكنه لم ينشر شيئاً جديداً بالمرة ؛ إذ جعل يكرر الوضع القديم دون ملل ، وإن كان فى لهجته أكثر اعتدالا ، وظهرت نغمة خافتة فيها شىء يكاد يكون رثاء لحاله ، وهى نغمة لم يكن لها وجود مطلقا قبل ذلك . وضعف إيمانه بقرب وقوع الثورة العالمية ، بل وبحتمية وقوعها فى النهاية . فقد كانت تنبؤاته قد اخفقت فى كثير جدا من الحالات ؛ فقد تنبأ بثقة

بوقوع ثورة كبيرة فى سنة ١٨٤٢ إبان تمرد قام به النساجون فى « سيليزيا » ، بل ذهب إلى حد أن أوحى إلى « هاين » بكتابة قصيدته المشهورة عنها التى نشرها فى صحيفته الباريسية ؛ ثم مرة أخرى فى سنة ١٨٥١ وسنة ١٨٥٧ وسنة ١٨٧٢ توقع أحداثاً ثورية لم تقع . ولكن تنبؤاته الطويلة المدى كانت أكثر نجاحاً بكثير ، لا فيما يتعلق بالتطور العام للرأسمالية فحسب — التى ثبت فيها صدقه فى بعض نبوءاته ولم يخطىء فيها إلا فى افتراض أن تركيز السيطرة يتبعه بالضرورة تركيز ملكية المصادر الاقتصادية ، وهو رأى تنقضه الزيادة فى عدد صغار المستثمرين والاتجاه المتزايد نحو تقسيم الأرض إلى حيازات صغيرة — بل صدق كذلك فى بعض الأمور الأخرى على وجه التحديد ؛ من ذلك مثلا ، ما تنبأ به بعد ضم الألزاس واللورين من أن هذا الضم سوف يرمى بفرنسا فى أحضان روسيا ومن ثم سيكون سببا فى اندلاع أول حرب عالمية كبرى . وقد اعترف فى نبوءته بأن الثورة قد يتأخر وقوعها أكثر مما قدر هو وإنجلز ، وأنها قد لا تحدث فى بعض البلاد ، وخاصة فى انجلترا التى لم يكن فيها على أيامه جيش أو بيروقراطية بمعنى الكلمة ، ثم أضاف فى غموض « ولو أن التاريخ يشير إلى غير ذلك » . ولم يكن قد بلغ الخمسين من عمره عندما بدأ يحس بالشيخوخة . لقد ولت الفترة البطولية .

وقد خلق « رأس المال » سمعة جديدة لمؤلفه . فكتبه السابقة لم تحظ بعناية جدية حتى فى البلاد التى تتكلم الألمانية : أما كتابه الجديد فقد كان موضع نقد ومناقشة حتى فى روسيا وأسبانيا . وترجم خلال السنوات العشر التالية إلى الفرنسية والإنجليزية والروسية والإيطالية ، بل إن باكونين نفسه عرض بشهامة أن يقوم بترجمته إلى الروسية ولكن هذا المشروع ، إن كان قد بدىء فيه أصلا ، قد انهار فى ظروف من الفضائح الشخصية والمالية الدنيئة التى كانت بعض السبب فى القضاء على « الدولية » بعد ذلك بخمس سنوات . ولكن السبب فى الشهرة الفجائية التى حظى بها هذا الكتاب ترجع إلى حدث كبير كان قد غير منذ سنتين تاريخ أوروبا وقلب الاتجاه الذى سارت فيه حركة الطبقة العاملة إلى ذلك الوقت .

وإذا كان ماركس وإنجلز قد تنبآ أحياناً بأحداث لم تقع ، فقد فشلا أكثر من مرة فى التنبؤ بأحداث وقعت . وهكذا تنبأ ماركس أن حرب القرم ستقع وانضم إلى الجانب الخاسر فى الحرب البروسية النمساوية . بل لقد فاجأتهما الحرب البروسية النمساوية فى سنة ١٨٧٠ حين كانا لا يتوقعانها إطلاقا ، فقد ظلا سنوات عديدة وهما لا يقدران قوة بروسيا حق قدرها ؛ وكان الحلف الحقيقى بين « الكلبية » والقوة الوحشية يتمثل فى نظرهما فى امبراطور الفرنسيين . وأما بسمارك فكانا يريان فيه شخصا ذا كفاية من طبقة « اليونكرز » يخدم ملكه وطبقته ، وحتى انتصاره على النمسا لم يقنعهما بحقيقة صفاته ومراميه . وقد يكون ماركس قد خدع حقيقة إلى حد ما فيما ذكره بسمارك تبريرا للحرب من أنها كانت حرباً دفاعية بحتة من جانبه ، فهو لم يوقع على الاحتجاج الذى نشره « مجلس الدولية » إلا بعد أن عدل هذا الاحتجاج بحيث يوضح ذلك — وهو عمل لم يغفره له أبدا كثيرون من الاشتراكيين فى البلاد اللاتينية ، وأصروا فيما بعد على أن مبعثها فى نفسه كان مجرد شعور بالوطنية الألمانية ، وهو شعور كان هو وإنجلز يميلان إليه بوضوح . على أن مسلك « الدولية » بصفة عامة ، ومسلك أعضائها من الألمان بصفة خاصة ، طوال فترة الحرب القصيرة لم يكن عليه ما يؤخذ . فقد حذر « المجلس » ، فى البيان الذى نشره فى منتصف الحرب ، العمال الألمان من أن يؤيدوا سياسة الضم التى قد يتبعها بسمارك ، وأوضح فى عبارات جليه أن مصالح البروليتاريا الفرنسية والألمانية واحدة ، لا يهددهما سوى عدو واحد مشترك ، هو البورجوازية الرأسمالية فى كل من البلدين . فهى التى تسببت فى الحرب لتحقيق أهدافها الخاصة مضحية من أجل ذلك بحياة الطبقة العاملة فى فرنسا وألمانيا على السواء . واستطردت « الدولية » فى الوقت المناسب تحض العمال الفرنسيين على تأييد إنشاء جمهورية على أسس ديموقراطية واسعة . وفى غمرة الشعور القومى الاعتدائى الذى أثارته الحرب فى جميع أنحاء ألمانيا ، واكتسح أمامه حتى الجناح اليسارى من أتباع لاسال ، لم يبق هناك من احتفظ باتزانه سوى الماركسيين و « ليبخت » و « بيل » . فقد امتنعوا ، رغم امتعاض البلاد كلها وغضبها ، عن التصويت إلى جانب اعتمادات الحرب ، وتحدثوا بشدة فى الرايخستاغ ضد الحرب وبخاصة ضد ضم الألزاس واللورين . وقد اتهموا

من أجل ذلك بالخيانة وسجنوا . وقد بين ماركس فى خطاب مشهور كتبه إلى إنجلز ، أن هزيمة ألمانيا ، التى كان يترتب عليها تقوية البونابرتية وجعل العمال الألمان عاجزين سنوات عديدة بعدها ، ربما تكون أسوأ عاقبة من انتصارها . على أن بسمارك ، بنقله مركز الثقل من باريس إلى برلين ، كان يساعدهما عن غير وعى منه ، لأن العمال الألمان ، وهم أفضل تنظيما وتدريبا من الفرنسيين ، كانوا بالتالى حصنا أقوى للديموقراطية الاشتراكية من الفرنسيين ، بينما كانت هزيمة البونابرتية بمثابة زوال كابوس كان يهدد أوربا .

وهزم الجيش الفرنسى فى « سيدان » فى الخريف وأخذ الإمبراطور أسيراً وحوصرت باريس . وسرعان ما غير ملك بروسيا ، الذى كان قد أقسم أغلظ الإيمان على أن الحرب دفاعية وأنها ليست موجهة ضد فرنسا بل هى موجهة ضد نابليون ، أساليبه ، وطالب — بعد أن تسلح باستفتاء شعبى حماسى من شعبه — بضم الألزاس واللورين وبغرامة قدرها خمسة بلايين من الفرنكات يدفعها الفرنسيون . وتحول الرأى العام الإنجليزى ، الذى كان حتى ذلك الوقت يشايع الألمان ضد البونابرتية تحولا شديداً تحت تأثير التقارير المستمرة عن فظائع البروسيين فى فرنسا . وأصدرت « الدولية » بياناً ثانياً تحتج فيه بشدة على هذا الضم ، وتهاجم فى عنف الأطماع التوسعية لملك بروسيا ، وتدعو العمال الفرنسيين إلى الاتحاد مع جميع أنصار الديموقراطية ضد العدو البروسى المشترك . وكتب ماركس فى سنة ١٨٧٠ يقول : « إذا كانت الحدود ستحدد على أساس المصالح العسكرية ، فلن تكون هناك نهاية للمطالب ، لأن كل خط عسكرى يشوبه بالضرورة شىء من الضعف ويمكن تحسينه بإضافة بعض الأقاليم الأخرى التى تقع خارجه ! ولن يمكن أبداً استقرار الحدود نهائياً على أساس عادل ، إذ لابد أن يدخل عليها بعض التحسين من جانب المنتصر أو المهزوم ، ومن ثم فهى ستظل تحمل فى طياتها بذور حرب جديدة . وسيقرر التاريخ الجزاء على ذلك ، لا على أساس عدد من الأميال المربعة انتزعت من فرنسا ، ولكن عن أساس بشاعة جرم لايخرج عن أن يكون بمثابة إعادة الحياة إلى سياسة الغزو ، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر » . وفى هذه المرة لم يصوت ضد اعتمادات الحرب « ليبنخت » و« بيبل » وحدهما بل شاركهما فى ذلك أنصار لاسال

وهم فى خجل من وطنيتهم السابقة ، وكتب ماركس فرحا إلى إنجلز أنه لأول مرة تجد سياسته « الدولية » ومبادئها من يعبر عنها فى جمعية تشريعية أوروبية : لقد صارت « الدولية » قوة يجب أن يحسب لها حساب رسمياً ، وبدأ يتحقق حلم الحزب البروليتارى المتحد ذى الأهداف الموحدة فى جميع البلاد . وسرعان ما اضطرت باريس إلى الإستسلام تحت ضغط الجوع ، وانتخبت على أثر ذلك جمعية وطنية ، ونصب « تيير » رئيساً للجمهورية الجديدة ، فعين حكومة ذات نزعة محافظة . وفى مارس حاولت الحكومة تجريد « الحرس الوطنى الباريسى » من سلاحه ، وهو هيئة من المواطنين المتطوعين ظهر ما يدل على أن لهم ميولا راديكالية،ورفض الحرس تسليم سلاحه وأعلن استقلاله الذاتى وخلع الموظفين الرسميين التابعين للحكومة المؤقتة وانتخب لجنة ثورية من الشعب بوصفها الحكومة الحقيقية لفرنسا . وجىء بالجيش النظامى إلى فرساي فأحدق بالمدينة المتمردة . وكان ذلك أول حملة فيما أدرك الجانبان على الفور أنها حرب طبقية علنية .

ولم يكن « الكوميون » ، وهو ما وصفت به الحكومة الجديدة نفسها ، من صنع « الدولية » أو من إيحائها ؛ بل ولم يكن حتى اشتراكياً فى مبادئه بالمعنى الدقيق للكلمة ، إلا إذا كانت ديكتاتورية أية لجنة منتخبة انتخاباً شعبياً تعتبر فى ذاتها ظاهرة اشتراكية . وكان « الكوميون » يتكون من مجموعة من الأفراد غير المتجانسين إلى حد بعيد ، معظمهم من أتباع « بلانكى » وبرودون وباكونين مع خليط ممن لا ميزة لهم سوى الفصاحة ، مثل « فليكس بيا » الذى لم يكن يعرف سوى أنه يقاتل فى سبيل فرنسا والشعب والثورة ونادى بالموت لجميع الطغاة : القساوسة والبروسيين على السواء . واكتسحت الموجة الثورية المشتركة خليطاً من العمال والجنود والكتاب والرسامين ، مثل « كوربيه » ، ومن الأساتذة ، مثل الجغرافى «اليزيه ركلوس» والناقد «ڤاليه» ، ومن السياسيين ذوى الميول الغامضة مثل « روشفور» ، ومن المنفيين الأجانب ذوى الميول الراديكالية المعتدلة والبوهيميين والمغامرين من كل نوع . لقد قامت هذه الثورة فى لحظة من لحظات الهستيريا القومية على أثر البؤس المادى والمعنوى الذى نجم عن الحصار والتسليم ، فى لحظة كانت فيها الثورة القومية التى عقدت عليها الآمال للتخلص نهائياً من بقايا الرجعية

البونابرتية والأورليانية ، قد خانها « تيير » ووزراؤه ، وهجرتها الطبقات الوسطى ولم تعد واثقة من تأييد الفلاحين ؛ فإذا بها تبدو مهددة فجأة بعودة كل ما كانت تخشاه وتنفر منه ، قواد الجيش ورجال المال والقساوسة . لقد استطاع الشعب بمجهود كبير أن يتخلص أولا من كابوس الإمبراطورية ثم من كابوس الحصار ، ولم يكونوا قد أفاقوا تماما حين بدت الأشـــباح تتقدم نحوهم مرة أخرى : فلما تملكهم الذعر ثاروا . وكان هذا الشعور المشترك بالذعر من عودة الماضى يكاد يكون الرابطة الوحيدة التى وجدت بين أنصار « الكوميون » . أما آراؤهم فيما يتعلق بالتنظيم السياسى فقد كانت مبهمة إلى حد ما : فقد أعلنوا أن الدولة فى صورتها القديمة قد ألغيت ، وطالبوا الشعب المسلح أن يحكم نفسه بنفسه .

ولم يلبث أن نما الذعر بين الثوار عند ما بدأت مؤنهم تنفد وزادتهم ظروف الحصار سوءاً ويأساً . وبدأت الاضطهادات ، فحوكم رجال ونساء وأعدموا: بعضهم كان من غير شك بريئاً ، وقليلون منهم كانوا لا يستحقون الموت . وكان من بين أولئك الذين أعدموا أسقف باريس الذى احتجز رهينة ضد جيش فرسايل ، وجعلت بقية أوروبا تراقب هذه الأحداث البشعة بحنق واشمئزاز متزايدين ، وبدا أنصار « الكوميون » حتى للرأى العام المستنير ، بل حتى لأصدقاء الشعوب المخلصين من أمثال « لويس بلان » وما زينى ، عصابة من المجرمين المجانين الذين لا يستمعون إلى نداء الإنسانية ، وشرذمة من مشعلى الحرائق الاجتماعية الذين كرسوا أنفسهم لتدمير جميع الأديان والأخلاق ، رجال فقدوا عقولهم من جراء مظالم بعضها حقيقى وبعضها وهمى. فإذا هم يكادون يكونون غير مسئولين عن تصرفاتهم البشعة . وقد اتحدت جميع صحف أوروبا تقريباً ، الرجعية منها والمتحررة ، فى مهاجمتهم ، وإن كانت بعض الصحف الراديكالية ، هنا وهناك ، أقل شدة من الصحف الأخرى فى توجيه الاتهام إليهم ، ودافعت عنهم فى خجل واستحياء على أساس الظروف المخففة، بيد أن فظائع « الكوميون » لم تظل طويلا بلا جزاء ؛ فكانت العقوبة التى وقعها الجيش المنتصر على صورة إعدام جماعى ، وكان « الإرهاب الأبيض » ، كما هو الحال فى مثل هذه الظروف ، أشد كثيراً فى قسوته ووحشيته من أسوأ ما ارتكبه « الكوميون » من أعمال جاء الإرهاب الأبيض للقضاء عليها .

وتذبذبت « الدولية » ؛ فهى بتكوينها الذى يتألف أغلبه من المعادين لأتباع « بلانكى » ولليعقوبيين الحديثين الذين تتكون منهم أغلبية « الكوميون » ، قد عارضت برنامج « الكوميونيين » وخاصة التصرفات الإرهابية التى حدثت ، ونصحت رسمياً بعدم التمرد معلنة أن « أية محاولة لقلب الحكومة الجديدة فى الأزمة الحاضرة . تعد جنوناً لا أمل فى الشفاء منه » . وكان الأعضاء الإنجليز فى « الدولية » بصفة خاصة يرغبون فى عدم توريط أنفسهم بأن تكون لهم صلة صريحة بهيئة كانت تعد ، فى رأى معظم مواطنيهم ، عصابة من القتلة . وأراحهم ماركس من الشكوك التى ساورتهم بتصرف هو من صميم ما تميز به . فقد نشر باسم « الدولية » خطاباً أعلن فيه أن وقت التحليل والنقد قد فات . وبعد أن استعرض فى إيجاز سريع وبصورة واضحة الأحداث التى أدت إلى إنشاء « الكوميون » ، إلى ارتفاعه ثم سقوطه ، أعلن أن الكوميون هو أول استعراض فى التاريخ لقوة الطبقة العاملة ومثاليتها ، وأول معركة لا رحمة فيها تخوضها ضد مضطهديها على مرأى من العالم كله ، وهو حدث أرغم جميع أصدقائها المزيفين من الراديكاليين البورجوازيين ، والديموقراطيين ، والإنسانيين ، على رفع النقاب عن حقيقة أمرهم ، بوصفهم أعداء للأهداف النهائية التى تعيش الطبقة العاملة وتموت من أجلها . ومضى ماركس فى هذا الاتجاه أكثر من ذلك ، فأعلن أن « الكوميون » هو الصورة الانتقالية للبناء الاجتماعى الذى لا يستطيع العمال أن يحصلوا على حريتهم النهائية إلا إذا مروا بها . وإلى هذا الحد ، تراجع ماركس مرة أخرى ، كما حدث فى سنة ١٨٥٠ و ١٨٥٢ ، عن مبدأ من المبادىء التى جاءت فى « البيان الشيوعى » وهو المبدأ الذى يؤكد — على خلاف ماذهب إليه الطوبيون الفرنسيون والفوضويون الأول — أن الهدف المباشر للثورة ، ليس تدمير الدولة ، ولكن الاستيلاء عليها واستخدامها فى القضاء على العدو .

ولم يكن كتيّبه ، الذى عرف فيما بعد بعنوان « الحرب الأهلية فى فرنسا » ، مقصوداً به فى أول الأمر أن يكون دراسة تاريخية : فقد كان إجراء تكتيكيا اتسم بجرأته وعناده المعهودين . وقد تعرض ماركس للوم أحياناً من جانب أتباعه أنفسهم لأنه سمح بأن ترتبط « الدولية » فى نظر الناس بعصابة من الخارجين على

القانون والقتلة ، وهى الصلة التى نشأ عنها أن اكتسبت « الدولية » سمعة شريرة لا داعى لها . ولم يكن هذا بالاعتبار الذى يؤثر فيه على الأطلاق . فلقد كان طوال حياته يؤمن عن اقتناع لا هوادة فيه بثورة عنيفة تقوم بها الطبقة العاملة . وكان « الكوميون » أول ثورة تلقائية يقوم بها العمال بوصفهم عمالا : إذ كانت أحداث يونية سنة ١٨٣٨ فى نظره هجوماً عليهم وليست هجوماً منهم . ولم يكن « الكوميون » من وحى ماركس مباشرة . بل إنه كان يعده خطأ سياسياً . وظل خصومه من أتباع « بلانكى » و « برودون » يسيطرون عليه حتى النهاية ؛ ومع ذلك فإن مغزاه فى نظره كان عظيما . ولقد سبق « الكوميون » ولا شك عدة تيارات مبعثرة من الفكر والعمل الاشتراكى ؛ بيد أن هذه الفورة ، وما تمخضت عنه من آثار عالمية ، والأثر الكبير الذى كان لا بد أن تتركه فى العمال من جميع البلاد ، كانت أول حدث فى العهد الجديد . وكان الرجال الذين لقوا حتفهم فيها ومن أجلها أول شهداء الاشتراكيه الدولية ، وستكون دماؤهم بذور إيمان بروليتارى جديد : فأيا كانت الأخطاء المحزنة التى ارتكبها الكوميونيون وأيا كانت نقائصهم فإنها لا تقارن بضخامة الدور التاريخى الذى قام به هؤلاء الرجال وبالمكانة التى قدر لهم أن يحتلوها فى تاريخ الثورة البروليتارية .

فلما تقدم ماركس ليعترف بفضلهم كان يحقق ما كان يقصد أن يحققه : فقد ساعد بذلك على خلق أسطورة بطولية من الاشتراكية . وقد دافع لينين بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاماً عن اضطرابات موسكو ، التى حدثت إبان الثورة الروسية الفاشلة فى سنة ١٩٠٥ ، رداً على النقد الشديد الذى وجهه إليهما « بليخانوف » ، فاستشهد بموقف ماركس تجاه « الكوميون » مشيراً بذلك إلى أن القيمة العاطفية والرمزية لذكرى انفجار بطولى عظيم ، مهما كان سيئاً ومهما كانت نتائجه المباشرة ضارة ، لأعظم كثيراً ، وأدوم أثراً ، بالنسبة لحركة ثورية من الوقوف عند فشلها فى لحظة أهم شىء فيها ، ليس هو تدوين التاريخ تدويناً دقيقاً ، بل ولا الاعتداد بدروسه ، وإنما هو صنع التاريخ نفسه .

وقد تسبب نشر هذا الخطاب فى إحراج الكثيرين من أعضاء « الدولية » ، وكان

صدمة لهم كما عجل بحل الدولية نهائية . وحاول ماركس أن يستبق كل ما قد يوجه من لوم بأن كشف عن اسمه بوصفه الكاتب الوحيد للخطاب . وأصبح « الدكتور الإرهابي الأحمر » ، كما صار يعرف ، موضع سخط عام : فبدأت تصله خطابات غفل من الإمضاء ، وتعرضت حياته للتهديد أكثر من مرة . وقد كتب إلى انجلز فى مرح يقول : « إن هذا لما يفيدنى بعد عشرين عاماً طويلة ثقيلة قضيتها فى عزلة شاعرية كما تقضى الضفدعة حياتها فى مستنقع . ان لسان حال الحكومة — الأوبزرفر — تهددنى حتى بالاضطهاد . دعهم يحاولون ذلك ! . فأنا لا أعبأ بالأوغاد . وماتت الضجة حوله شيئاً فشيئاً ، ولكن الضرر الذى لحق « بالدولية » ظل قائماً ، فقد ارتبطت كل الارتباط منذ ذلك الوقت فى نظر البوليس والرأى العام بفظائع « الكوميون » . وكانت هذه ضربة للتحالف القائم بين زعماء الاتحادات العمالية الإنجليزية وبين « الدولية » ؛ ذلك التحالف الذى كان — من ناحية وجهة نظرهم — تحالفاً انتهازياً يعتمد على فائدته لهم فيما يحققه لهم من مصالح نقابية محددة. وكان حزب الأحرار فى ذلك الوقت يعمل بشدة على استرضاء الاتحادات العمالية عن طريق الوعود بتأييدها فى تحقيق هذه المصالح ذاتها . وهكذا أصبح الأمل فى غزو السلطة بوسائل سلمية محترمة سبباً فى أن زعماء العمال أصبحوا يتوقون ، أكثر من أى وقت مضى ، إلى قطع صلتهم بهذه المؤامرة الثورية التى اكتسبت سمعة سيئة ؛ إذ كان هدفهم الوحيد هو رفع مستوى المعيشة وتحسين الحالة السياسية والاجتماعية للعمال المهرة الذين يمثلونهم . ولم يكونوا يعتبرون أنفسهم حزباً سياسياً ، وإذا كانوا قد وافقوا على برنامج « الدولية » فإن مرد ذلك يرجع فى بعض نواحيه إلى مرونة دستورها الذى تجنب فى مهارة أن يقيد أعضاءها بأهداف ثورية محددة ، ويرجع فى أغلبه إلى غموض فكرتهم عن القضايا السياسية .

وقد قدرت الحكومة هذه الحقائق حق قدرها . فأعلنت على لسان وزير خارجيتها ، « لورد جرانفيل » ، رداً على منشور من الحكومة الاسبانية تطالب فيه بالقضاء على « الدولية » ، « أنه لا يوجد فى انجلترا خطر من قيام تمرد مسلح : فالأعضاء الإنجليز فى « الدولية » رجال مسالمون لا يشغل بالهم سوى التفاوض

فى شئون العمل ولا يسببون للحكومة أى قلق به » . وكان ماركس نفسه يدرك ذلك فى شئ من مرارة النفس : وحتى « هارنى » و « جونز » كانا فى نظره خيراً من أولئك الذين كان يتعين عليه أن يتعامل معهم الآن . موظفو اتحادات العمال الأقوياء من أمثال « ادجار » أو « كريمر » أو « ابلجرات » الذين لا يثقون فى الأجانب وكانت عنايتهم بما يقع خارج بلادهم ضئيلة ، ولا يهتمون كثيراً بالأفكار .

ولما كانت « الدولية » لم تعقد أية اجتماعات فى سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ فقد تقرر عقد اجتماع فى لندن فى سنة ١٨٧٢ . وكان أهم اقتراح نوقش فى المؤتمر هو أن العمال من الآن سوف يكفون عن الاعتماد على مساعدة الأحزاب البورجوازية فى نضالها السياسى ، وسوف يكونون حزباً خاصاً بهم ؛ وبعد مناقشات عنيفة ووفق على هذا الاقتراح بفضل أصوات المندوبين الإنجليز . ولم يؤلف الحزب السياسى الجديد إبان حياة ماركس ، ولكن حزب العمال ، على الأقل من ناحية الفكرة ، قد ولد فى هذا الاجتماع ؛ ويمكن اعتبار ذلك هو ماأسهم به ماركس كعمل بذاته فى التاريخ الداخلى للبلد الذى اتخذه وطناً له . وفى نفس الاجتماع أصر المندوبون الإنجليز على حقهم فى تكوين منظمة محلية منفصلة بدلا من أن يمثلهم « المجلس العام » كما كان الحال من قبل ، وقد نجحوا فى ذلك أيضاً . وقد أزعج ذلك ماركس وأخافه . فقد كانت فيه بادرة من عدم الثقة ، بل كاد يكون تمرداً ؛ وساورته الريب على الفور فى دسائس باكونين الذى كانت الأحداث الأخيرة فى فرنسا قد دفعت به إلى حالة من الجذل والفخر ، إذ شعر بأن هذه الحوادث إنما ترجع إلى نفوذه إلى حد كبير جداً . فلقد احترق جزء كبير من باريس إبان « الكوميون » وبدت له هذه النار رمزاً لحياته هو وتحقيقاً رائعاً لمفارقته المفضلة : « إن التدمير أيضاً ، نوع من الخلق » .

ولم يفهم ماركس ، ولا هو أراد أن يفهم ، الأساس العاطفى لتصرفات باكونين وتصريحاته ؛ لقد كان نفوذه خطراً يتهدد الحركة ، ومن ثم وجب القضاء عليه .

وقد كتب ماركس فى سنة ١٨٧١ يقول : « إن الدولية أسست لكى تقيم مكان الفرق الاشتراكية والشبيهة بالاشتراكية منظمة صادقة للطبقة العاملة فى نضالها . .

إن الطائفية الاشتراكية تتناسب تناسبا عكسيا مع أية حركة حقيقيةللطبقة العاملة. فالطوائف لاحق لهـا فى أن توجد إلا طالما كانت الطبقة العاملة لم تكتمل نضجا بحيث يكون لها حركة مستقلة خاصة بها ؛ أما فى اللحظة التى يكتمل فيها نضجها فإن الطائفية تصبح رجعية . . . إن تاريخ « الدولية » صراع لا ينقطع من جانب (المجلس العام) ضد هواة التجارب والطوائف ... وفى أواخر سنة ١٨٦٨ انضم باكونين إلى (الدولية) وكان هدفه أن ينشئ (دولية) داخل (الدولية) وأن يجعل من نفسه رئيسا لها . وكان برنامج باكونين (وهو خليط سخيف مكون من شذرات متفرقة من هنا وهناك من الآراء المأخوذة من « برودون » و « سان سيمون » .. الخ) بالنسبة له ذا أهمية ثانوية ، ولم يزل كذلك ، يستعمله وسيلة للحصول على النفوذ الشخصى والقوة لنفسه . بيد أنه إذا كان باكونين لا يساوى شيئاً بوصفه صاحب نظرية خاصة به ، فإنه بوصفه متآمرا ، قد بلغ ذروة مهنته . . . أما فيما يتعلق برأيه عن عدم المشاركة السياسية ، فإن كل حركة تعارض فيها الطبقة العاملة ، بوصفها هذا ، الطبقات الحاكمة وتباشر ضغطا عليها من الخارج هى حركة سياسية . . . أما عندما تكون منظمة العمال غير نامية إلى الدرجة التى تسمح لها بأن تخاطر بالدخول فى معركة حاسمة مع القوة السياسية المسيطرة — فعندئذ يجب عليها أن تستعد لذلك بالتظاهر المستمر ضد جرائم الطبقة الحاكمة وحماقاتها . وبغير ذلك تصبح ألعوبة فى يد الطبقة الحاكمة ، كما ثبت من ثورة سبتمبر فى فرنسا ، وكما ثبت إلى حد ما ، من النجاح الذى أصابه جلادستون وشركاؤه فى انجلترا » .

وكان باكونين فى هذه الفترة قد بدأ آخر وأغرب مرحلة من مراحل حياته . فقد وقع تماماً تحت تأثير إرهابى روسى شاب اسمه « نخاييف » ، وجد باكونين فى جرأته وعدم تقيده بأى وازع جاذبية لا تقاوم . وأرسل « نخاييف » ، الذى كان يؤمن بأن الابتزاز والتهديد سلاحان ثوريان رئيسيان تبررهما الغاية منهما ، إلى الناشر الذى كان يعتزم نشر ترجمة باكونين الروسية لكتاب « رأس المال » خطابا غفلا من الإمضاء يهدده فيه ، بعبارات عامة ولكنها عنيفة ، إذا هو استمر فى ازعاج العباقرة بطلباته أو ألح على باكونين برد مقدم الأتعاب الذى دفعه له .

وأرسل الرجل الخطاب إلى ماركس حانقا مذعورا . وإن المرء ليشك فيما إذا كانت الأدلة على مؤامرات منظمة باكونين — « الحلف الديموقراطى » — كافية وحدها لطرده من « الدولية » ، فقد كان باكونين يحظى بعدد كبير من المؤيدين فى مؤتمر « الدولية » ؛ ولكن تقرير اللجنة التى عهد إليها ببحث أمر هذه الفضيحة والطريقة المسرحية التى قدم بها خطاب « نخاييف » ، قلبت الوضع . وبعد اجتماعات طويلة هائجة ، اقتنع فى أثنائها حتى أتباع برودون بأنه ما من حزب يستطيع الاحتفاظ بوحدته طالما باكونين موجود بين صفوفه ، طرد هو وأقرب شركائه بأغلبية ضئيلة .

وجاء اقتراح ماركس الثانى أيضا قنبلة بالنسبة لأعضاء المؤتمر الذين فوجئوا به ، وكان اقتراحا بنقل مركز « المجلس » إلى الولايات المتحدة . وأدرك كل إنسان أن هذا سوف يكون بمثابة حل « للدولية » . فأمريكا لم تكن بعيدة كل البعد عن الشئون الأوربية فحسب بل كانت كذلك لا تعنى شيئاً بالنسبة « للدولية » . وأعلن المندوبون الفرنسيون أن ذلك يعد بمثابة نقل « المجلس » إلى القمر . ولم يبد ماركس أى تعليل صريح لهذا الاقتراح الذى تقدم به إنجلز رسميا ، ولكن لابد أن الغرض منه كان مع ذلك واضحا للجميع ، فهو لم يكن يستطيع أن يعمل دون الطاعة المخلصة العمياء من جانب بعض طوائف الهيئة التى كان يتحكم فيها على الأقل : إن انجلترا كانت قد انسحبت ؛ وقد فكر فى نقل المجلس إلى بلجيكا ، ولكن هناك أيضا كان يوجد عنصر مضاد للماركسية بلغ حدا كبيرا من القوة ، وفى ألمانيا سوف تقضى عليها الحكومة ؛ ولم يكن الاعتماد على فرنسا أو هولندا أو سويسرا مما يوثق فيه ؛ وكانت إيطاليا وأسبانيا معقلين باكونينيين لاشك فيهما . ومن ثم فقد قرر ماركس ، بعد أن أطمأن إلى أن الدولية لن تقع فى أيد باكونينية ، أنه من الأفضل أن يترك « الدولية » تموت فى هدوء من أن يواجه نضالا مريرا لا ينتهى على أحسن الحالات إلا إلى نصر تافه وسوف يقضى على أى أمل فى وحدة البروليتاريا لعدة أجيال .

ويقول أعداء ماركس إنه كان يحكم على قيمة كل الجمعيات الاشتراكية على أساس معيار واحد هو : إلى أى حد يُسمح له شخصيا بالسيطرة عليها . ومما

لا ريب فيه أن هذا الرأى كونه هو وإنجلز معاً بطريقة آلية كما لو كان معادلة حسابية ؛ ولم يبد على أى منهما ما يدل على أنهما قد أدركا الحنق والذهول اللذين أثارهما هذا الاتجاه فى فرق كبيرة من أتباعهما . وكان ماركس قد حضر مؤتمر لاهاى بنفسه ، وكان تأثيره فيه كبيرا إلى حد أنه ، رغم المعارضة العنيفة التى قوبل بها الاقتراح ، وافق المؤتمر فى النهاية بأغلبية ضئيلة جداً على أن يضع فى الواقع حداً لحياته بنفسه . فكانت اجتماعاته التالية تقليداً كئيباً : وأخيراً لفظ أنفاسه فى فيلادلفيا فى سنة ١٨٧٦ . وقد أعيد إنشاء « الدولية » بعد ذلك بثلاثين عام ، ولكنها عندما أعيدت وكانت الفترة وقتئذ فترة لنشاط اشتراكى متزايد فى جميع البلاد — كان طابعها قد تغير كثيراً . فعلى الرغم من أهدافها الثورية الصريحة كانت أقرب إلى الروح البرلمانية وأكثر احتراساً وأكثر تفاؤلا وأميل ، بصفة خاصة ، إلى التفاهم من سابقتها ؛ كما كانت قد ارتبطت إلى حد كبير جداً بحتمية التطور التدريجى للمجتمع الرأسمالى إلى اشتراكية معتدلة بتأثير الضغط المستمر من أسفل ، وإن كان ضغطاً سلبيا

الفصل الحادى عشر

السنوات الأخيرة

« قلت (لماركس) : إنى كلما تقدمت بى السن، صرت أكثر تسامحا » ، فقال: «هل حدث هذا حقا ..
هل حدث ؟ »

ﻫ . م هيندمان « سجل لحياة مغامرة »

كانت المبارزة مع باكونين آخر حدث عام فى حياة ماركس . فقد بدا أن الثورة قد خمدت فى كل مكان ، على الرغم من أن قبسا منها كان لايزال يومض وميضا باهتا فى روسيا وأسبانيا . وصحيح أن الرجعية عادت منتصرة مرة أخرى، وإن كان بصورة أكثر اعتدالا مما كانت ، أيام صباه ، وعلى استعداد لأن تسلم ببعض مطالب معينة لخصمها ؛ ولكنها بدت فى الوقت نفسه أكثر رسوخا لهذا السبب نفسه وبدا الانتصار السلمى على الرقابة السياسية والاقتصادية أكبر أمل للعمال لتحرير أنفسهم ؛ وتزايد نفوذ أتباع لاسال باستمرار فى ألمانيا واضطر «ليبنخت» ، الذى كان يمثل المعارضة الماركسية ، إلى الاتفاق معهم بعد أن انهارت « الدولية » ، بغية تأليف حزب موحد متحد . وكان « ليبنخت » مقتنعا بأن وجوده داخل ألمانيا يمكنه من معرفة المقتضيات التكتيكية أكثر من ماركس وإنجلز اللذين استمرا يعيشان فى انجلترا ورفضا أن يستمعا لأية نصيحة بالتفاهم . وفى آخر الأمر عقد الحزبان مؤتمراً فى « جوتا » سنة ١٨٧٥ وكونا حلفا وأصدرا برنامجاً مشتركا وضعه زعماء الفريقين . وقد عرض البرنامج بطبيعة الحال على ماركس للموافقة ، ولكن ماركس ردّ بما لايدع مجالا للشك فى رأيه فيه .

فقد أرسل على الفور خطابا عنيف اللهجة إلى « ليبنخت » فى برلين ، كما أصدر تعليماته إلى إنجلز بأن يكتب إليه بلهجة مماثلة . واتهم أتباعه فى ألمانيا بأنهم ضلوا باستعمالهم الاصطلاحات المضللة — التى تكاد تكون بلا معنى — التى خلفها لاسال

و « الاشتراكيون الحقيقيون » والتى تتخللها تلك العبارات التحررية المبهمة التى قضى نصف عمره يندد بها ويحاول القضاء عليها . وبدا له أن البرنامج نفسه قد تسللت إليه روح المساومة على بعض المبادىء ، وأنه يقوم على إمكان تحقيق العدالة الاجتماعية عن طريق الإلحاح السلمى فى المطالبة بتحقيق بعض الأهداف التافهة ، مثل مكافآت « عادلة » للعمل ، ومثل إلغاء قانون المواريث ، وما إلى هذا وذاك من العلاجات التى نادى بها « برودون » ، « وسان سيمون » لرفع هذه المظلمة أو تلك ؛ علاجات قصد بها أن تعين الرأسمالية بدلا من أن تعمل على الإسراع بتقويضها . وسرد لآخر مرة ، فى عبارات غاضبة لاتقبل مناقشة ، مفهومه هو عما يجب أن يكون عليه برنامج حزب اشتراكى نظم على أسس صارمة . وتلقى « ليبنخت » المخلص ذلك ، كما يتلقى كل شىء آخر يأتيه من لندن ، فى خضوع بل وفى تقديس ، ولكنه لم ينفذ شيئا مما جاء به واستمر التحالف وزادت قوته. وقد تعرض « ليبنخت » بعد ذلك للنقد الشديد مرة أخرى من جانب إنجلز الذى كان رأيه فى قدرته السياسية أسوأ حتى من رأى ماركس فيه . وكان السبب فى هذه المناسبة ظهور مقالات على صفحات جريدة « الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى » الرسمية بقلم شخص اسمه « يوجين دورينج » وتأييداً له . وكان يوجين دورينج ، وهو محاضر فى علم الاقتصاد بجامعة برلين ، رجلا تحررياً شديد العداء للرأسمالية — وإن كان من الصعب أن توصف وجهة نظره بأنها اشتراكية — وكان يكسب نفوذا متزايدا فى صفوف الحزب الألمانى . وقد نشر إنجلز فى هجومه عليه أطول مؤلفاته وأكثرها شمولا ، وهو آخر ما كتبه بالتعاون مع ماركس ؛ وقد تضمن شرحا يعد مرجعا فى النظرية المادية فى التاريخ ، صيغ بذلك الأسلوب الصريح ، الواضح ، الملىء بالحيوية الذى كان إنجلز يكتب به فى يسر وسهولة . وكان كتاب « المضاد لدورينج » ، كما أطلق على هذا المؤلف فيما بعد ، هجوما على المادية اليقينية اللاجدلية ، التى كانت تحظى وقتئذ بانتشار متزايد بين الكتاب العلميين والصحفيين ، وهى المادية التى تذهب إلى أن جميع الظواهر الطبيعية يمكن تفسيرها على ضوء حركة المادة فى الفراغ . وقد قدم إنجلز ، ردا على هذه النظرة ، مبدأ التطبيق الشامل للمبدأ الجدلى الذى يعمل على نطاق أوسع بكثير من نطاق التاريخ البشرى فى ميادين علم الحياة والطبيعة والحساب . وكان إنجلز رجلا متعدد الجوانب واسع

الاطلاع ، وقد استطاع أن يحصل ، باجتهاده المحض ، على معرفة أولية بتلك الموضوعات ؛ بيد أن حججه فيها كانت سيئة الحظ إلى حد كبير جداً وبصفة خاصة محاولته الموغلة فى طموحها لاكتشاف طريقة عمل « ثالوث » (١) الجدلية الهيجيلية فى القاعدة الحسابية التى يكون بمقتضاها نتاج كميتين سلبيتين إيجابياً ، مصدراً لإحراج الماركسيين الذين جاءوا فيما بعد ووجدوا أنفسهم مطالبين بمهمة مستحيلة هى الدفاع عن وجهة نظر غريبة لم يؤكدها ماركس مطلقاً ، على الأقل فى كتاباته المنشورة . إن علم الحساب الماركسى فى وقتنا الحاضر ، مثل علم الطبيعة الديكارتى ، يشبه جزيرة غريبة معزولة فى غمار تطور حركة فكرية عظمى ، أهميته فى كونه أثراً من الآثار القديمة أكثر منها أهمية علمية . ولعل ماركس عندما قال فى أخريات أيامه إنه قد يكون أى شئ ولكنه بالتأكيد ليس ماركسياً كان يفكر فى مثل هذا الشرود . وتختلف الفصول التى أعيد طبعها فيما بعد على هيئة كتب تحت عنوان « التطور من الاشتراكية المثالية الحالمة إلى الاشتراكية العلمية » عن ذلك اختلافاً بيناً . فقد ضمنه إنجلز خير ماعنده ، وهو يتتبع نمو الماركسية من أصولها فى المثالية الألمانية والنظرية السياسية الفرنسية والعلوم الاقتصادية الإنجليزية .

وما زال هذا الكتيب أفضل شرح مختصر للماركسية بيد أحد منشئيها ، ولا يعلو عليه شئ حتى فى مؤلفات ذلك الداعية الروسى « بليخانوف » الذى يعد ألمع من كتبوا عن الماركسية بعد ذلك وأكثرهم تعدداً فى جوانب معرفته .

وكان الهجوم على برنامج « جوتا » آخر تدخل عنيف من جانب ماركس فى شئون الحزب . ولم تحدث بعد ذلك فى حياته أزمات أخرى مشابهة ، بل ترك حراً يكرس السنوات الباقية للدراسات النظرية ولمحاولة استعادة صحته المتدهورة دون جدوى . وقد انتقل من « كنتيس تاون » إلى منزل فى « هافرستوك هيل » ثم إلى منزل آخر فى نفس الجهة لا يبعد كثيراً عن منزل إنجلز الذى باع نصيبه فيما ورثه فيه إلى شريكه وأقام فى لندن فى منزل كبير مريح فى « سان جونزوود » . وكان قد خصص قبل ذلك بسنة أو سنتين دخلا سنوياً ثابتاً لماركس جعل فى مكنته ، رغم ضآلته ، أن يتابع عمله فى سلام . وكانا يتقابلان كل يوم تقريباً

---

(١) القضية والنقيضة والمركبة .

ويعدان معاً عدداً هائلا من المراسلات للاشتراكيين فى كل مكان ، الذين أصبح كثير منهم يضعونهما موضع الاحترام والتبجيل . وكان ماركس قد صار فى ذلك الوقت المرجع الفكرى والمعنوى الأعلى بلا منازع للاشتراكية الدولية ؛ إذ أن لاسال وبرودون كانا قد توفيا فى الستينيات ومات باكونين معدماً فى سنة ١٨٧٦ ولم يصدر من ماركس أى تعليق عام بمناسبة موت عدوه الكبير ؛ ولعل ذلك راجع إلى أن تأبينه الجاف ابرودون فى إحدى الصحف الألمانية أثار موجة من الحنق بين الاشتراكيين الفرنسيين فرأى أنه من الخير أن يظل صامتاً . إن مشاعره نحو خصومه ، الأحياء منهم والأموات ، لم تتغير ، ولكنه كان أقل قدرة ، من الناحية الجسمانية ، على القيام بتلك الحملات النشطة التى كان يقوم بها فى شبابه وفى أواسط العمر ؛ فقد هدم العمل المرهق والفقر قوته فى آخر الأمر ؛ لقد كان مجهداً ، كثير المرض ، وبدأت حالته الصحية تشغله . وكان يذهب كل عام ، تصحبه ابنته الصغرى « اليانور » عادة ، إلى شاطىء البحر فى انجلترا أو إلى أحد منتجعات المياه المعدنية فى ألمانيا أو بوهيميا حيث يقابل من وقت لآخر بعض أصدقائه وأتباعه القدامى الذين كانوا يحضرون معهم أحياناً مؤرخين أو علماء اقتصاد من الشبان تحدوهم الرغبة فى مقابلة الثورى المعروف .

ولم يكن يتحدث عن نفسه أو عن حياته إلا نادراً ، ولم يتحدث أبداً عن أصله . فلم يشر مطلقاً هو أو إنجلز إلى أنه يهودى الأصل . وكانت إشاراته عن الأفراد اليهود ، وخاصة فى خطاباته إلى إنجلز ، شديدة اللهجة إلى حد ما : فقد كان أصله اليهودى وصمة شخصيته له لا يسعه أن يتجنب الإشارة إليها عندما يتحدث عن غيره . وكذلك كان إنكاره لأهمية الفوارق العنصرية وتأكيده للطابع الدولى للبروليتاريا تسرى فيهما نغمة تتسم بحدة غريبة ، إذ هما موجهان ضد أخطاء هو نفسه ضحية من أبرز ضحاياها ـ وزاد ضيق صدره ونفاذ صبره مع تقدمه فى السن . فبذل غاية جهده لتجنب صحبة الأشخاص الذين يضايقونه أو يختلفون معه فى الرأى . وصار يزداد حدةً فى علاقاته الشخصية شيئاً فشيئاً ؛ وقد قطع علاقته بواحد من أقدم أصدقائه ، هو الشاعر « فرايليجراث » ، بعد قصائده الوطنية الحماسية فى سنة ١٨٧٠ ؛ وأهان عمداً أحد أنصاره المخلصين « كوجلمان » ، الذى كان

ماركس قد كتب إليه بعضاً من أهم خطاباته ؛ لأن « كوجلمان » أصر على أن يلحق به فى كارلسباد بعد أن كان ماركس قد أعلن أنه لا يريد صحبة أحد . ومن ناحية أخرى كان سلوكه ، إذا عومل بلباقة ، ودوداً بل وكريماً ، وبخاصة مع الثوريين الشبان والصحفيين الراديكاليين الذين جاءوا إلى لندن فى أعداد متزايدة ليقدموا احترامهم الرجلين المسنين . فكان هؤلاء الحجاج يقابلون بترحاب فى منزله ، وعن طريقهم أنشأ صلات مع أتباعه فى بلاد لم يكن له بها علاقة من قبل،وخاصه مع روسيا حيث بدأت أخيراً حركة ثورية نشطة منظمة تنظيما حسناً . وكانت كتاباته الاقتصادية ، وخاصة « رأس المال » قد لقيت نجاحاً فى روسيا أكثر مما لقيت فى أى بلد آخر . ومن سخرية الأقدار أن الرقيب سمح بنشره على أساس أن « الكتاب رغم روح الاشتراكية الواضحة التى تسرى فيه — فإن أسلوبه مما لا يستطيع العامه فهمه . . . وليس من المحتمل أن يجد قراء كثيرين بين جمهرة الشعب » . وكان التنويه عنه فى الصحافه الروسية أكثر استحساناً ونفاذاً مما كتب فى أية صحف أخرى ، الأمر الذى كان مدعاة لدهشته وسروره وجعله يغير موقف الازدراء الذى كان يقفه من « الروسيين الأفظاظ » إلى إعجاب بالجيل الجديد من الثوريين الحازمين غير الهيابين الذين تعلموا كثيراً من كتاباته .

وتاريخ الماركسية فى روسيا يختلف عنه فى أى بلد آخر ، فبينما كانت الماركسية فى ألمانيا وفرنسا ، على خلاف صور « اليقينية » و « المادية » الأخرى ، حركة بروليتارية فى أساسها تدل على شعور بالاشمئزاز الشديد ضد عدم جدوى المثالية البورجوازية فى النصف الأول من القرن ، كما تمثل حالة مزاجية من خيبة الأمل والواقعية ؛ فإن الأمر فى روسيا حيث كانت البروليتاريا لا تزال ضعيفة هزيلة إذا قيست بالمعايير الغربية ، كان غير ذلك ، فلم يكن رسل الماركسية وحدهم من مثقفى الطبقة الوسطى ، بل معظم معتنقى الماركسية كانوا من مثقفى تلك الطبقة كذلك ، إذ أصبحت الماركسية بالنسبة لها نوعاً من الرومانسية أو صورة من المثالية الديموقراطية جاءت متأخرة ثم نمت إبان أن كانت الحركة الشعبية فى ذروتها — وهى الحركة التى دعت إلى ضرورة التوافق الذاتى الشخصى مع الشعب وحاجاته المادية لكى يتيسر فهمه وتعليمه ورفع مستواه الفكرى والاجتماعى ؛

بذلك أضحت الماركسية موجهة على السواء ضد الحزب الرجعى المعادى للغرب بإيمانه الصوفى بالحكم الفردى المطلق والكنيسة الأورثوذكسية والنبوغ السلافى من ناحية ، وضد التحررية الزراعية المعتدلة التى نادى بها ذوو الميول الغربية من مثال « تورجنيف » و « هيرزن » من ناحية أخرى.

وصادف ذلك الوقت الذى طرح فيه الشبان الأثرياء فى موسكو وبطرسبرج ، وخاصة النبلاء والأشراف « التائبون » من الشباب ، مستقبلهم ومراكزهم جانباً ، وقد أثقل كواهلهم عبء الإحساس « بالإثم الاجتماعى » وانغمسوا فى دراسة ظروف حياة الفلاحين وعمال المصانع وذهبوا ليعيشوا بينهم بنفس الحماسة النبيلة التى سار بها أجدادهم وآباؤهم وراء باكونين و « الديسمبريين » (١) . وقامت دعوة تتسم بالعاطفة وإنكار الذات تدعو إلى المادية التاريخية والسياسية — مع توكيد الواقع الاقتصادى المحدد الوضع بوصفه أساسا للحياة الاجتماعية الفردية ، ونقد الأنظمة والتصرفات الفردية على ضوء علاقتها بالرخاء المادى للجمهورة الشعبية وتأثيرها فيه ، وكراهية الفن لذاته والحياة لذاتها وازدرائهما طالما كانا منعزلين فى برج عاجى بعيداً عما يعانيه العالم . وقد قال « شرنيشفسكى » : « إن زوجاً من الأحذية لهو أهم من مسرحيات شيكسبير كلها » معبراً بذلك عن حالة مزاجية عامة . وقد أشاعت الماركسية فى هؤلاء الرجال إحساساً بالتحرر من الشكوك والبلبلة ، بأن هيأت لهم لأول مرة تفسيراً منظماً لطبيعة نمو المجتمع وقوانينه فى عبارات عادية واضحة : وبدا أسلوبها القاطع شيئاً حصيفاً متألقاً بعد قومية أنصار الوحدة السلافية الرومانسية وأسرار المثالية الهيجيلية المنمقة . وكانت هذه الحالة تشبه الإحساس الذى ساور ماركس نفسه بعد قراءته كتابات فيورباخ قبل ذلك بأربعين سنة ؛ فقد أثارت فيه نفس الإحساس بأن الحلول التى تقدمها نهائية وبأن إمكانيات العمل على أساسها لا حدود لها . ولم تكن روسيا قد تعرضت لفظائع سنة ١٨٤٩ ، إذ أن نموها كان متأخراً عن الغرب كثيراً ، وكانت مشاكلها فى السبعينيات والثمانينيات تشبه من عدة نواح تلك التى واجهتها بقية أوروبا قبل ذلك بنصف قرن . وقد قرأ الراديكاليون الروس « البيان الشيوعى » وصفحات « رأس المال »

(١) الديسمبريين نسبة إلى الجماعة التى قامت بمؤامرات ديسمبر سنة ١٨٢٥ فى روسيا .

بنفس الإحساس الطروب الذى كان الناس يقرءون به روسو فى القرن السابق ؛ ووجدوا فيهما الشيء الكثير مما ينطبق بصورة غير عادية على ظروفهم ، فلم يحدث فى أى مكان آخر أن كان « التحول الرأسمالى فى عملية الإنتاج » فى الزراعة كما فى الصناعة ، معناه استشهاد المنتج ؛ أو كانت أدوات العمل وسائلا لإخضاع العامل واستغلاله وإفقاره ؛ أو كان الوضع الاجتماعى وتنظيم عملية العمل وسيلة محكمة لسحق حيوية الفرد وحريته واستقلاله ، صحيحاً بأكثر مما كان فى روسيا . وإن لم يكن الأسلوب فى روسيا محكما، بل كان بسيطاً ، وخاصة بعد أن أدى تحرير رقيق الأرض إلى زيادة العرض فى سوق الأيدى العاملة زيادة هائلة .

ودهش ماركس إذ رأى أن هذا الشعب الذى كتب وتكلم ضده قرابة ثلاثين عام قد أخرج له أذكى تلامذته وأجرأهم . فرحب بهم فى منزله فى لندن ودخل فى مراسلات منتظمة مع «دانيلسون» مترجم كتبه و «سيبر» ، وهو واحد من أقدر الاقتصاديين الروسيين . لقد كان الجزء الأكبر من تحليل ماركس منصباً على المجتمعات الصناعية ؛ أما روسيا فهى دولة زراعية ، وأية محاولة لتطبيق مذهب أعد لمجموعة معينة من الظروف على مجموعة أخرى تطبيقاً مباشراً لابد أن تؤدى إلى الخطأ عمليا ونظرياً . وجاءته خطابات من « دانيلسون » فى روسيا ومن المنفيين « لافروف زاسوليخ » و « فيرازاسوليخ » يتوسل فيها أصحابها إليه أن يوجه اهتمامه إلى المشاكل النوعيه الناجمة عن التنظيم الغريب الخاص بالفلاحين الروس فى جماعات بدائية تملك الأرض مشاعاً ، وأن يقول رأيه بصفة خاصة فى بعض المقترحات المستمدة من « هيرزن » و « باكونين » التى حظيت بانتشار كبير بين الراديكاليين الروس والتى تؤكد أن الانتقال المباشر من مثل هذه الجماعات إلى الشيوعية المكتملة أمر ممكن دون ضرورة للمرور فى مرحلة التصنيع وسكنى المدن كما حدث فى الغرب . وكان ماركس فى الماضى ينظر إلى هذا الرأى بازدراء ويراه صادراً عن تصور سلافى عاطفى ، عن الفلاحين متنكر فى صورة راديكالية ومقرون باعتقاد طفولى بأنه « من الممكن الاحتيال على الجدلية بوساطة قفزة جريئة بقصد تجنب المراحل الطبيعية للتطور أو تنحيتها شيئاً فشيئاً عن العالم بوساطة التشريع » . أما الآن فقد أصبح متأثراً بجدية اشتراكية الجيل الجديد من

الثوريين الروس وذكائهم وفوق كل شيء آخر ، بإخلاصهم وتعصبهم إلى درجة جعلته يعيد النظر فى الموضوع . ولكى يفعل ذلك بدأ يدرس الروسية : وفى ستة أشهر كان قد عرفها بالقدر الذى يكفى لقراءة الأبحاث العلمية والتقارير الحكومية التى نجح أصدقاؤه فى تهريبها إلى لندن . وكان إنجلز ينظر إلى هذا التحالف الجديد بشيء من النفور : إذ كان ينفر نفوراً لا علاج له من كل شيء يأتى من شرقى « الألب » . وقد شك الآن فى أن ماركس إنما ابتكر هذه المهمة الجديدة لكى يخفى عن نفسه تردده فى تكملة كتابة « رأس المال » بسبب الإرهاق الجسمانى البحت. وبعد أن تلمس ماركس طريقه بين كتلة هائلة من المادة الإحصائية والتاريخية ، كتب خطابين طويلين تضمنا تنازلات مذهبية كبيرة . فأقر بأنه إذا كانت الثورة فى روسيا هى الإشارة لثورة عامة للبرليتاريا الأوروبية بأكملها ، فإن مما يمكن تصوره ، بل إن من المرجح ، أن تقوم الشيوعية فى روسيا مباشرة على الملكية المشاعة شبه الاقطاعية لأراضى القرية ، على نحو ما كان عليه الحال فى روسيا فى ذلك الوقت ، وإن كان هذا لا يمكن أن يتحقق إذا استمرت الرأسمالية بين جيرانها الأقربين ؛ إذ أن ذلك سوف يرغم روسيا بالضرورة دفاعاً عن نفسها فى الناحية الاقتصادية على السير فى الطريق الذى سارت فيه قبلها دول الغرب الأكثر تقدماً .

ولم يكن الروسيون هم الوحيدين الذين اعترفوا بفضل المنفيين المقيمين فى لندن ، وقدموا لهما فروض الطاعة : فلقد كان الزعماء الشبان « للحزب الديموقراطى الاشتراكى الألمانى » الجديد ، « بيبل » و « برنشتايين » و « كاوتسكى » يزورون ماركس ويستشيرونه فى جميع المسائل الهامة ، كذلك كانت ابنتاه الكبريتان متزوجتين باثنين من الاشتراكيين الفرنسيين فجعلتاه على صلة بالبلاد اللاتينية . وعرض عليه مؤسس الحزب الديموقراطى الاشتراكى الفرنسى « جولز جيزو » برنامج حزبه فأدخل عليه تعديلات أساسية ، يضاف إلى ذلك أن الماركسية بدأت تتغلب على فوضوية باكونين فى إيطاليا وسويسرا . كما جاءت من الولايات المتحدة أخبار مشجعة . وإن كان خير ما جاءه من الأنباء الطيبة من ألمانيا ، حيث كان عدد الأصوات الاشتراكية يتزايد بسرعة رغم

قوانين بسمارك المناهضة للاشتراكية . وكان البلد الأوروبى الكبير الوحيد الذى ظل بمعزل عنه لا يعير تعاليمه أى اهتمام هو نفس البلد الذى عاش فيه واتخذ منه وطنا ثانياً . وقد كتب يقول فى ذلك « إن الرخاء الطويل فى انجلترا قد أفسد معنويات العمال ... وأصبح يبدو أن الهدف النهائى لهذا البلد الضالع فى بورجوازيته هو خلق ارستقراطية بورجوازية وبروليتاريا بورجوازية إلى جانب الطبقة البورجوازية ... إن الطاقة الثورية لدى العمال البريطانيين قد تسللت من نفوسهم .. وسوف يتطلب الأمر وقتاً طويلا منهم لكى يتخلصوا من العدوى البورجوازية التى أصابتهم . . . إن ما ينقصهم إنما هو معدن العرائضيين القدامى » . والواقع أن ماركس لم يكن له أصدقاء مقربين من بين الإنجليز ، وكانت علاقته مع مريديه من أمثال « بيزلى » أو « بلفورت باكس » لا تخرج أبدا عن حدود الرسميات ، وإن كان فى الواقع قد سمح لمؤسس « الاتحاد الديموقراطى الاشتراكى » ه . م . هيندمان الذى بذل جهوداً كبيرة فى نشر الماركسية فى انجلترا بالتقرب منه لفترة قصيرة فى السنوات الأخيرة من حياته . وكان « هيندمان » رجلا سهل المعاملة واسع الصدر ، وراديكاليا حقيقيا بطبيعته ، ومحدثا طريفا مؤثراً ، وكاتبا ممتازا فى الموضوعات السياسية والاقتصادية . وكان هاويا مرح النفس ، من ثم فإن مقابلة النابغين ومحادثتهم كانت دائماً مصدر متعة له . ولما كان غير متزمت فى ذوقه فإنه سرعان ما هجر مازينى إلى ماركس . وقد وصف ماركس فى مذكراته فقال : « كان أول انطباع لدى عن ماركس عندما رأيته أنه رجل عجوز قوى الشكيمة ، أشعث المظهر ، ينقصه الترويض ، مستعد للعراك يتشكك دائماً فى أن هجوما سوف يوجه إليه ؛ ومع ذلك فإن ترحيبه بنا كان لطيفا . . . فلما تحدث هذا المحارب العجوز فى حنق وحشى عن سياسة حزب الأحرار ، وخاصة فيما يتعلق بإيرلندا ، قطب جبينه وظهرت على وجهه وأنفه القويين العريضين علامات التأثر والانفعال ، وانطلق من فمه سيل من عبارات التنديد القوى كشفت فى وقت واحد عن حدة طبعه وعن تمكنه الممتاز من لغتنا . ولقد كان التناقض بين حاله وطريقة حديثه وهو ثائر غاضب على هذا النحو ، وبين موقفه وهو يدلى بآرائه فى الأحداث الاقتصادية الجارية واضحاً كل الوضوح . فقد تحول من دور النبى الذى يدحض باطل عدوه إلى دور الفيلسوف الهادىء دون أن يتكبد فى ذلك جهدا ، وأحسست

بأن سنوات عديدة طويلة لابد أن تنقضى قبل أن يتغير موقفى منه ، موقف التلميذ فى حضرة أستاذه » .

وكان من أثر إخلاص « هيندمان » وبراعته وأسلوبه الوديع اللين ، وفوق هذا وذاك ، إعجابه المفرط بماركس ، حتى أطلق عليه بسطحيته المعهودة ، « أرسطو القرن التاسع عشر » ، أن جعل ماركس يعامله سنوات عديدة بصداقة واضحة وبكثير من التسامح . وجاءت القطيعة التى كان لابد منها حول كتاب « هيندمان » « انجلترا للجميع » ، الذى لا يزال واحدا من خير المؤلفات المبسطة عن الماركسية ، التى ظهرت فى انجلترا . فقد أغفل « هيندمان » الاعتراف فى هذا الكتاب بفضل ماركس بالاسم ، وحاول أن يفسر ذلك تفسيراً أعرج فى عبارته : « إن الإنجليز لا يحبون أن يعلمهم الأجانب ، كما أن اسمك مكروه جداً هنا ... » . وكان فى ذلك الكفاية . فلقد كان ماركس عنيفاً فى كراهيته للانتحال : ولقد قاسى لاسال كثيراً لأسباب أقل من ذلك كثيراً ؛ وقطع علاقته بهيندمان على الفور ومعها آخر صلة له بالاشتراكية الإنجليزية .

ولم يكن قد غير أسلوبه فى الحياة إطلاقا فظل يستيقظ فى السابعة ويشرب عدة فناجين من القهوة السوداء ، ثم يذهب إلى حجرة مكتبه حيث يقرأ ويكتب حتى الساعة الثانية بعد الظهر . وبعد أن يتناول وجبة الغذاء على عجل يعود إلى العمل ثانية حتى وجبة المساء التى كان يتناولها مع عائلته . وبعد ذلك يتريض سيراً على الأقدام فى « هامبستدهيث » أو يعود إلى مكتبه حيث يعمل حتى الثانية أو الثالثة صباحاً . وقد ترك زوج ابنته « بول لافارج » ، وصفاً لحجرة مكتبه فقال :

« كانت تقع فى الدور الأول ، تضيئها إضاءة جيدة نافذة تطل على الحديقة . وكانت المدفأة تقوم فى مواجهة النافذة وتحيط بها أرفف كتب فوقها ألوان من الجرائد والمخطوطات ترتفع إلى السقف ، وإلى أحد جانبى النافذة منضدتان محملتان كذلك بالأوراق والجرائد والكتب من مختلف الأشكال والأنواع . وفى وسط الغرفة تقوم منضدة صغيرة بسيطة للكتابة ومقعد من طراز « ويندسور » مصنوع كله من الخشب . وبين هذا المقعد وأحد أرفف الكتب كانت توجد أريكة فى لون الجلد يستريح ماركس عليها من وقت لآخر . وكانت توجد فوق المدفأة

كتب أخرى تتناثر بينها صناديق السيجار والكبريت وأوانى الطباق والصور الفوتوغرافية — ولم يكن يسمح لأحد أبداً بترتيب كتبه ، لازوجته ولا بناته ولا إنجلز ولا ويلهلم وولف ... ولكنه كان يستطيع مع ذلك أن يمد يده ويتناول الكتاب الذى يريده ؛ فإذا انشغل فى حديث فكثيرا ما كان يتوقف هنيهة ليتناول كتابا به نبذة يريد أن يستشهد بها أو ليرجع إليه فى بعض أمره ... ولم يكن يهمه المظهر فى ترتيب كتبه . فكانت الكتب والكراسات من مختلف الأحجام والأشكال تكدس بعضها فوق بعض دون اعتبار لحجمها أو شكلها ، إذ لم يكن أى احترام لمظهرها أو تجليدها أو جمال ورقها أو طبعها : فيثنى أركانها ويستعمل قلمه فيها بحرية تحت السطور وعلى الهوامش . ولم يكن فى الواقع يكتب الحواشى على الكتب ولكنه لم يكن يستطيع فى الوقت عينه أن يمتنع عن وضع علامة استفهام أو تعجب كلما بالغ المؤلف أو تخطى الحدود . وكان كل عام يعيد قراءة مذكراته ويضع خطوطاً تحت بعض النبذ لينعش ذاكرته ...التى كانت قوية ودقيقة إذ أنه كان قد دربها وفق طريقة هيجل التى تقوم على حفظ بعض الأشعار عن ظهر قلب بلغة أجنبية » .

وكان ماركس يكرس يوم الأحد لأطفاله ، وعندما كبروا وتزوجوا كرسه لأحفاده . وكان لكل فرد من أفراد العائلة اسم تدليل ؛ فكانت بناته « كيكى » و « كوكو » و « تاس » ، وزوجته « مومى » ، وكان هو نفسه يعرف باسم « المغربى » أو « نيك العجوز » بسبب سمرته ومظهره الغدّار . وظلت علاقته بعائلته سهلة ودودة . وقد دهش « كوفالكى » ، عالم الاجتماعى الروسى الذى كان يزوره فى سنواته الأخيرة لبساطته ، وكتب بعد ذلك بسنوات عديدة يقول : « إن ماركس يوصف عادة بأنه رجل كئيب متغطرس نبذ إلى الأبد كل العلوم والثقافة البورجوازية . ولكنه كان فى الحقيقة رجلا على قدر كبير من التعليم وسيدا إنجليزيا ألمانيا مثقفاً إلى حد كبير ، رجلا نمّت فيه عشرته الوثيقه مع « هاين » شيئاً من السخرية المرحه ، رجلا تملؤه متعة الحياة بفضل ما كان يتمتع به من مركز شخصى مطمئن » .

إن هذه الصورة اللطيفة لماركس التى تضفى عليه صفات المضيف المرح ، وإن لم تكن مقنعة كل الإقناع تعطينا على الأقل فكرة عن الاختلاف الكبير بينه فى ذلك

الوقت وبين ما كان عليه فى السنوات الأولى من حياته فى « سوهو » . وكانت متعتاه الرئيسيتان هما القراءة والمشى . وكان مغرما بالشعر ، ويحفظ أبياتا طويلة من « دانتى » و « وأخيلوس » و «شيكسبير » عن ظهر قلب . وكان إعجابه بشكسبير لا حد له ، وقد نشأ جميع أفراد المنزل على قراءته بصوت مرتفع وتمثيله ومناقشته باستمرار . وأيا كان ما يفعله ماركس فقد كان يفعله بطريقة منظمة . فعندما وصل إلى انجلترا وجد انجليزيته غير كافية ، فشرع يحسنها بأن كتب قوائم تضم عبارات من شيكسبير ثم حفظها عن ظهر قلب. وفعل نفس الشىء عندما تعلم الروسية ، فقرأ أعمال « جوجول » و « بوشكين » ووضع خطوطا تحت الكلمات التى لم يعرفها . وكان يتمتع بذوق أدبى ممتاز فى الألمانية ، اكتسبه فى شبابه ونماه بقراءة المؤلفات المفضلة لديه وإعادة قراءتها . وكان يروح عن نفسه بقراءة « ديماس الكبير » و « سكوت » أو القصص الفرنسية الخفيفة التى صدرت فى ذلك الوقت ؛ وقد أعجب إعجابا شديدا « ببلزاك » : ويرى أنه ضمن قصصه أدق تحليل للمجتمع البورجوازى فى عهده ؛ وإن كان كثير من شخصياته لم يكتمل نموه إلا فى الستينيات والسبعينيات بعد موت خالقها . وكان ينوى أن يكتب دراسة عن « بلزاك » بوصفه محللا اجتماعيا ، ولكن لم يتح له أن يبدأها . (وإذا قارنا القطعة الوحيدة الباقية من النقد الأدبى الذى خطه بقلمه — نقد « أيوجين سو » فى « الأيديولوجية الألمانية » — فإن هذه الخسارة ليست مما يؤسف له) . وكان ذوقه الأدبى بصفة عامة غير ممتاز ومملا رغم حبه الشديد للقراءة . وليس هناك ما يدل على أنه أحب الموسيقى أو الرسم ؛ فقد طغى شغفه بالكتب عليها جميعا .

وكان ماركس كثير القراءة دائما ، ولكن شهيته للقراءة زادت فى أخريات حياته إلى درجة عرقلت عمله الخلاق . وفى السنوات العشرة الأخيرة من حياته بدأ يتعلم لغات كانت جديدة عليه تماما ، مثل الروسية والتركية ، مبررا ذلك برغبته فى دراسة الظروف الزراعية فى تلك البلاد . فهو بوصفه من أنصار « يوركهارت » القدامى كان يضع آماله فى الفلاحين الأتراك الذين توقع أنهم سوف يكونون قوة كبيرة تهدم النظم القائمة وتقيم الديموقراطية فى الشرق الاوسط . وكان كلما زاد شغفه الجنونى بالكتب تحققت أسوأ مخاوف إنجلز ؛ إذ بدأت كتاباته تقل شيئاً

فشيئاً وتزداد تعقيدا وغموضا . فالمجلدين الثانى والثالث من « رأس المال » اللذين نشرهما إنجلز ، والدراسات المكملة التى يتكون منها المجلد الرابع الذى نشره « كاوتسكى » من مادة جمعت بعد موت مؤلفها كانت أقل كثيرا فى قوتها الذهنية وصفائها وحيويتها من المجلد الأول الذى أصبح من أمهات المراجع .

وكان ماركس يتدهور بسرعة من الناحية الجسمانية . وفى سنة ١٨٨١ ماتت « جنى ماركس » بداء السرطان بعد مرض مؤلم طويل . وكان كل منهما قد انتهى إلى أنه لا يستطيع الحياة بدون الآخر . وقد كتب إنجلز إلى ابنته « اليانورا » يقول : « لقد مات المغربى بموتها » . وعاش ماركس بعدها سنتين أخريين وظل يقوم بقدر كبير من المراسلات مع إيطاليين وأسبان وروس ، بيد أن قواه كان قد خارت تماما . وفى سنة ١٨٨٢ ، على أثر شتاء شديد القسوة ، أرسله طبيبه إلى الجزائر ليستعيد قواه . ووصل إليها بعد أن أصيب بالتهاب حاد أثناء رحلته . وقضى فى شمال أفريقيا شهرا كان الجو فيه باردا ورطبا على غير العادة ، عاد بعده إلى أوروبا مريضا مرهقا . وبعد عدة أسابيع قضاها متنقلا من بلد إلى بلد فى الريفيرا الفرنسية سعيا وراء الشمس ، ذهب إلى باريس حيث أقام بعض الوقت مع ابنته الكبرى « جنى لونجيه » . ولم يطل به المقام بعد أن عاد إلى لندن حتى جاءته أنباء وفاتها الفجائية . ولم يفق من هذه الصدمة ، بل ولم تكن به رغبة لأن يفيق ، فسقط صريع المرض فى العام التالى وأصيب بقرحة فى الرئة ومات فى ١٤ مارس سنة ١٨٨٣ وهو نائم وقد استلقى على مقعد فى حجرة مكتبه . ودفن فى مقبرة « هايجيت » إلى جانب زوجته . ولم يكن المشيعون كثيرين : أعضاء عائلته وقليل من الأصدقاء الشخصيين وبعض ممثلى العمال من مختلف البلاد . وألقى إنجلز كلمة وقورة مؤثرة فى جنازته تحدث فيها عن أعماله وشخصيته قال فيها :

« كانت رسالته فى الحياة أن يسهم بطريقة أو بأخرى فى قلب المجتمع الرأسمالى . . . وأن يسهم فى تحرير بروليتاريا العصر الحاضر الذى كان أول من جعلها تعى مركزها وحاجاتها وتدرك الظروف التى يمكن فى ظلها أن تحصل على حريتها . كان القتال ميدانه . وقد قاتل فى عنف وإصرار ونجاح لا يباريه فيها كلها إلا القليل . . ومن ثم فقد كان أكثر رجل تعرض للنميمة والعداء فى عصره . . .

ثم مات محبوبا محترما مبكيا عليه من ملايين العمال الثوريين من زملائه ، من مناجم سيبيريا إلى سواحل كاليفورنيا ، وفى كل مكان فى أوروبا وأمريكا . . إن اسمه وعمله سيخلدان على مر العصور » .

ومرت وفاته غير ملحوظة بين الناس تقريبا ؛ صحيح أن جريدة « التايمز » نشرت تأبينا موجزا وغير دقيق عنه ، وقد جاءها هذا التأبين فيما يبدو ، على الرغم من أن الوفاة حدثت فى لندن ، من مراسلها فى باريس الذى كتب إليها بما قرأه فى الجرائد الاشتراكية الفرنسية . وزادت شهرة ماركس بعد وفاته زيادة اطردت كلما بدت آثار تعاليمه الثورية أكثر وضوحا . إن ماركس ، كفرد من الأفراد ، لم يأسر فى وقت من الأوقات أخيلة الجماهير أو كتاب السير المحترفين بمثل ما أسرها معاصروه الذين كانوا أكثر منه حساسية ورومانسية ؛ ومما لا شك فيه أن « كارلايل » و « هيرزن » كانا شخصيتين أكثر إثارة للإشفاق منه ، إذ قاسيا عذاب صراع فكرى ومعنوى لم يجربه ماركس ولم يفهمه ، وكانا متأثرين ، أكثر منه بكثير ، بحالة القلق التى سادت جيلهما . وقد خلفا وراءهما وصفا مريرا دقيقا لهذه الحالة كتب بأسلوب أفضل ورونق أجمل مما يوجد فى أى كتابة من كتابات ماركس أو إنجلز . لقد قاتل ماركس ضد مجتمع عصره الشرير الساخر الذى بدا له أنه يحط من قدر جميع العلاقات البشرية ويبتذلها ، بحقد لا يقل عن ذلك عمقا . ولكن عقله كان مصنوعا من نسيج أقوى وأقل تهذيبا ، كان غير حساس ، قوى الإرادة ، واثقا بنفسه ؛ وكانت أسباب شقائه تأتى كلها من خارج نفسه ، من الفقر والمرض وانتصار العدو . وكانت حياته الداخلية هادئة مطمئنة ، غير معقدة ، إذ كان يرى العالم فى بساطة على ضوء اعتبارات محددة ؛ أولئك الذين لم يكونوا معه كانوا ضده . وكان يعرف الجانب الذى يقف معه ، وقضى حياته يقاتل فى سبيله ، وكان يعرف أن هذا الجانب سينتصر فى النهاية . وكانت أزمات الإيمان التى حدثت فى حياة ذوى الأرواح الأكثر وداعه من بين أصدقائه ، مثل « هيس » و « هاين » لا تلقى منه عطفا . فقد كان ينظر إليها على أنها انحطاط بورجوازى اتخذ صورة الاهتمام السقيم بالحالات العاطفية الخاصة أو ، ما هو أسوأ من ذلك ، صورة استغلال القلق

لاجتماعى السائد من أجل هدف شخصى أو فنى — بل طيش وانغماس ذاتى إجرامى من رجال لا يزال يجرى أمام أبصارهم أوار أكبر معركة فى تاريخ الجنس البشرى . وقد ورث خلفاؤه صرامته التى لا هوادة فيها إزاء المشاعر الشخصية ، وإصراره الذى يكاد يصل إلى مرتبة التزمت الدينى ، على اتباع نظام قاس من التضحية بالذات ، وقلده فى ذلك أعداؤه فى كل مكان . وإنها لصفات تميز خلفاءه الحقيقيين، أتباعا وخصوما على السواء ،عن التحررية المعتدلة فى كل مجال من المجالات.

لقد بشر آخرون من قبله بالحرب بين الطبقات ، ولكنه هو وحده الذى تصور خطة تهدف إلى تحقيق التنظيم السياسى لطبقة لا تقاتل إلا فى سبيل مصالحها بوصفها طبقة ، ووضع هذه الخطة موضع التنفيذ بنجاح — وهو بفعله هذا قد غير طابع الأحزاب السياسية والصراع السياسى تغييرا تاما . ومع ذلك فقد بدا فى نظر نفسه ، وفى نظر معاصريه ، صاحب نظريات اقتصادية أولا وقبل كل شىء . إن الفروض الكلاسيكية التى أقام عليها مبادئه الاقتصادية قد انتهى أمرها وحل غيرها محلها فى الوقت الحاضر إلى حد كبير ؛ إذ تسير الأبحاث المعاصرة على هدى أسس مختلفة ، أما المبدأ الذى ظل باقيا واستمر فى النمو ، والذى كان له نفوذ على الفكر والعمل معاً أعظم وأبقى من أى رأى آخر فى العصر الحديث ، فهو نظريته فى تكوين المجتمع الرأسمالى وتطوره ، وهى النظرية التى لم يشرحها بالتفصيل فى أى من كتاباته . إن هذه النظرية ، بتوكيدها بأن أهم سؤال يُسأل فيما يتعلق بأية ظاهرة من الظواهر هو ذلك الذى ينصب على علاقتها بالبناء الاقتصادى — أى ميزان القوى الاقتصادية — فى الكل الاجتماعى الذى تعبر عنه هذه الظاهرة ، قد خلقت أدوات جديدة من النقد والبحث غيرّ استعمالها اتجاه العلوم الاجتماعية وثقلها فى جيلنا الحاضر .

فلقد تأثر بذلك حتما جميع أولئك الذين يقوم عملهم على الملاحظة الاجتماعية ؛ وليس ذلك مقصورا على الطبقات المتصارعة وزعمائها فى كل بلد ، بل إن المؤرخين وعلماء الاجتماع وعلماء النفس والسياسة والنقاد والفنانين الخلاقين ، فى حدود محاولتهم تحليل الصفة المتغيرة لمجتمعهم ، مدينون بجزء من القالب الذى تتخذه أفكارهم لأعمال كارل ماركس . وقد مضى أكثر من نصف قرن منذ أن اكتملت،

وقد حظيت خلاله بأكثر من نصيبها من الإطراء واللوم. وأدت المبالغة فى التبسيط فى تطبيق مبادئها الأساسية بأكثر مما يجب إلى حجب معناها إلى حد كبير، فارتُكبت أخطاء عديدة، فى النظريات والعمل على السواء، باسمها. ومع ذلك فإن تأثيرها كان، وما زال، ثوريا.

لقد بدأ ماركس عمله ليدحض القول بأن الأفكار تحكم سير التاريخ، بيد أن مدى تأثيره هو نفسه على شئون البشر قد أضعف من قوة نظريته. لأنه بتغييره النظرة السائدة حتى وقته عن علاقة الفرد ببيئته وزملائه، قد أدخل تغييرا ملموساً على هذه العلاقة نفسها؛ ومن ثم ظل أكبر قوة بين القوى الفكرية التى تغير اليوم بصورة مستمرة الأساليب التى يفكر بها الناس ويعملون.

فهرس

صفحة



دار القلم

للطباعة والنشر والتوزيع

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

تليفون ٥٥٠٣٢ ، ٧٧٧٤١